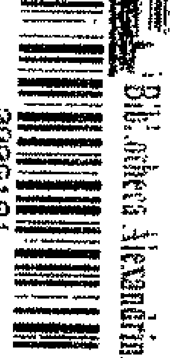


الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

١٩٨٤



دكتور
محمد مدحت جابر
أستاذ الجغرافيا المساعد - جامعة المنيا

بعض جوانب جغرافية العمران في مصر القديمة

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

١٩٨٥

المطبعـــة التجـــارية الحديثـــة
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

اتجه الاهتمام الى دراسة التاريخ المصرى القديم ، بعد أن أبانت الحفائر العديدة التى قامت بهـا بعثات متخصصة عن كنوز الحضـارة المصرية • وحظيت الفترة الواقعـة فى النصف الأول من القرن الحالى بنشاط ملحوظ فى ذلك المجال • وبعد أن توافرت مادة علمية متنوعة عن حضـارة مصر القديمة ، وضح أن الكثير من علامات الاستفهام لاتزال ماثلة ، وأن العديد من الموضوعات لايزال ينتظر اجابات شافية ترضى الباحثين •

وقد ظهر منذ البداية ، ان تلك الكنوز التى جادت بهـا الأرض المصرية ، قد انصبت على المعـابد والآثار الخاصـة بالحياة الثانية التى عمل المصريون من أجلهـا فى حياتهم الأولى ، تبعـا لمـا اعتقدوه فى البعث والحساب • لذلك فان الخوض فى موضـوع محـدد ــ كموضوع الدراسة الحاليـة ــ مثل جغرافيـة العمران فى مصر القديمة هو أكثر صعوبة تبعا لندرة المادة العلمية الخاصة بالموضوع ، وان كان المؤلف قد حاول بقـدر الامكان ، وفى حـدود المـادة المتاحة رسم صورة لابعاد جغرافية العمران فى مصر القديمة ، لعـل ان يفيد ذلك فى سد النقص الكبير فى ذلك المجـال وقد استفاد المؤلف بدون شك ، من الكتابات التاريخية العديدة ــ وان غلب عليها بطبيعة الحـال المنظور التاريخى ــ وكان لابد من اخضـاع هذه الكتـابات لمنهج الدراسة الجغرافية •

كذلك استفاد الباحث من بعض الدراسات الحديثة التى كتبت فى بلغات أجنبية ، وفى مجال جغرافية العمران المصرى القديم بالتحديد •

وفى النهـاية اسـأل الله سبحانه وتعـالى التوفيق والسداد •

المـؤلف

مقدمة

تهدف هذه الدراسة الى محاولة رسم صورة لجغرافية العمران فى مصر القديمة ، وتحديد مصر القديمة هنا تحديد عام • ويعنى ذلك أن الدراسة تنسحب أصلا على فترة الأسرات المصرية والتى تبدأ حوالى سنة ٢٧٠٠ ق.م بحسب التقسيم الذى أورده « بوتزر Butzer »[1] وتنتهى سنة ٣٣٢ ق.م بتأسيس الاسكندرية ومعنى ذلك ان تلك الفترة سوف تلقى الاهتمام الأكبر فيما يختص بمكونات جغرافية العمران •

وليس معنى ذلك ان الفترة التى سبقت ذلك التحديد (عصر ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات) أو التى تلت ذلك (العصر البطلمى والرومانى) لن تلقى أى اهتمام اذ ان الأشارة اليهما له ضرورته فيما يختص بالتطور الذى لحق مكونات جغرافية العمران على طول التاريخ المصرى ، ولكن ستكون الفترة المشار اليهـا هى التى نستقى منهـا كل الأمثلة الدالة لما نورده هنا ، وستكون هى الممثل لما يساق منسوبا لجغرافية العمران فى مصر القديمة •

وفى دراسة عمرانية كهذه ، تهتم أساسا بجغرافية العمران التاريخية ، لا شك ان منهج البحث التاريخى هو الأساس الذى تعتمد عليه • وسوف تسير الدراسة معتمدة عليه الى جانب المنهج الموضوعى بمعنى أن الدراسة تجنح الى الناحية الاصولية systematic من البداية الى النهاية •

وبناء على ما تقدم ذكره من توضيح ، فانه فى دراسة تشغل مساحة زمنية تبلغ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا من الزمان ، كان لابد من عمل مسح شامل للكتب التاريخية التى اشارت الى بعض جوانب جغرافية العمران عن غير قصد فى اغلب الأحيان ، وعن قصد فى قليل من الحالات ، وأيضا الكتب الجغرافية القليلة التى تناولت بعض

---

(1) Butzer, K., W., Early Hydraulic civilization in Egypt, Chicago and London, 1976, p. 5.

جوانب الموضوع وغير ذلك من الكتابات المفيدة فى دراسة الموضوع دراسة جغرافيه •

ولا شك ان تعدد فروع العلم التى تخدم مثل هذا الموضوع لتؤكد على ان الجغرافيا بالفعل علم بينى Interdisuplinary وقد روعى دائما ان تكون دراسة هذا الموضوع ذات منظور جغرافى عمرانى صرف ، برغم طول للفترة الزمنيـة التى يشغلها ، لا سيما وأن القريه كمكان للسكن والتجمع عرفت منذ فترة باكرة فى مصر شأنها فى ذلك شأن بعض مناطق العالم ولكنها بالقطع كانت فى مصر من أسبقها معرفة[1] •

أما عن صعوبة هذه الدراسة ، فهى مسألة مؤكدة مادامت تتناول المنظور المكانى من التاريخ المصرى ، ويلاحظ ان ذلك المنظور المكانى تقابله عقبات أهمها أن محلات العمران الريفى والحضرى أساسا غائبة شواهدها ، مما جعل بعض الكتاب يتحدث عنهما افتراضيا أو نظريا • وليس ذلك غريبا مادام المنظور الزمانى للتاريخ المصرى نفسه ملىء بالفجوات وعلامات الاستفهام ، ولذا كانت مثل هذه الموضوعات لا تجد اقبالا من الباحثين لغياب ادلة الخوض فى دراستها وتحليلها ، حيث كان الجانب المتصل بالآخرة يهيمن على اهتمام المصريين القدماء ، بينما لا نجد أى مثال لمحلة عمرانية دنيوية تشفى غليل الباحث فى مجال دراسة جغرافية العمران •

وعلى ذلك فالدراسة التى نحن بصددها ، تحاول استجلاء هذه الجوانب العمرانية بقدر الامكان فى حدود المعلومات المتاحة فى ذلك المجال •

---

(1) Flannery, K. V., The orgin of village settlement type, in Meso - America and the Near-East: A comparative stuhy, in Ucko, P. J., Tringham, R.; and Dimbleby, G. W. eds. Man, Settlement and urbanism, London, 1972, p. 23.

الباب الأول

العمران المصرى القديم وخصائصه

الفصل الأول : البيئة الطبيعية والبشرية وتطورها وأثرها فى العمران

الفصل الثانى : توزيع العمران والمحلات العمرانية .

الفصل الثالث : العمران المصرى القديم وعلاقته بالسكان واستخدام الأرض .

الفصل الرابع : الموضع والموقع لمحلات العمران المصرى القديم .

الفصل الخامس : التخطيط العمرانى وأبعاده فى مصر القديمة .

الفصل الأول

البيئة الطبيعية ، وتطورها ، وأثرها فى العمران المصرى القديم :

شهدت فترة العصر الحجرى القديم الأعلى مولد نهر النيل ، بعد استقرار الأحوال المناخية ، وقيام النظام المناخى الحالى فى الحبشة ، ونظام الفيضان المتصل بهذا النوع من المناخ[١] ، والذى سيكون أكبر العوامل المؤثرة فى العمران فى مصر .

وكما يذكر « حزين » ان علاقة الانسان ببيئته الجغرافية فى مصر القديمة ، كانت علاقة تأثير متبادل متطور المظاهر[٢] .

والواقع ، انه عند الحديث عن البيئة الطبيعية وأثرها فى العمران سواء فى الوادى أو الدلتا فنحن نعنى بذلك بداية استقرار الانسان فى هذه الانحاء بعد طول ترحاله على الهضبتين . . ولم يحدث انتقال الانسان الى الوادى فجأة ، ولكن واكب ذلك التطور المناخى فى المنطقة .

ويذكر بوتزر Butzer ان المطر قل فى الصحراء الشرقية والغربية بحيث اصبح غير كاف لتدعيم واعاشة أى حجم سكانى ذا اعتبار ، باستثناء المناطق ذات الأودية والينابيع وكان ذلك منذ ٣٠ — ٥٠ ألف سنة مضت ، صحب ذلك تعرض السهل الفيضى للفيضانات المرتفعة العارمة ، ومنذ ٢٥ — ١٧ الف سنة اصبح المناخ جافا بمثل ما هو عليه الآن ، ثم منذ ١٧ — ٨ آلاف سنة مضت كانت الأمطار الشتوية أغزر مما هى عليه الآن ، بينما كانت الفيضانات منخفضة عن ذى قبل حوالى ٦٠٠٠ — ٥٠٠٠ ق.م. وعاليه مرة أخرى بين ٥٠٠٠ — ٣٧٠٠ ق.م. ثم بعدها منخفضة على فترات ، وقد أدى المناخ الارطب الذى ساد

---

(١) مصطفى عامر ، حضارات مصر ما قبل التاريخ — فى وزارة الثقافة والارشاد القومى — تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى — المجلد الأول — مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ — ص ٤٩ .

(٢) سليمان حزين — البيئة والانسان والحضارة فى وادى النيل فى وزارة الثقافة والارشاد القومى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥ .

فى عهد ما قبل الأسرات المتأخرة ، وبداية الأسرات الى تدعيم الحياة النهائيـة المتنوعة فى الوادى وحـول حوافة ، وكـذا فى تـلال البحر الأحمر[١].

وكان لهذه التطورات المناخية آثارها العمرانية ، فمن الثابت أن العصر النيوليتى قد انتهى فى مصر والعراق قبل ان يحدث مثل ذلك فى شمال غرب أوربا بحوالى ٢٠٠٠ سنة وكان من نتائج التطور المنـاخى التجـاء الصيادين والحيوانات أيضـا الى وادى النيـل تنشد القوت والمـاء ، مما سهل اصطيادها واستئناسها فيما بعد ، ويذكر « برستد » ان الثور والضأن والماعز والحمير كانت متوحشة ، استأنسها الانسان شيئا فشيئا[٢].

ويرى البعض ان الصحراء الغربيـة مع ذلك ، فى فترة ما قبـل التاريخ كانت مناسبة للاستغلال الفصلى من قبل الرعـاة ، وربما كان اقتصار مواضع العمران فى البدارى ونقاده على حواف الصحراء عند أطراف السهل الفيضى راجعـا الى النشاط الرعوى الفصلى لجزء من السكان الذين كانوا يخرجون الى الصحراء[٣].

وقـد بدا تأثير المصرى القديم بالبيئـة الطبيعيـة فى اختيـاره مواضع محلاته فى عهد ما قبـل الأسرات هذا ، من ذلك ما سبق ذكره عن نقادة والبدارى ، وأيضـا يبدو فى اختيـاره لمواضع سكناه كمـا يبدو ذلك فى المعـادى قرب قمة الدلتا ، على ربوة ضيقة يمتد طرفها الغربى حتى حافة السهل الفيضى وهنا وجدت محلة لا تقل مساحتها عن ٤٠ فدانا ، والموضـع يبين مزايا سهولة الاتصـال والحركة لسكانه ، والقرب من النيـل غربا ، والاتصـال شرقا عن طريق الوديان بخليج السويس[٤].

---

(١) Butzer K., op. cit. p. 13.

(٢) جيمس هنرى برستد — انتصار الحضارة — ترجمة أحمد فخرى — مكتبة الانجلو المصرية — سنة ١٩٥٥ ، ص ٣٤ .

(٣) Butzer, K., op. cit. p. 14.

(٤) مصطفى عامر — مرجع سبق ذكره — ص ٥٨ — ٦٢ .

وقد جنحت مواضـــع المحـــلات العمرانيـــة غالبا الى احتـــلال الرابييتين اللتين كانتـــا تميزان السهل الفيضي حول المجرى لاتخاذها الشكل المحدب ، وقبـــل ادخـــال الزراعة كانت الأشـــجار والغـــابات والنباتات النامية هى أساس العمران سواء للمساكن التى بنيت منهـــا ، أو للحيـــاة الاقتصادية حيث كان نظـــام الرعى هو السائد •

وشيئا فشيئا ، عن طريق ملاحظة النباتات البرية ، وخزن بذورها تعـــلم المصريون الزراعـــة ، وعرفوا كيف يخـــزنون ويحفظون البذور ليبذروها فى العـــام التالى • وعرفوا تربية الحيوانات فى الحظـــائر ، وكيف يصبحوا منتجوا غـــلال بدلا من جامعين لها • كما أصبحت قراهم الصغيرة مساكن ثابتة لاقامتهم ، كما كانت المساحة التى يمكن زراعتها فى العصر الحجرى الحديث أقـــل بكثير من مساحة الوادى لاحتـــلال المستنقعات له ، كما كانت زراعة شواطىء النيـــل عمـــلا صعبا لسرعة تيـــار النهر ، وقوته ، بينما كان يتفرع فى الدلتا الى عديد من الفروع مما جعـــل استصلاح المستنقعات وزراعتها اسـهل هناك ، ولذا كان سكان الدلتا مع مضى الزمن اسبق فى الحضـــارة ، عن سكان الصعيد ، كما كانوا اسبق فى التنظيم الاجتماعى والمركزى[١] •

وفى بداية معرفة الزراعـــة ، لم يكن ثمة حاجـــة للصرف ، وكان الفيضان يسمح بفصـــل زراعى واحد على ثلثى المساحة الفيضية •

ومن الجدير بالذكر ان الرى الصناعى ليس حديثا فى مصر ، فقد مورس منذ بواكير التـــاريخ المصرى ، وكان يسمح بزيادة المســـاحة المحصولية ، وزراعة محصول ثان ، وربما ثالث وزراعة أراض جديدة ، بعيدة عن النهر ، وقد مارسه المصريون القدماء لمدة ٢٠٠٠ سنة قبـــل قيـــام الوحدة السياسية بين مصر العليـــا والدنيا[٢] •

والدلائل الأولى للرى الصناعى هى لوحة الملك العقرب احد ملوك ما قبل الأسرات يحتفـــل بقطع احدى قنوات الرى ، ومعنى ذلك ان

---

(١) جيمس هنرى برستد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ — ٦٧ •

(٢) Butzer, K., 1976, op. cit. p. 10.

الرى الطبيعى الى المطور والصناعى ، قد أكتمل بنهاية فترة عصر ما قبل الأسرات .

ويعارض بونتزر ، آراء كل من هيرودت ، ويلسون Wilson من ان الدلتا فى نفس الفترة كانت مليئة بالمستنقعات وغير مسكونة ، فقد ادى وجود عدد من الروابى الخطية والجسور ومساحات الجزر الرملية ، الى جذب المحلات العمرانية ، بينما كانت الأرض التى تغمر فصليا ، ملائمة للزراعة ، والرعى ، وكان اقصاها فى الشمال فقط مشغولا بالمناقع ولما كان هناك ١٠ أمتار من الرواسب ارسبت فى ٦٠٠٠ سنة الماضية ، فمن الطبيعى أن تغيب أية دلائل عمرانية تنتمى الى الدلتا(١) .

ويمكن لنا أن نجمل العوامل الطبيعية المؤثرة فى العمران فى فترة الأسرات المصرية فيما يلى :

١ — التغير المناخى فى اتجاه الجفاف .

٢ — تذبذب فيضان نهر النيل .

٣ — اتساع الوادى واختلاف وتغير طوبوغرافيته .

أما العوامل البشرية المؤثرة فى العمران فتكمن فيما يلى :

١ — تطور معرفة الانسان المصرى القديم التى انعكست على استغلاله للبيئة .

٢ — التأثيرات البشرية الوافدة على مصر وآثارها العمرانية .

أولا : العوامل الطبيعية وآثارها فى العمران :

١ — التغير المناخى فى اتجاه الجفاف :

تميزت فترة ما قبل الأسرات بكثافة المطر ، ولكن خلال النصف الأول من الألف الثالثة ق.م . وصلت ظروف المناخ الى مثل ما هى عليه

---

(١) Ibid. p. 25.

الآن من الجفاف ، وأمكن استنتاج ذلك من عديد من الشواهد ، وشاع الجفاف فى كل مكان بالصحراء[١] ، واختفت كثير من الحيوانات الضخمة كالفيلة ، والزراف ، كذلك حلت أنواع حيوانية مقاومة للجفاف ، واسهم الانسان — الى جانب المناخ — فى القضاء على مثل هذه الحيوانات عن طريق صيدها ، ويمثل هذا التغير فى ظروف الحيوان ، حدث تغير فى النبات ، ويرى Butzer ان الاتلاف النباتى بفعل الجفاف حدث تاليا للأسرة الأولى[٢] ، وثبت هجر السكان لمحلات عند حافة الصحراء لعصر ما قبل الأسرات المتأخرة • ويرى كل من Baines and Malek ان هذا الجفاف كان دافعا لبداية تكوين الوحدة السياسية المصرية وقيام الدولة[٣] •

٢ — تذبذب فيضان نهر النيل :

تدل الدلائل على أن فيضان النيل فى عهد الأسرات كان غير مستقر كما كان عليه الحال فى العصر الحديث قبل بناء عديد من مشروعات الرى للتحكم فى النهر • وقد اثبتت دراسات عديدة ، ان مستويات الفيضان كانت تتجه للهبوط الذى كان أكثر سرعة خلال أواخر الأسرة الأولى وبداية الثانية ، وقد اثبت كل من Vandier, Ball آثار ذلك الهبوط عمرانيا ، وما صحب ذلك من كوارث ومجاعات ، والتى سجلت احداها فى بنى حسن[٤]•

وفى الدولة الوسطى ، فان تحليل سجلات ٢٨ فيضانا يوضح ان الفيضانات كانت عالية فى النوبة بين ١٨٤٠ — ١٧٧٠ ق•م • وتسجيلات الدولة الحديثة يعتورها النقص ، وان كانت الاشارات تؤكد ان

(١) Butzer, K. W., Environment and archeology. An ecological approach to prehistory, Chicago, Aldine upb. Co., 1971, p. 581 ff.

(٢) Butzer. K. W., 1976, op. cit. p. 27. and p. 40.

(٣) Baines, J., and Malek, J., Atlas of Ancient Egypt, Phaidon. Oxford, 1980, p. 14.

(٤) Butzer, K. W., 1976, op. cit. p. 28.

الفيضـــانات كانت غير مواتيـــة بصـــورة غير طبيعيـــة ، فى القـــرن الخامس ق٠م٠ ، كما كان عليـــه الأمر فى القرن الأول ق٠م٠[١]٠

كذلك فانه فى بعض الحـــالات فى الدلتـــا أيضـــا ، أدى نقص التصرف المائى للفرع البللوزى الى ترك المقر الملكى فى مدينة بى رميس Pi-Ramesse وذلك الى مدينة Djane (تانيس) على الفرع التانيتى بعد سنة ١٢٠٠ ق٠م٠ كما اثبت ذلك بيتاك Bietak [٢] ٠

وكان ذلك التذبذب داعما الى تعـــاون الســـكان فى اقامة المحلة العمرانية فوق كومة كبيرة عاليـــة يتضافر السكان على جمعها من تراب الأرض لتكون من الضخامة بحيث لا يجرفها التيـــار ، ولا تتخللها مياه الرشح ، وبحيث تكون من الارتفـــاع بما يجعلها فوق مستوى المـــاء ٠ وترتب على ذلك تركيز القرى فى وحدات كبيرة واستلزم ذلك كله توحيد جهـــود الســـكان وتنظيمها ، حيث تقـــام القـــرى فى مأمن من غائلة الفيضـــان [٣] ، ويرى لويس ممفورد انه رغم هذا التعاون بين السكان فى أقامة المحـــلات وأبعـــاد الخطر عنها ، فان المحلة الريفية بالمقارنة بالمركز الحضرى فيما بعد ـــ كانت تحت رحمة الطبيعـــة ، بينما كانت المدينة بمؤسساتها وتخصصاتها ، وسكانها ، أكثر مقـــاومة وصـــلابة امام تلك العوامل ، ويرى كذلك ان المحـــلات كانت تقـــام فى الاجزاء النائية والجافة ، كما ان الزراعة كانت فى بعض المناطق التى لا تصلها المستنقعات وان ذلك كان يتم بصورة تدريجية[٤]٠

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن نذكر أيضا ، أن الفيضان لعب دورا آخر فى حمـــاية العمـــران المصرى أحيانا من الغزاة ، فيذكر « فخرى » أنه فى الأسرة ٣٠ وحين حشـــد الفرس حوالى ٢٥٠ ألف جندى لغزو مصر ، كان أحد عوامل الحماية الكبرى هو فيضان النيل

---

(١) Tousson, O., Memoire sur L'histoire du Nil., Men. Inst. Egypte. 8-10, 1925, p. 413 ff.

(٢) Butzer, K. W., 1976. op. cit. pp. 29-30.

(٣) سليمان حزين ـــ مرجع سبق ذكره ـــ ص ١٧ ٠

(٤) لويس ممفورد ـــ المدينة على مر العصـــور ـــ الجزء الاول ـــ مكتبة الانجلو المصرية ـــ القاهرة ١٩٦٤ ص ص ١٠٠ ـــ ١٠٢ ٠

حينئذ ، فاضطروا للتقهقر الى آسـيا مرة ثانيـة[1] . وفى الدلتا كانت مواضع العمران تختار أيضا مواضع بعيدة عن الغمر ، ويرى « نورثام » Northam ، أن القـرى المسـورة تطورت فى الدلتـا أولا حوالى ٣٥٠٠ ق.م. ، وتجمعت هذه القرى فى وحدا تتلها استقلالها الذاتى ، وكل لها نظامها الاروائى التعاونى اللازم للزراعة الأساسية وحبوبها وخاصة القمح والشـعير[2] .

٣ — اتساع الوادى واختلاف وتغير طوبوغرافيته :

كان لاتسـاع الوادى نسبيا فى منطقة ادفو واسـنا مع وجود الصحارى على الجانبين المكونة من الحجر الرملى (الخراسان النوبى) أثره فى أن هـذه المنطقة ، كانت أول أقاليم مصر العليـا اتسـاعا ، واستقرت بها جماعات بشرية منـذ أقدم العصور ، وفى اقليم ادفو قامت مدينتا نخب ونخن القديمتان على ضفتى النيل الشرقية والغربية ، كذلك جذب اتسـاع الوادى فى منطقة ثنية قنـا العمران ، ونشطت العلاقات بين المنطقة وما يجاورها حتى البحر الأحمر ، لذا قامت هنا عاصمتان مصريتان قديمتان هما طينـة (قرب البلينا) وطيبـة أعظم العواصم المصرية[3] .

وارتبط اتساع السهل الفيضى فى الوادى على وجه الخصوص بحركات متغيرة للمجرى ، اذ أثبتت الدراسات أن النيل كان يجنح فى اتجاه الشرق على طول الألفى سنة المـاضية وأثر ذلك على العمران كثيرا ، ومن الكتابات القـديمة ، ومن دراسـات بوتزر Butzer نرى على سبيل المثال أن المنطقة التى بها مواضع المراغة وطهطا ، وطما ، نجد أن مواضع تلك المحلات ومواضع غيرها كانت عمـوما فى العصر الهلينستى تقع فى المتوسط الى الغرب بحوالى ٣ كم عما هى عليه الآن .

---

(١) أحمـد فخرى — مصر الفرعونية — الطبعة الثانية — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة سنة ١٩٧١ ، ص

(٢) Northam, R. M., urban Geography, Willey, New York, 1975, pp. 25 - 30.

(٣) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٢١ — ٢٢ .

وكان عليها أن تحتل مواضع جديدة على الجســور المرتفعة ، وتشير الدراسات أيضا الى أن المجرى فى عهد الأسرات كان مختلفا عما هو عليه الآن ، وكان محور النيل الى الغرب عن مجراه الحالى بين أخميم وموضع القاهرة ونتج عن ذلك وقوع محلات عمران على النيل مباشرة فى ذلك الوقت ، ولكنها ليست كذلك اليوم ، على ذلك ، فمــدن قديمة مثل القوصــية ، والأشــمونين (Khonum) ، والقيس (Saks) وممفيــس (Menfe) نجدها على النهر زمن بطليموس حين كان محور النيل غرب المجرى الحالى وهى ليست كذلك اليوم ، وقد جرت تغيرات أقل فى المجرى فى الجنوب[١]. أما فى المواضع التى لم تتعرض لذبذبات فقد كاد تثابتة ، ولم تتغير كثيرا حتى الآن فى معظمها اســتفادة من تعاقب ارتفاع الموضع الخاص بالمحلة وتراكم حطام المبانى من السنين الماضية مما يجعلها مفضلة من السكان للبعد عن الغمر والفيضان[٢]. وقد أيدت دراسة عديد من القطاعات الجيولوجية التغيرات الطبوغرافية فى الوادى كذا هجرة مجرى النيل ومن ذلك التثقيبات والقطاعات التى أجراها عليــه[٣].

أما فى الدلتا ، فكانت الفروع العديدة عرضة للتغيير ، والتحول من سنة لأخرى مما أثر أيضا على مواضع المحلات ، وأدى الى تغير الحدود باستمرار بين الأقاليم والمقاطعات المتجاورة وهو ما كان يحدث بصــورة أقل فى الوادى[٤] ، ولكن فى الضــفة الشرقية من الوادى ، وخاصة فى جزئه الشمالى ، فان النهر دمر العديد من مواضع العمران ، ولم ينج من ذلك سوى بعض المواضع مثل المقابر والجبانات ، التى بقيت عند حافة الصحراء الشرقية ، ولا شك أن ذلك يثير مشاكل عدة خاصة بالمواضع التى يصعب تحقيقها اليوم ، وتلك التى اندرست .

---

(١) Butzer, K. W., 1976. op., pp. 33 - 35.

(٢) Baines and Malek, 1980, op. cit., p. 14.

(٣) Attia, M. I., Deposits in the Nile valley and the Delta, Cairo, 1954, pp. 46-52.

(٤) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٢٣ .

٤ — العوامل البشرية المؤثرة فى العمران :

١ — تطور معرفة الانسان المصرى القديم التى انعكست على استغلاله لبيئته :

أصبحت الزراعة أساسا الى جانب بعض المناشط الثانوية الأخرى ، هى حرفة المصرين المستقرين فى الوادى والدلتا منذ اتجاه المناخ نحو الجفاف ، وقد تطورت معرفة هذا الانسان الفنية فيما يختص بالزراعة وادارتها منذ آخر العصر الحجرى الحديث وما بعده ، ولعل أهم ما يميز الزراعة المصرية ، وبالتالى الحضارة ، هو اتصالها رغم بعض فترات التفكك السياسى ، وذلك يجعلها متفردة عن الحضارات الأخرى ، كما فى العراق مثلا[1] وبطبيعة الحال فان النيل هو مصدر الحياة ، والمعلم الأول لتطور النواحى الفنية لدى المصريين فى ذات الوقت عن طريق ملاحظته ، وقد حاكاه المصرى القديم ، كما يذكر « ممفورد » فى شق ترعة وقنواته بشكل طولى[2] . وتفتقت عقول المصريين القدماء بعد احتراف الزراعة عن الشكل العمرانى الذى لا زال حتى اليوم وهو القرية وبتطور أفكارهم تطورت المنازل بها وتركيبها الداخلى الذى راعى وجود أماكن لتخزين الفائض ، وتمت معرفة الانسان بأدوات الزراعة بصورة تدريجية ، فعرف الشادوف مثلا فى عهد الأسرات ، بينما لم يعرف الساقية الا فى العهد الاغريقى الرومانى[3] . كذلك كانت معرفة المصرين للولب أرخميدس (الطنبور) فى عهد البطالمة ، كما عرفوا الدورة لتفادى ضعف التربة[4] ، وفطن المصرى منذ البداية الى أن الانحدار الطفيف للنيل (١ : ١٢٠٠٠) يؤدى الى عدم مناسبة شبكات الرى الاشعاعية Radial فى مصر ، فيما عدا منطقة الفيوم . وأدى الاهتمام بالرى منذ البداية الى امكان

---

(١) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٦ .
(٢) لويس ممفورد — مرجع سبق ذكره — ص ١٠٠ .
(٣) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٢٧ .
(٤) ابراهيم نصحى — تاريخ مصر فى عصر البطالمة — الجزء الثالث مكتبة الانجلو المصرية — الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٦ — ص ١٠ ، ١١

الحصول على أكثر من محصول ، وتحقق ذلك فى الفيوم زمن البطالمة اذ وصلت المساحة المزروعة هناك الى ١٣٠٠ كم٢ وهو رقم يقرب من المساحة المزروعة سنة ١٨٨٢ ، وقريب منه اليوم (١٨٠٠ كم٢)(١) ويرى البعض أن التوسع فى الرى الصيفى بمعناه الذى نعرفه اليوم لم يحدث سوى فى الفيوم ، وفى عهد البطالمة حيث حققه الانتاج احصولى المعقد هناك فى القرن الثالث ق٠م٠ (٢) ٠

وتعطى الاشارات التاريخية معلومات ضئيلة عن استخدام الأرض فى البيئة الريفية المصرية ، وعموما كان نمط استغلال الأرض بسيطا قائما على الزراعة الشتوية ، المعتمدة على الأحواض الفيضية ٠ وكان النظام الاروائى أيضا بسيطا ويعمل على أساس محلى وليس قومى ، وتمثلت النواحى المركزية فى الزراعة فى جمع الضرائب ، ويستثنى من ذلك الجهود المركزية للدولة بعد أن تطورت امكاناتها الفنية ، مثل جهود أمنمحات الثالث ، وبطليموس الثالث فى نواحى التطوير الزراعى وزيادة المساحة فى الدلتا والفيوم(٣) وذلك فى مناطق هامشية ، وغير منتجة وأراضى بور من أجل زيادة الدخل ٠

ويرى بوتزر أن المعرفة المصرية بالرى وأدواته ونظامه عموما فى عهد الأسرات صممت لتوسيع الزراعة الشتوية ، وتقليل آثار تباين الفيضانات السنوية ، وحماية المحلات العمرانية ، والحقول من التدمير ، بينما كانت الزراعة الصيفية مشابهة للزراعة البستانية الحالية فى صورة رقاع صغيرة ضيقة المساحة(٤) وفطن المصريون منذ البداية الى كيفية التغلب على صعوبات البيئة سواء بأدوات أنتجوها لمواجهة ذلك ، أو بالتصرف فى حدود امكانات البيئة ٠ واذا ما جاءت الفيضانات مدمرة ، كانوا يأخذون قطعان الحيوانات الى حافة الصحراء فى وقت مبكر ، قبل أن يصبح ذلك غير ممكن ، وكانوا يحتفظون ببعض الفائض

---

(١) Butzer, 1976, op. cit., p. 47.

(٢) Crawford, D. J., An Egyptian village in the ptolemical period, Cambridge, Cambridge University Press, 1971, p. 112 y.

(٣) Ibid., p. 41 ff.

(٤) Butzer, K. W., op. cit., p. 51.

لمقابلة الكوارث ، لأن الفيضانات كانت تتلف المحاصيل ، وتؤخر الحصاد حتى ابريل حين تأتى الخماسين فتعمل على تجفيف المحاصيل[١] .

وتعلم المصريون كذلك ، كيف يدعمـون الجسـور ، ويطهرون القنوات ، ويتغلبون على الصعوبات النـاجمة عن انخفاض منسوب الفيضان التى كانت لها آثارا شبيهة بهذه الآثار التى كانت تحدث فى وادى النيل فى القرن ١٩ حينمـا كان الرى الصيفى غير معروف على نطاق واسع ، وكان يترتب على ذلك أن ٣٥ ٪ من وادى النيل لا تصله الميـاه الكافيـة[٢] .

٢ — التاثيرات الأجنبية الوافدة على مصر وآثارها العمرانية :

كان تأمل المصريين لبيئتهم وخاصة نهر النيل ونظـام جـريانه وفيضـانه وعلاقته بالأرض ذا أثر كبير فى الحياة الاقتصادية أساس العمران وخاصة الزراعة ومع ذلك يرى الكثير من العلماء أن نشـأة الزراعة كان فى مكان ما بآسيا . ولا شك أن التأثيرات الأجنبية كان لها دورها فى العمران المصرى ولكن ليس بالصورة التى تنكر على الشعب الذى أقام الاهرامات وشيد المعابد العظيمة الباقية للآن ومعها المدن والمحلات ، حقه ودوره فى الابداع والحضارة . لذلك نجد أن الحضارة المصرية كانت أحيانا أكثر تأثيرا فى جيرانها ، حقيقة لقد عرف المصريون استخدام الأخشاب واستوردوها من الشام وعرفوا كيف يبنون منها الأساطيل وكيف يستخدمونها فى المبانى ، ولا يحسب ذلك لأهل المناطق التى استوردوا منها الأخشاب بل يحسب للمصريين الذين عملوا على جلبها ، أكثر من ذلك أثر المصريون فى أهل هذه البلاد حتى انه وجدت هناك معابد تحاكى المعابد المصرية . كذلك يحلو للبعض أن يرجع كل تطور فى الحضارة المصرية الى أصل أجنبى . وعلى سبيل المثال ، فان Baines and Malek يريا أنه خلال عهد الأسرات زادت مساحة المناطق

---

(١) Willcoks, V., and Craig J., Egyptian Irrigation, 3ed. 2 Vols. London, 1913, p. 304.

(٢) Ibid., p. p. 176.

المروية فى الوادى تدريجيا ، مع وجود بعض الانتكاسات أحيانا وخاصة حوالى ٢١٠٠ ق٠م٠ وكانت تلك الزيادة جزئيـــا بسبب تطور المعرفة الفنية وترقيتها ويقرران أن ذلك تطور قد جاء من الخارج ، وأما السبب الثانى للزيادة فكان بسبب استصلاح الأراضى[1]

ولا يمكن لأحد أن يدعى أن شعبا من الشعوب قد طور كل قدراته الفنية وصنع كل ما عرف من آلات بنفسه وعلى أرضه ، وقـــد كانت احدى ميزات الاحتكاك الحضارى القديم تفاعل هذه الحضارات مع بعضها البعض ، وان احتكاك المصريين بالأجانب زاد من خبرتهم سواء فى السلم أو الحرب فكما طوروا أدوات الزراعة زمن البطالمة وعرفوا الساقية والطنبور بعد أن عرفوا قبلهما الشادوف ، استفاد هؤلاء من المصريين وعبـــدت آلهة المصريين فى الخارج ، وجاء علمـــاء الاغريق وفلاسفتهم ليتعلموا فى مدن مصر ومعاهدها كما سيأتى تفصيل ذلك فى موقعه من هـــذه الدراسة وكما عرفوا العجلات الحربية بعد غزوة الهكسوس ، تأثر هؤلاء البدو الغزاة بالحضارة الراسخة ويرى العديد من المؤرخين أنهم تمصروا حين استقروا بمصر ٠

---

(١) Baines, J., and Malek, J., op. cit., p. 16.

الفصل الثاني

توزيع العمران والمحلات العمرانية

مقـــدمة :

ارتبط توزيع العمران منذ البداية ـــ وكما سبق ذكره ـــ أساسا بالمعطيات الطبيعية فى الوادى والدلتا ، وكان لاتساع السهل الفيضى ، وحجم أحـــواض الرى دورها الكبير فى توزيع الســـكان وكثافتهم ، وبالتالى كثافة المحلات العمرانية .

ويمكن القول أن الضغط على الأرض وكثافة السكان كانت قليلة خلال عهد ما قبل الأسرات ويعنى ذلك أن استغلال الأرض كان واسعا وانتشـــاريا extensive وقد عضد الزراعة أيضا بعض الرعى والصيد والحياة البرية وبعض الثدييات ، وكانت مواضع العمران فى ذلك العهد تتخير نفس الأماكن المرتفعة على الجســـور الفـــاصلة بين الأحواض والحواجز والجســـور Levees وكذا عنـــد أطراف الصحراء ، وكان السهل الفيضى مشغولا فى حوالى نصف مساحته بالسافانا والأدغال والذى استخدم فى الرعى الموسمى والجمع والالتقاط وكانت الحيوانات تنسحب خلال الفيضـــان نحو الجســـور والحواف الصحراوية[1] . وشـــيئا فشيئا زاد ضغط السكان على الموارد ، بعد تضاعف أعدادهم وكان للتناقض البيئى Enevironmcntal contrast الذى عبر عنه Butzer أثره فى اختـــلاف نمط العمران فى أجـــزاء مصر ، فى الوادى والدلتا والواحات الصحراوية ، وفى الفيوم . وتشير جميع الدلائل الى أن أقل مناطق الجذب العمرانى فى عهد الأسرات كانت المنـــاطق الصحراوية حيث سكن هذه المنـــاطق أقل من ٥٠ ألف نسمة وكان نمو العمـــران وتوزيعه مرتبطا بنمو الرى وتحسين طرقه ، واستصلاح بعض الأراضى الغير صالحة للزراعة والتى تغطيها المستنقعات والمناقع والتى كانت مع

---

(١) Butzer, K., 1976, op. cit., pp. 85-56.

ذلك مصدرا للبردى الذى اشتهر به المصريون ، ولكنها بعد ذلك تحولت الى مناطق معمورة ذات زراعة كثيفة [١] •

وعند البحث عن دلائل العمران وخاصة المدن نجد أن ذلك يحوطه صعاب جمة ، وان أمكن تحـديد مواضع الكثير منها اعتمـادا على النصوص ، والأدلة الطبوغرافية على الأقل فى مصر العليا ، على عكس الدلتا ، التى تعرضت بحكم اتساعها وكثرة فروعها النيلية والمؤثرات الخارجية التى وفدت عليهـا الى طمس للمعالم العمرانية مما يعوق المقارنات العمرانية بين الدلتا والوادى[٢] •

وتشير الأدلة الأثرية الى أن وادى النيل لم يكن ذا كثافة سكانية وعمرانية موحدة ، بل تميز الوادى بوجود بعض الفجوات العمرانية على عكس مناطق أخرى مزدحمة وكانت المنطقة الجنوبية متميزة بهذه الكثافة العـالية نظرا لضيق السهل الفيضى وتقطعه وضغط السـكان هناك ، على عكس المنطقة الواقعة الى الشمال من أسـيوط الحالية ، وظلت المناطق العريضة من السهل الفيضى مخلخلة السكان والعمران حتى العهود المسيحية[٣] وكان سبب ترك منـاطق خـاليـة أن معظم المحلات كانت تجنح الى الوقوع على النيل نفسه ، وفى بعض الأحيان ، وفى حالة عرض السهل الفيضى كانت مساحة الظهير المدنى تزيد ، ونتج عن ذلك الوضع أحيانا نشأة محلات عمرانية تابعة Satelite settlements وعلى ذلك كانت الأجـزاء الأضيق من السهل الفيضى تشغل بالسكان أولا ، وكانت قلة الأرض المتساحة والصراع على الأراضى الزراعية ، سببا فى رغبة السكان للتعـاون ، والتكتل فى السكن توفيرا للأرض مما أنتج الشكل النووى للمحلات اذ كانت القرية المصرية — أساسا من المحلات النووية المجمعة •

(١) Baines, J., and Malek, J., Atlas of Ancient Egypt, Oxford, 1978, p. 16.

(٢) O'connor, D., The geography of settlement in Ancient Egypt, in ucko, p.; Tringham, R., & Dimbleby, G. W., op. cit., pp. 683-85.

(٣) Butzer, K., 1976, op. cit., p. 101.

ولم تكن رحلة العمل بين مكان السكن والعمل مشكلة ، اذ فى ظل نظا م الرى الحوضى اقتصر العمل على نصف السنة الشتوى ، أى انه عمل موسمى[١].

وقد أثر حجم أحواض الرى والتحكم فيهـا فى نمط العمران ، وكما يذكر بوتزر أن الأحـواض الفيضية للنيـل والمتميزة بالصغر فى مساحتها كانت سـهلة الاخضاع والادارة حين يكون السهل الفيضى ضـيقا ، ولكن باتسـاعها وزيادة عرضهـا ، تصبح صعبة الحـكم والاخضاع ، وحتى الأحواض الحديثة جرى تقسيمها صناعيا ، وفى بعض جهات غرب النيل نجد أن متوسط حجم الأحواض هو ٤ أمثاله متوسطها فى شرق النيل ، ولذلك كان من السهل أن ينجز الرى الصناعى فى الجنـوب الأقصى من الوادى وفى شرق النيـل لصغر مسـاحة الأحواض ، وحيث الأحواض هناك لا تستدعى سدودا عرضية ، وذلك يوضح الموقع المفضل لعواصم النومات على الضفة الشرقية ، يضاف الى ذلك أن الأحواض الكبرى بطيئة الانحـدار فى الضفة الغربية فى النومات من ٨ — ٢٠ حتى بعد تجزئتها كانت تتطلب مهارات خاصة[٢] ولذلك فان بعض الكتاب قد افترض سيادة حرف الرعى فى المنـاطق المخلخلة السكان ومن هؤلاء O'connor [٣] .

ومن العوامل التى أثرت فى نمو كثافة وتطور العمران ، وخاصة فى المنـاطق المتعلقة بالتطوير والاستصلاح ، أن بعض الفراعنة قد اقطعوا المحاربين القدماء والضباط والجنود الأجانب والمرتزقة أراضى شاسـعة فى مناطق مختارة[٤] مما يشير الى حركة واسـعة للعمران الداخلى زمن الفراعنة فى الدولة الحـديثة ، كما تشـير بعض الأدلة الأخرى عن هجرة ريفية من النومات المزدحمة ، يفترض أنهـا كانت شـائعة فى عهـد الامبراطورية الحـديثة ، ويرى بوتزر O'connor

(١) Farid, E., the population of Egypt. Cairo, 1948.

(٢) Butzer, K., 1976, op. cit., p. 103.

(٣) O'connir, D., op. cit., p. 695.

(٤) Gardiner, A., The Wilbour papyrus. Vol. 2 Oxford, Oxford Univ. Press, 1948, pp. 79 ff.

أن نمو المدن الكبرى فى المناطق الشمالية من الوادى ، ربما كان يعكس فى أوقات الاضطرابات السياسية وعدم وجود السلطة المركزية حالة الاضطرابات التى جعلت السكان يتزاحمون فى المدن الكبرى فى صورة اعادة تجمع كاستجابة للتحلل السياسى والاضطراب[١] .

وتجدر الاشارة هنا ، الى أن نمط العمران المصرى قد اختلف عن غيره من الحضارات القريبة ، ومن ذلك أن معظم المصريين قد استمروا فى العيش ، المعيشة التقليدية ، فى القرى والمراكز الصغرى ، على عكس الحال فى منطقة ميزوبوتاميا (ما بين النهرين) حيث كان تطور الحضارة هناك يجذب العـديد من السكان الريفيين الى مجال نفوذ المدن وذلك ما جعـل النمط المصرى غير قابل للتكرار ، بمعنى أنه نمط عمـرانى فريـد[٢] .

الشبكة العمرانية المصرية القديمة :

تواجه الباحث فى هذا المجال نفس الصعوبات التى تواجهه حين يحلل المورفولوجية الخاصة بالمحلات العمرانية واعادة رسم صورة لهذه الشبكة هو أمر بالغ الصعوبة لا سيما اذا ما أخذنا التراتب العمرانى فى الاعتبـار ، والمشكلة ليست فقط فى أن بقايا المحـلات قد اندثرت وطمرت ، ولكن لأنه بينما وصل الى علمنا بعض الاشارات عن التراتبات الكبرى العمرانية مثل مدن العواصم والمراكز الحضرية الكبرى فان المراتب الدنيا من محلات العمران هى غائبة تقريبا ، ومحاولة معرفتها وتعين مواقعها هو أمر يعتمد أكثر على الافتراض غير المؤكد .

المقاطعات المصرية القديمة :

ومن أقدم الأطر الجغرافية التى احتوت المحلات العمرانية هى المقاطعات التى تبين شواهد كثيرة على أن مصر فى بداية عصر ما قبل

---

(١) Butzer, K., K., 1976, op. cit., pp. 109-112.

التاريخ كانت مقسمة الى عدة أقاليم أو مقاطعات كما سميت بعدها وقد سمى المصرى المقاطعة بلغته « سبات » وهى لفظة تعنى فى الأصل قسما[١].

ومنذ البداية وضح الفرق بين الوادى والدلتا فى التطور العمرانى وبدا ذلك فى عدد المقاطعات وحدودها التى كانت أكثر ثباتا عبر التاريخ فى الوادى عنها فى الدلتا المتغيرة والمتطورة نتيجة تحول المجارى والفروع النيلية واستصلاح الأراضى مما أثر على العمران وعدل من الحدود كثيرا وذلك جعل أنماط توزيع المراكز العمرانية بها مختلفة عن الوادى[٢].

لذلك جاء ترتيب المقاطعات وعددها فى الدلتا مختلفا فى كل القوائم التى وصلت الينا ، خلافا لما عليه الحال فى الوادى ، ويدل ذلك على أن تنظيم الدلتا الادارى والسياسى لم يتم الا ببطء كبير ، وأن عدد مقاطعاتها كان لا يزال ١٦ حتى عهد الدولة الثانية عشرة . وحتى فى الأسرة ١٩ لم تتجاوز هذا العدد حسب ما جاء فى قائمة سيتى الأول[٣] كذلك اختلف تبعية مقاطعة منف فى العهد الفرعونى حيث كانت مع مقاطعات الدلتا وتجدها بعد ذلك حين تبعت مصر العليا فى العهد اليونانى[٤] وأما عن المقاطعة كاطار جغرافى للعمران ، فكانت القوائم تبين أسماءها والترع التى ترويها ، والاقليم الزراعى بها والحقول ، مميزة اذا ما كانت مرتفعة أو منخفضة حسب موقعها من النيل ، وتبين القوائم أيضا أن المناطق من المقاطعة الواقعة عند حافة الصحراء تشتمل على مناطق للرعى وأخرى للصيد ، وكانت السلطة فى يد الاله العاصمة ويدير شئون المقاطعة نيابة عنه حاكم المقاطعة أى انه كان يمثل الاله .

---

(١) سليم حسن : اقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٤٤ ، ص ١٦ .

(٢) O'connor, D. op. cit., p. 685.

(٣) سليم حسن مرجع سبق ذكره — ص ١٨ .

(٤) محمود أمين عبد الله — تطور الوحدات الادارية فى العهد العربى — رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لقسم الجغرافيا بكلية الاداب — جامعة القاهرة — ١٩٦٦ — ص ١٩ .

ومن أوجه الاختلاف الأخرى بين عمران الوادى وعمران الدلتا ، أن مدن الدلتا فى معظمها كانت تعيش فيما بينها على التجارة بالنيل وترعه وكان لهـا شىء من الاستقلال القضائى والمـالى يختلف عن الجهات الزراعية الأخرى .

وكانت النومات أو المقـاطعات تختلف كثيرا فى مساحتها بحسب المنطقة التى تقوم فيها وظروفها الطبيعية وفى المناطق كثيفة السكان فى الجنوب وفى شمال طيبة نجـد أن عواصم النومات أقرب من بعضها البعض وتتباعد بصورة منتظمة عن بعضها فيما عدا موقع قفط Gebtyu التى تحكم مدخل وادى الحمامات مصدر الأحجار واحد الروابط الهامة الرئيسية مع البحر الأحمر ومناجم الذهب[1] فى الأوقات التى يسودها الاستقرار والحكومات المركزية المستقرة مثل بعض الفترات كالدولة الوسطى والحديثة ، فان عواصم النومات كان لهـا السيادة الحضرية على أقاليمها ، أى أن مجال نفوذ المدن وعواصم النومات كان ملحوظا ، تاركة مجالا أصغر لغيرها من المدن وعمـوما كانت المقاطعة وعاصمتها تمثـل الخلية الأولى للتـكوين السـياسى والادارى والروحى لمصر الفرعونية ، متمتعة بنوع من الاستقلال الذاتى المتمركز حول معبد ، وكانت المقاطعة تمثل وحدة ادارية ودينية وزراعية فى وقت واحد[2] . والحقيقة أن الاستقرار السياسى كان ضروريا ومؤثرا فى العمران ، وكما أوضـح O'connor فانه بينما كان عدد المدن الهـامة فى مصر العليا فى النومات من ١ ــ ٦ ثابتا تقريبـا على طول الدولة الحديثة ، كان هناك زيادة ملحوظة فى عددها فى النومات من ٧ ــ ١٥ عند نهاية الأسرة ٢٠ .

وعند تفكك الدولة ، تزداد الأهمية الادارية للمدن ، والاستقلال الادارى عن عواصم النومات ، والعواصم القومية ويبدأ السكان فى التركز فى محلات أكبر لأغراض الدفاع ومثل هذه التغيرات كانت أكثر احتمالا فى الحدوث فى النومات الكثيفة شمال النوم ٦ عنها فى المناطق الأكثر تخلخلا فى السكان ، ويدل على ذلك الوضع من الاحتماء ببعض

(١) O'connor, 1972, op. cit., p. 689.

مدن بعينها ما جاء فى نقش بيانخى Piankhy (٧٥١ — ٧٣٠ ق.م) واصفا غزوه لمصر ، وأجزاء من مصر العليا على الأقل ، فالدلتا كانت مقسمة فى ذلك الوقت بين عدة حكام صغار كل منهم قائم على مدينة محصـــنة[٢] .

التراتب الحضرى فى وادى النيل :

وقد حاول بوتزر رسم صورة عمرانية لوادى النيل اعتمادا على المعلومات المتـــاحة وذلك بالنسبة للنومات فى مصر العليا والتى يبلغ عددها ٢٢ مقاطعة أو نوما[١] .

وقد قسم المحـــلات الى ٤ فئات عمرانية تراتبية اعتمـــادا على الوظائف التى كانت تعكسها كل محلة أو فئة وهذه الفئات هى :

١ — القـــرى الكبرى (وهى التى تحـــرز من ١ — ٣ نقـــاط بحسب وظائفهـــا) .

٢ — المحلات والمراكز الصغرى (وهى التى تحرز من ٤ — ٦ نقاط بحسب وظائفها) .

٣ — المحلات الكبرى (وهى التى تحـــرز من ٧ — ١٠ نقـــاط بحسب وظائفها) .

٤ — المدينـــــة (وهى التى تحـــــرز أكثر من ١٠ نقـــــــاط بحسب وظائفها) .

ويلاحظ ان الوظائف الغالبة كانت دينية واداريـــة واقتصادية ، مع ملاحظـــة ان الحضرية المصرية القديمـــة كانت على عكس الحضرية العراقية فى ميزوبوتاميا[٣]، اذ أن معظم سكان المدينة المصرية كانوا

---

(١) ايتين دريوتون وجاك فانديه ، مصر ، دار النهضـــة المصرية القاهرة ١٩٥٥ — ص ١٦٦ ، ص ٢٠٣ .

(٢) Butzer, K., 1976, op. cit., pp. 57-80.

(٣) Wilson, J. A., in Kraeling, c., & Adams, R., eds, city invincible : An oriental Institute symposium, Chicago University of Chicago Press, pp. 124-ff.

جـدول رقم (١) أنماط العمران فى وادى النيـل فى عهد الأسرات(١)

رقم النوم	عاصمة النوم	المدن الكبرى	المراكز الكبرى	المراكز الصغرى	القرى الكبرى	متوسط عدد السكان	المساحة بالكيلو متر٢	كثافة السكان كم٢	طول الجبهة النيلية	نسبة المساحة الى الجبهة النيلية
١	الفنتين	١	١	٢	٤	٣٩٫٠٠٠	٧٢	٢٤٢	٤٢	١٫٧
٢	ادفـو	١	١	٤	٨	٥٢٫٠٠٠	١٣٧	٣٨٠	٦٧	٢
٣	الكاب	—	٤	٦	١٢	٨٢٫٠٠٠	٢٢٥	٣٦٥	١١٨	١٫٩
٤	الكرنك	٢	١	٦	١٢	٨٧٫٠٠٠	٢٨٤	٣٠٦	٥٠	٥٫٧
٥	قفط	١	١	٢	٦	٣٩٫٠٠٠	٣٣١	١١٨	٤٢	٧٫٩
٦	دندرة	١	—	٢	٤	٢٩٫٠٠٠	٣٠٠	٩٧	٥٥	٥٫٥
٧	هـو	١	١	٢	٤	٣٨٫٠٠٠	٣٠٦	١٢٤	٤٠	٧٫٧
٨	البريا	٢	—	٤	٨	٥٠٫٠٠٠	٦١٣	٨٢	٧٥	٨٫٢
٩	أخميم	١	—	٣	١٣	٥٠٫٠٠٠	٥٧٥	٨٧	٦٢	٩٫٣
١٠	كوم اشقاو	١	—	٣	٧	٣٧٫٠٠٠	٥٣١	٧٠	٤٢	١٢٫٦
١١	شطب	—	١	٢	٤	٢٨٫٠٠٠	١٢٥	٢٢٤	١٥	٨٫٣
١٢	المكاوية	—	١	٢	٤	٢٥٫٠٠٠	٢٠٦	١٢٢	٣٠	٦٫٩

١٣	أسيوط	١	—	٤	٤	٢٦ر٠٠٠	٢٥٠	١٠٤	٣٧	٦ر٨
١٤	القوصية	—	٢	٢	٤	٢٥ر٠٠٠	٢٧٢	٩٢	٢٤	١١ر٢
١٥	الأشمونين	١	٢	٦	١٢	٨٠ر٠٠٠	٦٥٠	١٢٣	٥٢	١٢ر٥
١٦	الكوم الأخضر	١	١	٢	٥	٤١ر٠٠٠	٣٧٧	١٠٩	٤٤	٨ر٦
١٧	الشيخ فضل	—	١	٣	٦	٣٩ر٠٠٠	٥٦٣	٧٠	٤٣	١٣ر١
١٨	الحيبة	١	١	٢	٤	٣٥ر٠٠٠	٤٢٥	٨٣	٦٣	٦ر٨
١٩	البهنسا	—	١	٢	٧	٣٠ر٠٠٠	٤٣٨	٦٩	٣٥	١٢ر٥
٢٠	اهناسيا	١	١	٤	٢٢	٨٠ر٠٠٠	٦٤٣	١٢٥	٥٤	١١ر٩
٢١	الفيوم	١	٢	٦	١٢	٧٧ر٠٠٠	٤٠٠	١٩٣	—	—
٢٢	كفر عمار	—	٢	٢	٤	٣٤ر٠٠٠	١٣٣	٢٥٦	١٩	٧
٢٣	اطفيح	—	١	٢	٤	٢٦ر٠٠٠	٢٠٠	١٣٠	٣٧	٥ر٤
	المجموع الفرعى	١٧	٢٤	٧٠	١٧٠	١ر٠٤٩ر٠٠٠	٨٠٥٦	٨٦٨	—	—
	ممفيس	١	٣	٤	٨	٧٦ر٠٠٠	٢٨١	٢٧١	٤٦	٦ر١
	الجملة	١٨	٢٧	٧٤	١٧٨	١١٢٥ر٠٠٠	٨٣٣٧	—	—	—

المصدر : الجدول عن : BUTZER, K., 1976, op. cit., P. 74-75.

يقومون بأعمـــال زراعيـــة ، ومع ذلك فان فئات التراتب سابقة الذكر كانت تقوم أيضـــا بوظائف خاصـــة بالتوزيـــع والتسويق كمنـــاطق عقدية ، وكمكان للحرفيين والمتخصصين ، وكمراكز لاعادة التوزيع مثل المـــوانى التى كانت واقعـــة على الجهـــة النيلية ، أو كمكان للعبـــادة cult centres ومنـــاطق للتخزين وادارة الأراضى التابعـــة للمعبد وكسكن لكبار الموظفين والمـــلاك ومن العوامل التى تعوق رسم صورة كاملة عمرانيـــة عامل الهدم بواسطة النيـــل الذى غير مواضـــع عديد من المحـــلات .

وقد حاول بوتزر تصوير الشبكة العمرانيـــة فى النومات فى مصر العليـــــا مستفيدا من بعض مضـــمونات نظـــرية المكـــان المركـــزى central place theory رغم المثالب البـــدية والمتمثلة فى غيـــاب التراتبـــات الدنيـــا من المحـــلات تماما ، يضـــاف الى ذلك الشـــكل الخطى المستقيم Linear للوادى والسهل الفيضى والذى لا يناسب كثيرا تطبيق هذه النظرية والشكل السداسى اللصيق بها ، وقد حـــاول رغم ذلك ، معتمدا على ما يسمى بمعدلات التشعيب Bifurcation ratios على مثال ما أجراه Johnson ســـنة ١٩٧٥ فى تحليله الأولى للشبكة العمرانية عند شعب Uruk القديم . ويلخص هذه المحـــاولة الجدول (١) والذى يوضح المراكز العمرانية وتراتباتها كما استخلصها بوتزر من دراسته باستخدام نسبة أو معدل تشعيب ٢ : ١ ، ويبين الجدول تلك النتـــائج بالنسبة لكل نوم فى مصر العليـــا ، وعدد المدن الكبرى ، والمراكز الكبرى والصغرى والقرى الكبيرة ، ومتوسط عدد الســـكان ، والمساحة بالكيلومتر ، والكثافة السكانية وطول الجبهـــة النيلية المعدلة ونسبة المساحة للجبهة النيلية .

ولعله مما يجعل تلك الدراسة صعبة انها خاصـــة بعهد الأسرات كله دون تحـــديد زمنى معين ولكنها تعتبر محـــاولة هامة وجـــادة اذا اعتبرنا ان عدد السكان وعدد المحـــلات العمرانيـــة لم يكن بالضرورة يتزايد بمرور الزمن كمـــا هو عليـــه اليوم ، ولم يكن هناك بد من تلك المحـــاولة الافتراضية لتصوير الشبكة العمرانية فى مصر العليا فقط ، والتى تتوافر بها بعض البيانات أكثر من الدلتا .

ويرى « وهيبة » أن متوسط طول المقاطعة كان ٣٢ كم ، وان كان هناك مقاطعات زادت فى طولها عن ذلك ، وأخرى قلت ، كما تشير الى ذلك الجبهـــة النيلية كما فى الجدول . وهناك ملاحظة هامة على الجدول السابق ، وهى انه فى المقاطعات التى وقعت ضمنها العاصمة القوميـــة أحيـــانا نجد ان عدد المدن الكبرى يزيد كما هو الحـــال فى المقاطعـــة الرابعـــة حيث طيبة العاصمة .

والجدول يعطى فكرة جيدة عن التراتب العمرانى فى وادى النيل فى منطقـــة مصر العليـــا ومقاطعـــة منف أول مقاطعـــات الدلتا ، ومن هـــذا التراتب نستنتج أنه كان هنـــاك ١٧ مدينـــة كبرى و ٢٤ مركزا حضريا و ٢٩ مركزا أصـــغر ، ١٣٨ قرية كبيرة ، يضـــاف الى ذلك ٧٠ مركزا صغيرا جرى التنبؤ بوجودها ، وكذا ١٧٠ قرية كبيرة ، وبلغ حجم السكان فى الوادى ١,٠٤٩,٠٠٠ نسمة على مساحة قدرها ٨٠٥٦ كم^2 ، وبلغ متوسط طول الجبهة النيلية للمقاطعـــة ٤٦ كم ، اما معدل نصيب الكيلومتر من الجبهة النيلية من المساحة نحو ٦,١ كم^2 .

كما اختلفت مســـاحة النومات اذ كان أكبرها النـــوم العشرون ومساحته ٦٤٣ كم^2 يليه النوم الثامن بمســـاحة ٦١٣ كم^2 ، اختلف عدد السكان والكثافة فكان أكبرها سكانا النوم الرابع بمتوسط ٨٧ ألف نسمة ولا عجب فى ذلك فهاهنا كانت العاصمة القومية ويلى ذلك فى عدد السكان سكان النوم الثالث ٨٢,٠٠٠ نسمة فى حين اننـــا نجـــد أن متوسط عدد السكان للنوم عموما كان حوالى ٤٧,٦٨٢ نسمة ومتوسط مساحة النوم كان ٣٦٦ كم^2 وقد قلت ثلاثة عشر نومات عن هذا المتوسط فى المساحة بينما زادت عشرة نومات عنـــه (بما فى ذلك الفيوم) ، كذلك بالنسبة

لمتوسط عدد السكان نجد ان متوسط عدد السكان سابق الذكر قد فاقه عددا ثماني نومات بينما قل عنه خمس عشر نوما (بما فيها الفيوم)[١]
، اما اقليم منف أول نومات مصر السفلى فقد قلت مساحته عن متوسط مساحة نومات مصر العليا ولكن زاد عدد سكانه عن متوسط عدد السكان سابق الذكر ، لوجود مدينة منف وأهميتها السياسية والدينية ، ولذلك يعتبر اقليم منف من المناطق مرتفعة الكثافة حيث تبلغ الكثافة به (٢٧١ نسمة / كم٢) ويلاحظ ان المصريين القدماء قد إستخدموا مساحة تسمى « الأتور » Atour ، فتدل بعض النقوش التي ترجع الى عهد سيزوستريس الثالث ان المساحات في كل نوم كانت تقدر بهذه الوحدة « الأتور » وكل أتور واحد مساو لحوالي ١١٠ كم٢[٢] .

وكما سبق الذكر ، فان توزيع العمران وتوزيع كثافة السكان كانت مرتبطة بكل من النمو في استصلاح الأراضي من ناحية وابتداع أدوات زراعية متقدمة وبدأ ذلك جليا في أواسط العهد الفرعوني في الدولة الوسطى ، وأيضا في نهايته في عهد البطالمة حين نجح هؤلاء في خفض منسوب البحيرة في الفيوم وتجفيف مساحة حوالي ١٢٠٠كم٢ مما زاد من عدد المحلات العمرانية وبالتالي السكان بدرجة واضحة[٣] .

---

(١) جميع المتوسطات والحسابات من عمل الباحث .

(٢) Montet, P., Eternal Egypt, translated by Weightman, D., Readers union, London, 1965, p. 78.

(٣) Ball, J., Contributions to the geography of Egypt, Survey of Egypt, Cairo, 1952, p. 215.

الفصل الثالث

العمران المصرى القديم
وعلاقتـــه بالسكان واستخدام الأرض

العمران المصرى القديم وعلاقته بالسكان واستخدام الأرض :

تدل اشارات عديدة على أن حجم العمران وعدد الســكان كانا يتزايدان بوضوح أبان فترات الاستقرار والرخاء ، على عكس الفترات التى تسودها الاضطرابات ، أو يتخللها نقص منسوب النيــل وما يلحق بالبــلاد من جراء ذلك من مجاعات وأمراض .

وهنــاك العديد من الاشــارات أيضــا ، على أن مصر عرفت عد السكان أبان التاريخ الفرعونى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. بينما عرفته بابل قبل ٣٨٠٠ ق.م. والصين حوالى ٣٠٠٠ ق.م. أى قبــل معرفة المصريين له[١] .

ولم تكن الفترة بين كل تعداد وآخر ثابتة ، كمــا لم يكن غرض التعداد واحدا . ففى زمن أمنحتب الأول كان رب الأسرة يبلغ عن اعداد أفراد أسرته بمــا فيــه ذلك العبيد التــابعين له . وفى زمن امنحتب الثالث (١٤١١ ق.م. — ١٣٧٥ ق.م.) فى عهد الأسرة ١٨ تم عد الجنود والضباط والصــالحين للخــدمة العســكرية وغيرهم ، كما تم تبويبهم حسب الاعمــار ، وقدرت الضرائب على المســاكن ، وعدد ســكانها ، وقدر عدد أسرى الحرب ، كذلك كان من المتبع زمن البطالمة ابلاغ أرباب الأسر للمسئولين بعدد أفراد الأسرة بين الحين والآخر[٢] .

ولا يمكننا فهم تطور اعداد السكان زيادة ونقصانا ، الا بربط ذلك بأحــوال البــلاد الداخليــة والخارجيــة ، وتطور استخدام الأرض

---

(1) Spiegelman, M., Introduction to Demography, New York, 6th, ed., 1980, p. 1.

(٢) عبد المجيد فراج — الأسس الاحصائية للدراسات السكانية — القاهرة — ١٩٧٥ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

والعمـران . كذلك تعطى بعض تقـاليد وعـادات المصريين القـدماء استنتجات مفيدة عن جغرافية السـكان آنذاك . ومن ذلك ما عرف عن المصريين القدماء من شدة الحرص على الانجـاب ، وتمنى الكثرة منهم ولو على رقة الحـال ، وبدافع الرغبة العـامة فى النسل كان الزواج المبكر ، وتكوين الأسرة من أهم ما ينصـح به الناشىء . وربما كانت الرغبة فى كثرة الابنـاء راجعة ــ كما هو الحـال فى مصر الحديثة ــ الى نشأة المجتمع المصرى زراعيـا فى جوهره ، وتأثره بوفرة الأيدى العـاملة الزراعيـة ، وفى ذلك يختلف المجتمع المصرى القـديم الى حد ما عما كان عليه الحـال فى المجتمعات الزعوية القديمة مثل المجتمع الاغريقى ، أو المجتمع البدوى[1] .

وتجدر الاشارة الى أنه رغم نقص الاشارات عن السكان فى مصر عموما ، الا أن تقديرات السكان فى الوادى حظيت ببعض الاهتمامات الأكبر ، بينما كانت تلك الخاصة بالدلتا أقل .

وقد درس بوتزر سـكان وادى النيـل والفيوم اعتمـادا على تركز المحلات العمرانية فى المنطقة وحدد عدد ١ر١ مليونا فى الوادى والفيوم ، ما بين ٢,٤ ــ ٣,٦ مليون نسمة لكل مصر ، فى عهد الرعامسة .

كذلك درس Bear سنة ١٩٦٢ كثافة السكان الريفيين على أساس خصوبة التربة ، وانتـاج المحاصيل ، والسعرات الحرارية الناتجـة والضرورية لكل فرد ، وامكن قياسا على ذلك ، وعلى أساس مسـاحة الوادى ٨٣٣٧ كم^2 القول ان سكان الوادى والفيوم كانوا ١,٥ مليونا من الانفس فى عهد الأسرات ، علمـا بأن ذلك الرقم كان يزيد أوقات التوسـع الامبراطورى ، وتزايد الانتاجيـة الزراعيـة ، ونمو المدن المدعم بنمو الواردات من الخـارج[2] .

وتعطى الاختـلافات فى نوعيـة استخـدام الأرض Landuse أيضاحات مفيدة عن السكان فى الوادى والدلتا .

---

(١) عبد العزيز صالح ــ التربية والتعليم فى مصر القديمة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١١ ــ ١٣ .

(٢) Butzer, K., 1976, op. cit., pp. 76-77.

فمن ذلك ان أول محـــاولة جـادة لاستغلال الفيـــوم فى الدولة الوسطى (٢١٦٠ — ١٧٨٥ ق٠م٠) فى الأسرة ١٢ بالتحديد حيث شيد المناحتته سدا ببوابات عند اللاهون ، وربما آخـــر عند الهوارة للتحكم فى دخول المـــاء وخروجه فكانت تفتح البوابات اثناء الفيضـــان فترفع الميـــاه الداخلة مستوى البحيرة الى المنسوب المطلوب ، وكان فائض ميـــاه بحر يوسف يحول الى ترعة فرعية تجرى من اللاهون الى أسفل وادى النيـــل ٠ وهكذا تحولت البحيرة الى خزان ومـــع تكوين بحيرة موريس بـــدأ استصلاح المنطقـــة التى كان يغرقها الفيضـــان سنويا بلا ضـــابط ووصـــلت المســـاحة التى تم استصلاحها حوالى ٢٧ ألف فدان ، كذلك تعرضت المنطقـــة لعملية استصلاح ضخمة أخرى تحت حكم البطالمة ، حيث تقدم التعمير وجاء المصريون جنبا الى جنب مـــع المقدونيين والأغريق تطوعا ومجندين من مختلف قرى الصعيد والدلتا ونقلوا معهم نفس اسماء قراهم القديمة الى قرى المهجر الجديد ، وفى احـــدى البرديات أن هـــذه القرى بلغت ١١٤ قرية ومدينـــة أيـــام البطالمة[1] ٠ ولا شك ان مثل هـــذه التحولات فى استخدام الأرض قد زادت من اعداد السكان بزيادة الرقعـــة المزروعة ، كما أنها لابد انها قد اعادت توزيع الاثقال السكانية ، وعدلت من الكثافة بين مكان وآخر ٠ وجدير بالذكر ، ان محـــاولة تقدير حجم الســـكان والعمران فى مصر القديمـــة يقف حـــائلا أمامها أيضـــا ان حدود مصر لم تكن ثابتـــة بين الفترات التاريخية ، كما أنه فى كثير من الحـــالات كان فى مصر الآلاف من غير المصريين مما يجعـــل من كل المحاولات فى عداد التقديرات التى تحتمل الصحة والخطـــأ ٠

وقد تأثر توزيع الســـكان وكثافتهم بشدة بين الوادى والدلتـــا بأختلاف مورفولوجية كل منهما ، اذ كان ضيق الوادى وقلة اتســـاعه فى الجنوب لزيادة الكثافة كثيرا بالرغم من قلة العدد الاجمالى للسكان نسبيا ، بينما كان الاتساع البادى للدلتا ، وامكان استصلاح مساحات

(١) جمال حمدان — شخصية مصر — الجزء الثانى — عالم الكتب — القاهرة ١٩٨١ ص ١١١ ، ١١٢ ٠

شاسعة منها متاحة عامــلا من عوامل قلة الكثافة نسبيا على الرغم من كثرة السكان قياسا بسكان المناطق الضيقة فى جنوب الوادى ٠

ويمكن القول ان مســاحة الأرض المزروعة فى الوادى فى عهــد ما قبل الأسرات حتى عهد الدولة الوسطى كان فى حدود ٨٠٠٠ كم٢ ، وكان ظهور الشادوف خلال الأسرة ١٨ عاملا فى تسهيل رفع الماء وزيادة مساحة المحاصيل الصيفية فى الأراضى المرتفعة عن مستوى المــاء بنسبة بين ١٠ ــ ١٥٪ ٠ خــلال عهد الرعامسة وزيادة أخرى مشابهة خــلال البطالمة نتيجة للاعمــال التى تقــدم ذكرها وأيضــا بسبب ادخــال الساقيــة مؤخرا ٠

ويقــدر « بوتزر » كثافة الســكان فى عهد حضــارة البدارى ٤٠٠٠ ق٠م٠ بثلاثين شخصا لكل كيلو مترا مربعــا باعتبار أن ٧٥٪ من السهل الفيضى فى الوادى كان مستغلا ، وان مجموع السكان آنذاك هو ٠,٢٥ مليون نسمة (٢٥٠,٠٠٠ نسمة) ٠

وبعدها ، نتيجة التطورات التى تقــدم ذكرها زادت الكثافة الى ٩٠ نسمة / كم٢ والسكان الى ١,١ مليون نسمة فى العهود المزدهرة زمن الدولتين القديمة والوسطى ، بينما اعترى هــذه القيم الديموجرافية بعض النقص ابان فترات التدهور اذ يقدر الهبوط بحوالى الثلث على الاقــل فى الفترة الانتقاليــة الأولى حوالى ٢١٠٠ ق٠م٠ ، وكذا زمن الهكسوس حوالى ١٦٠٠ ق٠م٠[١] ٠

ويجب ان نذكر ان الكوارث الطبيعية وانخفاض منسوب النيــل على وجه الخصوص كان له أثره السلبى على حجم السكان ولعل ابلغ ما يصور ذلك ما ورد لدى المقريزى على الرغم مما قد يبدو أحيــانا من بعض المبالغات مثل قوله[٢] « ٠٠٠ ثم وقع الغــلاء فى زمن أتريب ابن مصريم ثالث عشر ملوك مصر بعــد الطوفان : وكان سببه أن مــاء

---

(١) Butzer, op. cit., pp. 82-84.

(٢) تقى الدين احمــد بن على المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) ــ اغاثة الأمة بكشف الغمة ، أو تاريخ المجاعات فى مصر ــ تقــديم وتعليق بدر الدين السباعى ــ دار ابن الوليد ــ حلب ، ١٩٥٦ ــ ص ٧ ــ ١١ ٠

النيــل توقف جريه مدة مائة وأربعين سنة !! فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها ، وصار الملك اثريب ماشيا ، ثم اضعفه الجوع حتى لم يبق به حركة سوى أن يبسط كفيه ويقبضهما من الجوع ... الخ » . ولعل في هذا الوصف ما يوضح ان مثل هذه العوامل الطبيعية كان لها أثرها في خفض حجم السكان بشدة . ولا شك ان كثافة السكان كانت نتاجا طبيعيا لضغط السكان على الأرض الزراعية . أو المنتجة المتــاحة ، ويبــدو ان نمط الاستغلال قبــل الأسرات كان واســعا وانتشــاريا Extensive وكان الاعتمــاد أساسا على الأرض مــع بعض الرعى والجمع والالتقاط والصيد السهل والحياة البرية والتدبيات الضخمة[٣] .

ويؤكد بوتزر ان المعــاش والحيــاة الغذائية في عهــد ما قبــل الأسرات كانت متنوعة وغنيــة بالأنواع البيئية ولعبت الزراعة المروية اثناء ذلك دورا ثانويا ، ويعقد مقارنة بين ما كان سائدا آنذاك في البيئة وبين ما كان ســائدا في ســهول السنغال والنيجر الفيضية في أوائــل القرن ١٩ . وقد حدث تقلص تدريجي في الغطــاء النباتي الطبيعي ، وقلت بالتــالي حيوانات الرعى والصيد التي تعيش عليــه مع تزايد الاهتمام بالرى الصناعي تدريجيا . وتشير المصادر والأحداث في الدولة القديمة وما بعدها الى اقتصاد مختلف عنــه في فترة ما قبل الأسرات يقوم على تنوع لاستخدام الأرض ، وجهود ضخمة تدل على رســوخ الاقتصاد ، من ذلك بنــاء ثكنات ضخمة لايواء ٤٠٠٠ عامــل في وقت واحد قرب هرم خوفو حيث كان يجرى العمل ، وبلغ مجموع العمــال الموسميين ١٠٠٠٠٠ مما يدل على قاعدة سكانية عريضة[١] .

وعلى ذلك كانت هناك علامات واضحة في استخدام الأرض منها التحول من الرى الصيفى الى الرى الصناعى (جزئيا) في نهاية ما قبل

---

(١) Butzer, K., Environment and Human Ecology in Egypt during predynastic and Early dynastic times, Bull. Soc. Geograph. Egypte 33, 1959, pp. 78 f.

(٢) Edwards, I., The pyramids of Egypt, New York, The viking Press Inc., 1971, pp. 216 ff.

الأسرات ، والتحول للرى بالرفع lift irrigation وخاصة من الآبار فى الأسرة ١٨ والتى تدعمت زمن الرعامسة ، كذلك عرفت عملية اضافة المخصبات فيما بعد ، وعرفت عملية أراحة الأرض Fallow — تركها بدون زراعة — لاستعادة خصوبتها على نطاق ضيق ، اذ لم تكن ضرورية فى ظل نظام الرى السائد ، وعرفت على نطاق ضيق فى مناطق الرى بالرفع ، كذلك كان ادخال الساقية زمن البطالمة عاملا من عوامل زيادة الأرض المزروعة وتنوع استخدامها ، وبالتالى زيادة السكان •

ويرى بوتزر Butzer ، ان قمة السكان وتزايد اعدادهم لم تكن تتفق مع فترات الرخاء الأقصى ، ولكن مع فترات التعمير والتوسع الأنسب والاستغلال • وهو يرفض تقدير السكان بواسطة Josephus بحوالى ٧,٥ مليون نسمة اذ انه أكثر مما سجله تعداد ١٨٨٢م • ويرى ان تقدير Russel وهو ٤,٥ مليون أكثر قبولا تأسيسا على تسجيلات معبد ادفو بوجود ٩ مليون أرورا Aroura أراضى مزروعة (٢٤,٦٠٠ كم٢) مقارنة بحوالى ٢٧,١٥٩ كم٢ سنة ١٨٨٢م •

ويرى بوتزر ان السكان تدهوروا عددا مرة أخرى فى آواخر عهد الرومان والبيزنطيين[١] وقد نمت وزادت مساحة الأرض المزروعة فى الفيوم من حوالى ١٠٠ كم٢ فى بداية الأسرات • ومع الأسرة الثانية عشر زادت المساحة والكثافة فوصلت المساحة المزروعة الى ٤٥٠ كم٢ فى عهد الدولة الجديدة ، مع ارتفاع كثافة السكان بالقطع عنها فى وادى النيل ، وفى القرن ٣ ق•م• زاد البطالمة المساحة المزروعة الى ١٣٠٠ كم٢ جاعلين من المنخفض منطقة كثيفة الاستغلال الزراعى ونمطا فريدا فى استخدام الأرض • وقد قدر السكان فى اوقات الرخاء القصوى

---

(١) Butzer, K., 1976, op. cit., pp. 90-92.

بحـوالى ٣٠٠,٠٠٠ نسـمة كانوا يقطنـون ١٩٨ محـلة عمرانيـة على الاقل[١] .

وكما سبق القول كانت الدلتا أكثر تشتتا فى عمرانها وكثافتها أى أقل كثافة من الوادى وأيضـا عن اقليم الفيوم ، واستمر التعمير بها على مدى فترة اطول كثيرا من الوادى ومن أوجه اختـلاف استخدام الأرض بين الوادى والدلتا ، والذى كان له انعكاسات على عدد السكان وكثافتهم ، ان الرعى ظل نمطا هاما بالدلتا على عكس الوادى ، لفترة طويلة حيث الأراضى الرطبة ، وتؤكد ذلك عـديد من الشواهد الأثرية مثل عبـادة الحيوانات ، وأسر رمسيس الثالث لخمسة قطعان كبيرة من الماشية احضرها الليبيون الى الدلتـا . كذلك من أوجه الاختـلاف فى استخدام الأرض ان فى الدلتا كان عـديد من النومات يتميز بزراعات الحدائق والبستنة ، مما يدل على ان اشكال الزراعة كانت أكثر تطورا عنها فى وادى النيـل ، وهذا يدحض آراء بعض من يقول بان الدلتا كانت لفترة طويلة منـاطق مستنقعات[٢] .

كذلك كانت الدلتا متميزة بنمط لاستخدام الأرض الزراعى أقرب للزراعة المختلطة بوجود مجموعة مكونة من الزراعة التقليدية والرعى ، والمزارع التجـارية[٣] .

ومن الاحداث التى زادت من سـكان شرق الدلتـا وعدلت من كثافتهم واثقالهم ، ان الحكام بعـد غزو الهكسوس ، عملوا على نمو مراكز العمران فى شرق الدلتا والاهتمام بالمنطقة كمدخل شرقى لمصر ، وكثرت مراكز العبـادة الدينية فى حواف الدلتا ، وصـاحب ذلك تطور اقتصـادى فى شرق الدلتا ، وبالتالى تزايد سكانى ، يدل عليه انشاء ١١ مدينة ظهرت لأول مرة زمن الرعامسة ، وعلى ذلك فسكان الدلتـا

---

(١) Butzer, K., 1976, op. cit., p. 92.

(٢) Breasted, J. H., Ancient records of Egypt : IV, Chicago : University of Chicago, press, 1906, pp. 119 ff.

(٣) Butzer, K. 1976, op. cit., p. 95.

لابد وأن يكونوا قد تضاعفوا خـلال فترة الدولة القديمة ، ومرة أخرى خـلالى فترة الرعامسة ، ويرى Bernard ان حوالى ٣٥ مدينة جديدة انشئت فى الفترة بين ٩٥٠ — ٦٠٠ ق٠م٠ حينما جرى الاستقرار لأول مرة فى المناقع الشمالية للدلتا بعد استصلاح بعضها وكذلك بعد أن جرى الاستقرار فى مريوط(٤) ٠

ويرى البعض ان الأسـاس الزراعى للاقتصـاد المصرى القديم لم يسمح بظهور مدن كبيرة الحجم السكانى ، ويرى Jones أن تقدير حجم المدن المصرية سكانيا من الصعوبة بمكان ، ورغم ذلك فانه يفترض انها كانت تشابه لفئات الحجم للمدن السومرية ، والمدن فى وادى السند والتى تراوحت كلها بين ٧٠٠٠ — ٢٠٠٠٠ نسمة(١) ٠

ويرى بترى ان السكان وصلوا الى أقصى عدد لهم فى عصر الدولة القديمة ، وقدر عددهم فى زمن الرعامسة بحوالى ١٠ — ١٢ مليونا على أساس ان البـلاد امـدت الجيش بحوالى ٦٥٠ ألف جنـدى ، وبعد اضمحلال نفوذ البطالمة تراوح العدد بين ٧ — ٧ ١/٢ مليون ويرى أيضا ان نسبة المواليد فى مصر القديمة كانت حوالى ٦٠ فى الألف(٢) ، وان ربع هذا العدد من المواليد يموت قبل ان يبلغ سن الالتحاق بالمدارس ، وهذا التقدير خاص للأسرة ١٩ (القرن ١٤ ، ١٣ ق٠م٠) ويرى أنه من تقدير عدد التلاميذ ونسب المواليد والوفيات يتحتم ان يكون مجموع عدد السكان هو ١٤ مليونا من الأنفس(٣) ٠

---

(١) Bernard, André, Le Delta Egyptien d'après les textes grecs : I. les confins Libyques. Mem. Inst. Fr. Archéol. Orientale, 41, 1971. pp. 103 f.

(٢) Jones, Towns and cities, Oxford University Press, 1976, p. 19.

(٣) فلندرز بترى — الحيـاة الاجتماعية فى مصر القديمة — ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٥ — ص ٧٧ — ٧٩ ٠

(٤) المرجع اعلاه ، ص ٢٣٢ ٠

ولا شك ان اعداد السكان — كما سبق ذكره — كانت عرضة للزيادة والنقصان الشديد كما ان بعض ما وصلنا من بيانات بها كثير من الشطط فى التقدير ، ويذكر هيردوت ان مصر فى الوقت الذى حكم فيه « امازيس » ، كان بها الكثير من المدن نتيجة ما جاد به لنيل على البلاد من خير ، فكان بها ١٠٠٠ مدينة آهلة بالسكان ، وان كان ديودور الصقلى قدر جملة البلاد بما فيها المدن فى نفس الوقت بـ ١٨٠٠٠ ، وارتفع الرقم زمن البطالمة الى ٣٠٠٠٠ ، وعلى ذلك قدر عدد السكان بنحو ٧ ملايين نسمة[١] .

ويرى « وهيبة » ان شعب مصر قديم ، تمتد أصوله السلالية الى العصر الحجرى الحديث فى استمرارية فريدة ، رغم الموجات الجنسية الوافدة فى عصر ما قبل الأسرات ، لكنها لم تغير من دماء المصريين وصفاتهم العامة ، وكانت العناصر الشائعة فى مصر هى الحامى والبحر سطى الشرقى والأرمنى ، كذلك يعارض الشطط الذى صاحب تقدير السكان الزائد (٤٠ مليونا) كذلك التقدير المتسم بالتفريط (٣ ملايين فى القرن ٦ ق.م.) ويرى ان أقصى عدد سكانى محتمل فى مصر القديمة اعتمادا على طاقة الزراعة الحوضية القصوى ، فى استيعاب السكان ، وعلى مساحة مصر الزراعية فى العصور القديمة ، وهى ٣٠,٠٠٠ كم^2 هو $\frac{1}{2}$١٠ مليون نسمة ، يضاف اليهم مليونا من الأنفس هم سكان المدن فيكون اجمالى العدد بين ١١ — ١٢ مليونا من الأنفس[٢] ، وعلى ذلك واعتمادا على « وهيبة » و « يوتزر » فاننا يمكننا القول أنه فى ازهى عصور الأزدهار والرخاء المصاحب للنمو السكانى كانت درجة الحضرية فى مصر القديمة بين ٨ — ١٢٪ علما بان المدينة بمقاييسها الشائعة اليوم لم تكن موجودة بالطبع ، فان

---

(١) هيرودوت — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٩ .

(٢) عبد الفتاح وهيبه — مصر والعالم القديم — منشأة المعارف — الاسكندرية — ١٩٧٥ — ص ٣٥ — ٤٠ .

العـديد من المصـادر يؤكد ان كثيرا من سـكان المدن كانوا يعملون بالزراعة ، وان المدن كانت تحوى نطاقا زراعيا داخلا فى حدودها .

وعلى ذلك فان محاولة تقسيم السكان الى سـكان ريف وحضر تبعا لمـا هو سائد اليوم يقابله صعاب جسيمة ، ففى مقابل ما سبق ذكره عن آلاف المدن فى مصر كمـا ذكر هردوت ، نجد كاتبين آخرين يقرران ان المـدن كانت فى مصر قليلة ، وكانت أساسـا مدن وظـائف ادارية ، ولم تتمثل فيها تنوع الوظائف الذى ساد مدن ما بين النهرين ، مما يوحى بقلة السكان بها(٢) .

تقديرات السـكان :

كما سبقت الاشارة ، فان هذه التقديرات كما رأينـا تتسم بعدم الدقة والجنوح أما الى الأفراط الزائد أو الى التفريط الشديد ، كما ان حجم السكان فى فترة تالية يصيبه التدهور دون سبب ظـاهر فى أغلب الحـالات بالقيـاس بفترة سابقة .

وقد أورد « فراج » التقديرات التالية لاعداد السـكان فى مصر القديمة فى فترات مختلفة اعتمـادا على ما ذكره الباحثون والمؤرخون للفترات المصرية القديمـة المختلفة ، ويوضـح ذلك الجدول التـالى ــ جدول (رقم ٢)(١) .

---

(1) Broek, J., and Webb, J. W., A geography of Mankind, Mc Graw Hill, New York, 1973, p. 391.

(٢) الجدول عن عبد المجيد فراج ــ الأسس الاحصائية للدراسات السكانية ــ القاهرة ١٩٧٥ ص ٤٧ .

جـــدول رقم (٢)

تقدير أعداد للسكان فى مصر القديمة فى الفترات المختلفة

الفـــترة	عدد السكان بالمليون نسمة	المصـــــــدر
١٥٠٠ ق٠م٠	٣	
١٤٠٠ ق٠م٠	٢٧	حسب تقدير العالم الفرنسى كونييه Cognet وهو مخالف لتقدير عالم فرنسى آخر قدر سكان الدلتـــا بحوالى ٤٠ مليون نسمة فى نفس الفترة ٠
١٢٢٥ـــــ١٢٩٢	٧	حسب تقدير ديدور الصقلى ٠
١٠٠٠ ـــق٠م٠	١٨	حسب تقـــدير مصطفى عامر ســـنة ١٩٢٨ وتوصل اليه باعتبار أن تقدير هيردوت لمدن مصر المسكونة فى القرن ٦ ق٠م٠ بلغ حوالى ٢٠ ألف مدينة وباعتبـــار أن متوسط حجم المحلة كان ١٢٠٠ نسمة فيمكن اعتبار أن عدد سكان مصر آنذاك ٢٤ مليونا أنقصه بمقدار الربع من قبيل الاحتياط ٠
١٠٠ ق٠م٠	٣	
٣٠ ق٠م٠	٧	على نحو ما ورد فى كتاب برستد Breseted عن تاريخ مصر ٠

ويتضح من الجدول الوضع المحير لكل من يتصـــدى لدراسة موضوع السكان فى مصر القديمة ٠

---

(١) الجدول من عبد المجيد فراج ـــ الأسس الاحصائية للدراسات السكانية ـــ القاهرة ـــ ١٩٧٥ ـــ ص ٤٧ ٠

ومن أحدث الدراسات التى توفرت على دراسة تطور سكان مصر القـديمة ، هى الدراسة التى أوردها بوتزر Butzer بعد أن درس الظروف البيئية المحيطة ، والأحداث والاشارات التاريخية التى أمكن له الحصول عليها من بين ثنايا الكتابات التاريخية والجغرافية .

وقد استنتج أن سكان مصر تضاعفوا أربعة مرات خلال ١٥٠٠ سنة حتى قمة الدولة القديمة ، باعتبار أن نسبة النمو التى توصل اليها هى ٠٫٨ فى الألف سنويا والجدول التالى يوضح التطور الافتراضى للسكان فى مصر القديمة كما تصوره كارل بوتزر (جدول ٣) .

ومن الجدول يتبين التذبذب الذى كان يعترى التوزيع الاقليمى للسكان بين الوادى والدلتا واقليم الفيوم وسكان الصحراء من البدو ، ويمكن أن نلحظ دور استصلاح الأراضى فى الفيوم والدلتا بوجه خاص فى زيادة السكان بهما ، والذى طفر بالسكان فى الفيوم بوجه خاص فى نهاية الفترة التى يوضحها الجـدول الى حوالى ثلث مليون نسمة ، مما يشير الى تضاعف السكان نتيجة استصلاح الأراضى بخاصة زمن الدولة الوسطى ، وزمن البطالمة ، كما سـبق توضيحه ، ووصل ذلك التضاعف السكانى الى أكثر من ١٠٠ مرة بين ٤٠٠٠ — ١٥٠٠ ق.م. ، وكان نمو وتوسع المحلات العمرانية مواكبا لنمو السكان فيشير نصحى الى أنه أسس بالفيوم زمن البطالمة ١١٤ بلدة وقرية نتيجة استصلاح أراضى المنطقة مما زاد من سكانها(١) .

وفى نهاية موضوع سكان مصر القديمة ، تجـدر الاشارة الى دراسة حديثة أخرى قام بها فكرى حسن ، وأوردها بوتزر فى دراسته الأخيرة (١٩٧٦) .

وفى هذه الدراسة حدد « حسن » نسبة ١٦ ٪ من جملة الأراضى المزروعة للمبانى والمناطق المزروعة بالخضروات والبساتين والكتان .

---

(١) ابراهيم نصحى — تاريخ مصر فى مصر البطالمة — الجزء الثالث الطبعـة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة ، ١٩٦٦ ، صفحات متعـددة .

جـدول (٣)

المتطور الافتراضى للسكان فى مصر القديمة ومساحة الأرض المزروعة وكثافة السكان[1]

الاقلـيم	٤٠٠٠ ق.م.			٣٠٠٠ ق.م			٢٥٠٠ ق.م.		
	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
وادى النيل	٨٠٠٠	٣٠	٢٤٠	٨٠٠٠	٧٥	٦٠٠	٨٠٠٠	١٣٠٠	١٠٤٠
الفيـــوم	١٠٠	٣٠	٣	١٠٠	٦٠	٦	١٠٠	٩٠	٩
الدلتـــا	٨٠٠٠	١٠	٨٠	٧٠٠٠	٣٠	٢١٠	٩٠٠٠	٦٠	٥٤٠
الصحـــراء			٢٥			٥٠			٢٥
مجموع السكان بالمليـون			و٣٥			و٨٧			١و٥

الاقلـيم	١٨٠٠ ق.م.			١٢٥٠ ق.م.			١٥٠٠ ق.م.		
	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
وادى النيل	٨٠٠٠	١٤٠	١١٢٠	٩٠٠٠	١٨٠	١٦٢٠	١٠٠٠	٢٤٠	٢٤٠٠
الفيـــوم	٤٥٠	١٣٥	٦١	٤٠٠	١٨٠	٧٢	١٣٠٠	٢٤٠	٣١٢
الدلتـــا	١٠٠٠٠	٧٥	٧٥٠	١٣٠٠	٩٠	١١٧٠	١٦٠٠٠	١٣٥	٢١٦٠
الصحـــرءا			٢٥			٢٥			٥٠
مجموع السكان بالمليـون			٢			٢و٩			٤و٩

ملحـوظة :

١ — مساحة الأرض المزروعة بالكيلو متر المربع .
٢ — كثافة السكان فى الكيلو متر المربع .
٣ — عدد السكان الافتراضى بالألف .

---

(١) الجدول عن بوتزر Butzer, K., 1976, Op. cit., p. 83.

وحدد انتاج محصول القمح على أساس ١٦٥٠ رطلا لكل فدان ، ١٥٦٠ رطلا لكل فدان من الشعير ، وذلك اعتمادا على بردية ويلبور والدراسات الحديثة • وحدد مجموع انتاج الحبوب بحوالى ٢٫٧ مليون رطلا تنتج سنويا على مساحة ٨٠٠٠ كم٢ فى وادى النيل والفيوم ، ويستنزل من هذه الكمية ٤٥ ٪ كم٢ فى وادى النيل والفيوم ، ويستنزل من هـذه الكمية ٤٥ ٪ منهـا للضرائب والتجارة ، وعلى ذلك فان حوالى ١٫٥ مليون رطلا تكون تحت طلب الاستهلاك السكانى وحسابا على استهلاك الفرد وهو ١٫٠٦ — ١٫٢٣ رطلا للفرد يوميا (وهو مشابهه للاستهلاك فى أمريكا اللاتينية اليوم) ، فان الحجم الأقصى للسكان الذى يمكن لهذا الانتاج أن يمده هو ٣٫٥ مليون نسمة ، ومع ذلك ، فاذا أخـذنا فى الاعتبـار تذبذب الفيضان ، والأوبئة ، وما الى ذلك ، فان حجم السكان هو ٦٠ ٪ من هذا الرقم ، أو ما يقرب من ٢ مليون نسمة فى وادى النيـل والفيوم ، والرقم قريب الشـبه به فى تعـداد سـنة ١٨٨٢ م[1] •

وهناك بعض الاشارات يمكن منها تقدير اعداد السكان فى مصر بصورة تقريبية ، فقد ورد فيما يختص بنفوذ الكهنة ، وتضخم طبقة رجال الدين وممتلكات المعابد أن تلك الممتلكات وصلت فى زمن رمسيس الثالث فى القرن ١٢ ق٠م٠ ١٫٧٤٤٫٠١٨ فدانا ، ١٦٩ بلدة ، ١٠٣١٧٥ خادما ، فى بعض التقديرات ، وذكر برستيد عن بردية هاريس أن هذه الأرقام بلغت ١٠٧٠٠٠ عبدا بنسبة ٢ ٪ من سكان مصر[2] ، ومعنى ذلك أن سكان مصر آنذاك بلغوا حوالى خمسة ملايين ونصف نسمة •

وعن الحجم السكانى المقارن فى مصر بغيرها مع بقية العالم يذكر « حمـدان » أن البعض يقدرون سكان العـالم زمن الامبراطورية الرومانية بنحو ٢٠٠ مليون نسمة ، وأن طاقة التشبع السكانى فى مصر لم تكن تقل عن ١٢ مليونا وأن مصر البطلمية الرومانية بالفعل حوالى

---

(١) Butzer, K., 1976, op. cit., pp. 77-80.

(٢) جمال حمدان — مرجع سابق ذكره — ص ٥٥٨ .

١٠ مليون أى أن مصر كانت تمثل ١ : ٢٠ من وزن سكان العالم ، بينما هى اليوم ١ : ١٠٠ بالكاد[١] .

وان كان هناك تقدير آخر ، ويذكر « ماك افدى » أن سكان مصر فى القرن ٤ ق•م• كانوا حوالى ٤ ملايين نسمة بينما سكان العالم ١٠٠ مليون ، وافريقية ١٦ مليون ومعنى ذلك أن سكان مصر كانوا ١ : ٢٥ من سكان العالم بينما كانوا ربع سكان قارة افريقيا[٢] .

---

(١) جمال حمدان — المرجع السابق .

(٢) Mc Evedy, C., and sarah, The Atlas of the world History from the beginning to Alexander the great, London, 1970, pp. 60-61.

الفصل الرابع

موضع وموقع محلات العمران المصرى القديم

الموضع والموقع :

اذا جاز لنـــا أن نستعير من مكونات جغرافية المدن الحديثة ، محاولين تطبيقها على المحلات المصرية القديمة ، فاننا نجـــد أن أبرز خصائص الموضع للمحلات الريفية أنها مواضع تلالية ، تحسبا لأخطار الفيضان ، سواء أكان ذلك بالقرب من النهر والمجارى المـــائية أم بعيدا عنهما ، وقد تمثل ذلك فى « الأرضين » أى الوادى والدلتا وهو الاسم الذى أطلقه المصريون على بلادهم • والملاحظة الهـــامة فى مواضـــع المحلات ، أنه بينما احتلت مواضع محلات الأحياء ، الأرض السوداء فى الوادى والدلتا ، احتلت مواضع محلات الدفن المناطق الهامشية عند حافة الوادى قرب الصحراء ، ولذا فليس من المستغـــرب أن معظم ما خلفته مصر القديمة خرج من هذه المواضع[1] •

كذلك كانت المواضع الريفية للمحلات تختار بحيث يسهل التعاون فى الدفاع عنها وحمايتها من المعتدين عليها ، أو من خطر الفيضان ، وحيث يقل النطـــاق الزراعى حولها فانها ـــ كما هو الحال فى مصر الحديثة ـــ تختار المواضع المجدبة والجبلية والبور لاقامة المحلة عليها ضنا بالأرض الزراعية أن تستخدم استخداما غير منتج • وقد وصف « هيرودت » مواضع المحلات المصرية وصفا معبرا اذ قال : انها تظهر وقت الفيضان فوق المـــاء وتكاد تشبه الجزائر الموجودة فى بحر ايجه

---

(١) جون ولسون ـــ الحضارة المصرية ـــ ترجمة احمـــد فخرى ـــ مجموعة الالف كتـــاب ـــ مكتبـــة النهضة المصرية ـــ القـــاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٦ ٤٧ •

ولذا ينتقل المصريون بمراكبهم ليس فقط فى مجرى النهر ولكن أيضا فى وسط السهل[١].

وفى كثير من الأحيان فان اسم المحلة العمرانية يشير الى خصائص الموضع ، ومن ذلك مدينة الفيوم (شدت بالمصرية القديمة) اذ أن معناه « المسترده » أى أن موضع المدينة مسترد من منطقة كان يغمرها الفيضان ، وبعد بناء أمنمحات الثالث سدين أحدهما عند اللاهون والآخر عند باهو ، أقيمت الفيوم على الجزء المسترد الذى كان مغمورا من قبل[٢].

كذلك تتمثل أهمية الموضع والموقع معا فى حالة مدينة « منف » اذ بالاضافة الى خصائص الموضع الطبيعية لمنف قرب قمة الدلتا ، فان الملك مينا أضاف للموضع جسرا لحماية المدينة من الغرق ، بانشائه ثنية جنوب « ممفيس » بواسطة بعض السدود ، وجفف المجرى القديم واستمر من بعده فى تدعيم الثنية لكى ينساب النهر فى مجرى محدود لأنه اذ اجتاح النهر الجسر هدد ممفيس بالغرق ، وأكثر من ذلك فان الملك ، بعد انشائه المدينة على الجزء المجفف ، أحاطها بلسان مائى يحدها شمالا وغربا ويستمد مياهه من النيل ، وكان النيل يحدها شرقا وذلك امعانا فى حماية المدينة لا سيما من خطر الليبيين فى الغرب[٣].

ويتضح تفاعل الموضع مع الموقع فى أن موضع منف هو أنسب المواضع توسطا للتحكم فى شمال وجنوب البلاد وسهولة الحركة والوصول سواء الى الدلتا ، أم الى الوادى وهو تفاعل لا تزال عاصمة مصر الحالية تبرزه وتؤكده ، كما أبرزته قبلها أسلافها الثلاثة .

---

(١) هيرودوت — هيرودوت — ترجمة محمد صقر خفاجة — دار القلم — القاهرة ١٩٦٦ صفحات متعددة .

(٢) فلندرز بترى — الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة — مرجع سابق ، ص ٣٠٤ .

(٣) هيرودوت — مرجع سبق ذكره — ص ١٠ — ١٢ .

على أية حال ، فان الموضع لم يكن يختار دائما اعتمـــادا على عوامل جغرافية ،بل ان التاريخ المصرى يبرز لنا ـــ خاصة فى مواضع المدن ـــ أن بعضها كان مواضع غريبة وشاذة • وعلى سبيل المثال ، فاختيار اخناتون لموضع « آخت آتون » كان المعيـــار لاختيار الموضع انهـــا كما عبر اخناتون : « أرض لم تمس من قبل » أى أن موضعها بكر ، ورغم ذلك لم يخل موضعها من السمات الجغرافية ، فقد أراد اخناتون لها الحماية الطبيعية وليس بناء أسوار تتنافى مع ما يعتقـــد فيه بالنسبة للاله الجديد ، لذا أرادها محمية طبيعيا ، أى كما عبر ، تغلقها الجبال ، وتقوم هى فى مكان سهلى يهبه الى الاله آتون[1] •

ومن أبرز الخصائص التى كان يبرزها الموضع هو الحمـــاية ، وقـــد تجلى ذلك خاصة فى مواضع المدن المحصنة لا ســـيما فى النوبة اذ أختيرت لها مواضع جبلية وعرة تسهل التحكم فى النهر والمنطقة التى حوله والتى تسلكها الجماعات بين مصر والنوبة ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن المدن المحصنة فى النوبة •

وكانت مواضع المدن الاقليمية وعواصم النومات تختار بحيث يسهل اتصالها باقليمها وعادة ذات مواضع تعد نيلية مباشرة •

وفى الحالات التى كانت تتباعد فيها المحلات بانتظام على مسافات متقاربة ، نجد أن الموضع الذى يشذ عن القاعدة ، كان يعكس بوضوح خصائصه الفريدة • من ذلك أن المنطقة كثيفة السكان الى الشمال من طيبة ، كانت عواصم النومات والمدن تتباعد بها بصورة منتظمة ، وشذ عن ذلك موضع فقط Gebtyu لأن الموضع يتحـــكم فى مدخل وادى الحمامات مصدر الأحجار ، وأحد الروابط الرئيسية مع البحر الأحمر ومناجم الذهب[2] •

---

(١) Johnson, p., cit., pp. 84-85.

(٢) O'Connor, D., op. cit., p. 689.

وعلى طول التــاريخ المصرى ، كان التفــاعل باديا بين الموضع والموقع ، لذلك ليس غريبا أن أول العواصم المصرية فى بواكير تاريخها وقت الانقسام الى مملكتين كانتا متباعدتين تماما احداهما « بوتو » فى أقصى الشـــمال ، والأخرى المـــدينة التوأم نخب ونخن فى أقصى الجنوب ، وربما كان ذلك التباعد مقصورا فى اطار تفاعل الموضع مع الموقع ، اذ رؤى أن تكونا بعيدتين نسبيا عن الحدود بين اطار كل من المملكتين ، تلك الحدود التى كانت قريبة من موقع منف فى عصر ما قبل الأسرات ، وكان بها كثير من الاشتباكات والغارات والتهديدات[1] .

---

(١) مصطفى عامر — مرجع سبق ذكره ص ٥٩ — ٧٤ .

الفصل الخامس

التخطيط العمرانى وأبعاده فى مصر القديمة

التخطيط العمرانى فى مصر القديمة :

لا شك أن الحديث عن التخطيط العمرانى فى مصر القديمة بمفهومه الحديث فيه كثير من المبالغة العلمية ، لذلك يجب أن ننظر الى ذلك التخطيط الموغل فى القدم ، فى ظل معطيات البيئة الطبيعية فى ذلك الوقت من ناحية ، والامكانات البشرية الفنية المتاحة للمصريين آنذاك من ناحية أخرى •

واذا ما أخذنا ذلك فى الاعتبار ، فلا شك أن أول أنواع التخطيط العمرانى قد تمثل فى استجابة المصرى القديم لطابع بيئته الطبيعية ومحاولته انشاء أنماط عمرانية تتناسب تلك البيئة سواء فى مواضع المحلات أو استخدام الأرض عموما •

واذا ما حاولنا تلمس البدايات التخطيطية المصرية القديمة لوجدنا أن بقايا مرمده بنى سلامة ، تعد بتخطيطها الأولى المتمثل فى أكواخها الموضوعة على طول صفين على جانبى قناة ، وشارع ضيق جدا يتجه من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى بعرض خمسة أمتار وطول حوالى ٨٠ مترا ، تعد أول محاولة تخطيطية فى التاريخ المصرى القديم[1] كذلك تمطى مساحة هذه المحلة التى كانت حوالى ٤٠٠ × ٦٠٠ ياردة فكرة تخطيطية أولية ، وقد عثر من عصر ما قبل الأسرات أيضا على آثار مدينة هيراكونبوليس وكانت أبعادها ثلاثة أرباع فى ربع ميل

---

(١) محمد حماد — تخطيط المدن وتاريخه — الطبعة الاولى — القاهرة — ١٩٦٥ ، ص ٥٧ .

وقد أحيطت بسور من اللبن[١] ومن المحاولات التخطيطية الباكرة فى مصر احاطة معظم المحلات بسياج ، ثم أصبحت تحاط بسور من اللبن — وذلك قبل أن تتحرر منه فيما بعد .

أما التخطيط العمرانى بمعناه الأكثر نضجا ، فربمـا يتمثل الى حد ما فى آثار الدولة القديمة على قلة آثار المدن بوجه خاص . ويرى « عصفور » أن المدن فى مصر القديمة كانت تتخذ شكلا عاما ، ولكن دوام التطــور داخل الاطار العــام للمدينة لم يخضع لرقابة دقيقة بل كثيرا ما كان يتم كيفما اتفق مما يجعل المدينة بالتدريج ، تتخلى عن تخطيطها الأول . ولم يشــذ عن ذلك سوى المدن المنشــأة بواسطة الحكومة مثل قرى العمال ، والقلاع والعواصم الجديدة مثل عاصمة اخناتون ، كذلك يلاحظ أن منازل الدولة القديمة عموما كان يتحكم فى تخطيطها واختلافها فى عدد الحجرات والحجم مكانة أصحابها .

ويشـــير Gallion ، Eisner الى أن مدن مصر القــديمة التى شيدت فى الألف الثالثة ق.م. كانت تشــيد بأمر فرعون ، وروعى فى تخطيطها اســكان الحرفيين والصــناع والبنائيين والعبيد فى محلات مجاورة لمناطق البناء وخاصة عند بناء المقابر الملكية ، أما عن تخطيط المبانى ، فقد كانت المساكن طبقا لرأيهما أيضــا ، تبنى باحكام حول أفنية داخلية ، وكانت ارتفاعات المبانى متناسبة مع عرض الشوارع . وكان أغلب المساكن من طابق أو طابقين . وكان يعنى بالنواحى الصحية للغاية ، كما كان هناك نظام للصرف الصحى التحتى يمتد حول المدينة ، كما أن هنـــاك بعض الدلائل على ربط بعض المساكن بخطوط ومجارى الصرف[٢] .

---

(١) محمــد أبو المحــاسن عصفور — التخطيط العمرانى فى مصر القديمة — مجلة كلية الاداب — جامعة الاسكندرية — المجلد السابع عشر سنة ١٩٦٣ — مطبعة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤ ، ص ٨٩ — ٩٠ .

(٢) Gallion, A., & Eisner, S., The urban pattern, New Delhi, 1969, pp. 6-7.

ولكن تخطيط مناطق المعابد بالمدن كان يفوق بكثير تخطيط منازل ومدن الأحياء ، وعلى سبيل المثال نجد ذلك فى معابد طيبة وآثارها ، وخاصة فى الطريق الاسطورى لتماثيل أبى الهول فى طيبة وسياج المعبد الواسع الذى يزيد عرضه على ثلث ميل وطوله عن نصف ميل .

كذلك مما يدل على انحراف تخطيط المدينة عن الخطة الأصلية ، أنه قد تمثل فى تل العمارنة بعض الدلائل على وجود منطقة متدهورة Slum area رغم قصر عمر المدينة أساسا[1] .

ونلاحظ أنه مما كان يدعو الى التخطيط العمرانى وتخطيط المدن خاصة ، أن كثيرا من المدن كان يرتبط بالنواحى الجنائزية كما نعلم . وكانت المدن توقف أحيانا على بعض المعابد وتقوم على خدمتها ، ومن ذلك أن أحد أبناء الملك خع اف — رع (خفرع) بانى الهرم الثانى من الأسرة الرابعة ، أوصى باثنتى عشر مدينة على الأقل لتكون وقفا جنائزيا لهذا الغرض . وتصبح هذه المدن والأراضى ملكا للكهنة وخلفهم من بعدهم[2] ، والتى كانت تخطط بالطبع طبقا للغرض الذى وقفت من أجله وتجلت الاستخدامات التى تخدم الأغراض الدينية فى استخدام الأرض بها .

وقد سبق ذكر ان بعض الكتاب مثل « ولسون » يشككون فى وجود مدن فى مصر ذات حجم معتبر ، وكبير بالمفهوم الحالى للمدينة ، وربما كان مرجع ذلك لسيادة العمران الريفى فى جزء كبير من منطقة الشرق الأوسط والأدنى القديم ، حين كانت القرية هى اوسع انماط العمران انتشارا بعد سيادة الزراعة ، ولذا كانت بدايات التخطيط العمرانى الأولى المتمثلة فى القرى الأولى بادية فى مصر والشرق الأوسط وذلك حوالى ٧٥٠٠ ق.م واستخدم فى بنائها الطين والنباتات ثم اللبن[3] .

---

(١) Ibid., p. 6.

(٢) محمد حماد — مرجع سبق ذكره — ص ٦٩ .

(٣) Flannery, K. V., The origins of village settlement type in Meso-America and the Near East in ucko, p.; Tringham, R., and Dimbleby, G., op. cit., p. 23.

وعلى ذلك لم يكن التخطيط العمرانى مهتما بالمدن الا بعد توحيد مصر وقيـــام حكومة مركزية قوية تقوم فى عاصمة كبرى تمثل أكبر محلاتها ، كما رأينـــا فى طيبة فيما بعد والتى زاد سكانها عن ربع مليون نسمة فى القرن ١٤ ق٠ م٠[١]٠

ويمكننا أن نتبين من شرح وتحليل مكونات مورفولوجية المدينة ، فى عواصم مصر الكبرى الكثير من أوجه التخطيط الحضرى ٠

أما عن تخطيط العمران بمعناه الواســـع من تنظيـــم للأراضى واستخدام الأرض فـــلا شك أن تنظيم شـــئون الزراعة وحفر الترع والقنوات واقامة جسور الأحواض وتنظيم الرى الحوضى تعد كلهـــا مشـاهد على براعة المصريين فى ذلك المجـــال ، ومن أمثلة وجود دلائل التخطيط العمرانى للمحلات والأساس الاقتصـــادى القائم عليه ذلك العمران ، ان المحـــلات العمرانية فى الدلتا كانت أكثر تشتتا منها فى مصر العليـــا كاستجابة لطبيعة الايكيومين فى كل من القسمين وضيقة فى القسم الأخير ٠ كذلك كانت حركـــة العمران والتخطيط العمرانى الشامل كانت تختلف باختلاف الظروف الطبيعية بين الدلتا والصعيد[٢]٠

ولعل من أكبر مشروعات التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، تلك التى قام بها سنوسرت الثانى فى أمـــور الرى والزراعة بالفيوم وتشهد قرية العمـــال هناك على أبعـــاد تخطيطية واضحة ، وكانت للعمـــال الذين بنوا هـــرم ذلك الملك هناك ٠ وكانت جهود أمنمحات الثالث مكملة لأعمال سلفة التخطيطية فى مجال استصلاح الأراضى ، وبناء الجسور لتحديد البحيرة الطبيعية التى بالفيوم وشيد القناطر عند هواره ، وشيد الترع وبنى الكثير من المعـــابد مثل معبد مدينة شدت (الفيوم الحـــالية) ٠ وكان النشـاط الاقتصادى هناك دافعا للتخطيط العمرانى وانشاء المبـــانى والمعـــابد ولا سيما « اللابرنت » الذى أسهب اليونانيون فى وصفه ٠

---

(١) Everson, J. A. & Fitzgerald, B. P. op. cit., p. 12.

(٢) Butzer, op. cit., 94.

وكان لهذه المشروعات آثارها الديموجرافية فزاد السكان ، لأنه نتيجة مشروعات التخطيط العمراني والزراعي زادت المساحة المستصلحة آنذاك في عهد الدولة الوسطى بحوالى ٢٧٫٠٠٠ فدان مما دفع لتخطيط مدن جديدة علاوة على ما كان قائما من قبل .

كذلك يجب أن نلاحظ أن تخطيط العمران بعامة وتخطيط المدن بخاصة كان في كثير من الأحيان استجابة لاغراض متنوعة ، ومن ذلك ان تخطيط بعض مناطق ومدن شرق الدلتا كان استجابة لغزو الهكسوس ، بل ان نمو العمران في شرق الدلتا نما نموا كبيرا وكما يذكر Butzer كان دافعا لانشاء النوم (١٧) في الأسرة (١٨) والنومات من (١٨ — ٢٠) خلال الأسرة (٢٢) وصاحب ذلك النمو والتخطيط العمراني تخطيط ١١ مدينة جديدة ظهرت لأول مرة في زمن الرعامسة ، مما يدعو الى افتراض تضاعف سكان الدلتا مرة خلال فترة الدولة القديمة وأخرى خلال فترة الرعامسة . ومما يدل على اختلاف الظروف ، انه بينما شهدنا تطورا وتخطيطا عمرانيا في منطقة الفيوم ابان الدولة الوسطى ، وتطور عمرانها في شرق الدلتا ابان الدولة الحديثة ، نجد أن التخطيط العمراني عاد مرة أخرى الى مصر السفلى والفيوم وأيضا الى شمال الدلتا زمن البطالمة ، وقد أقيمت حوالى ٣٥ مدينة — جديدة في الفترة بين (٩٥٠ — ٦٠٠ ق.م.) حينما جرى الاستقرار لأول مرة في المناقع الشمالية في منطقة مريوط وبعض الاجزاء الشمالية[١] .

وفي نهاية موضوع التخطيط العمراني يجب أن نشير الى نمط آخر من التخطيط الحضري والعمراني هو ما تبين عنه مواضع محلات الحماية والحصون في ارجاء مصر وهي التي توضح الاستجارة التامة لابعاد البيئة الضيقة وخاصة في النوبة في تخطيط تلك المحلات .

---

(١) Butzer, op. cit., 95.

وتبقى حقيقة متفردة ، وهى أنه على عكس الكثير من الحضارات القديمة ، فانه لم يبق ما يدل على أبعـــاد التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، والغريب أننا نستقى كل ما يخص محلات الاحياء ونشاطاتهم من محـــلات الموتى ومقابرهم وهو أمر فريد يزيد الموضوع صعوبة •

ومع ذلك ، ورغم غيـــاب العديد من الشواهد المـــادية الحية ، فلا شك ان المحـــلات العمرانية التى أنشـــأها المصريون كانت موائمة للبيئة التى عاشوا فيها وتعكس فى نفس الوقت مقدرة فنيـــة عاليـــة قادرة ، وهى التى استطاعت ان تقيم الشواهد الحضارية الباقية التى لاتزال حيـــة حتى اليوم •

الباب الثانى

شخصية المدينة المصرية القديمة

الفصل السادس : المدينة المصرية القديمة وتميزها عن مدن الحضارات الأخرى .

الفصل السابع : مورفولوجية المدينة المصرية القديمة .

الفصل الثامن : تركيب المنزل المصرى القديم وتخطيطه .

الفصل العاشر : مجتمع المدينة المصرية القديمة .

الفصل الحادى عشر : التركيب العرقى فى المدينة المصرية القديمة .

الفصل الثانى عشر : تباعد المدن فى مصر القديمة .

الفصل الثالث عشر : اقليم المدينة المصرية القديمة .

الفصل السادس

المدينة المصرية القديمة وتميزها عن مدن الحضارات الأخرى

المدينة المصرية القديمة وأوجه الاختلاف عن مدن الحضارات المجاورة :

يثور جــدل كبير بين العلمــاء فيمــا يختص ببذور الحضرية ، ودرجتها ، وعلاقاتها فى منطقة الشرق الأدنى القديمة ، بل أن البعض مثل « ولسون » Wilson يشكك تماما فى وجود مدن فى مصر بالمفهوم الحديث ، وذلك بمستوى وحجم السكان الذى نعرفه فى المدينة الحديثة •

غير ان الثابت ان المدينة المصرية ، من حيث خطتها ومورفولوجيتها كانت تختلف تماما عن غيرها من المدن القديمة •

فعلى سبيل المثال ، نجد أن المدينة فى بلاد ما بين النهرين ، كانت عالما قائما بذاته ، ومنفصلة عما حولها • أما فى مصر الفرعونية ، فانها لم تكن كذلك ، ولذا لم تكن المدينــة المصرية القديمة كبيرة الســكان كالمدينة المراقية القديمة ، لان الأخيرة كانت شبه دولة City State كذلك كانت المدينة المصرية تقوم بوظيفة السكن ، والاجتماع والاختلاط والوظائف المتنوعة للخدمات ، أما وظيفــة الحماية ، التى كانت أظهر الوظائف فى المدينة العراقية القديمة ، فان البيئة الطبيعيــة المصرية تكفلت بها من صحراء وتلال ، والتى مثلت السور الحقيقى حول مصر كلها وعلى ذلك فلم تكن المدينة المصرية بحاجــة الى السور الذى مثل مظهرا مورفولوجيا أساسيا فى خطة المدينة العراقية •

ومن الجدير بالذكر ، ان العقيدة المصرية والاعتقاد فى الملك ــ الاله ــ ، كان لها دورها الطاغى على خطــة المدينة ومورفولوجيتها ، فالمعبد دائما يتوسطها ، أما السور فلا أهمية له ، اذ أن اعتقاد المصرى

فى الملك الاله بصورة مطلقة ، وانه هو حاميه ومنقذه ، جعل مسألة قيام السور ليست واردة ، وأكمل هذه الصورة العزلة النسبية التى ميزت المعمور المصرى فترة من الزمن وحماية ذلك المعمور فى معظم الجهات بالصحراء . ولذلك نجد أن فرعون — وليس اله المدينة — هو الذى كان المجتمع يتجسد فى شخصه ويقوم بحماية المدينة وغيرها من المدن[١] .

وعلى ذلك ، فتميزت المدينة المصرية عموما بمظهرين يختلفان عنها فى مدن آسيا القريبة ، أولها غياب السور عموما ، والثانى ، أنها لم تكن تبنى حول قلاع وحصون ، كما كان الحال فى المدن الآسيوية ، وكانت المدن المصرية عموما غير محصنة ، وفى حالة المدن المصرية ذات الأبواب ، فان هذه الأبواب لم تكن تغلق فى الليل ، كما أن مساكن المدينة المصرية متناثرة ، ولا تتجمع ذلك التجمع والتعنقد الذى تفرضه وظائف الحماية بصرامة فى المدن الأخرى الأجنبية ، ولذلك وجدت للمدن المصرية عدة ضواحى suburbs مثلما كان عليه الحال فى العمارنة ، وهذا أيضا غير مشابه لما كان عليه الحال فى مدن آسيا القريبة[٢] .

ومن استعراض عديد من الدراسات الأثرية ، نجد أن أكثر الاثريين ، يجعل قيام المدينة وتطورها فى سومر سابقا لها فى مصر بعدة مئات من السنين[٣] . ولكن وجه الاختلاف كما سبق بين المدينة المصرية الأجنبية ان الأولى كانت ذات ارتباط متعدد بالمناطق الريفية التى حولها لأسباب دينية فى المقام الأول واقتصادية وهو ما لم يوجد فى حالة المدن الدول فى المناطق القريبة من مصر والتى كانت معاصرة لهـا .

ورغم أهمية الدين فى قيام المدن المصرية وأهميتها ، فقد كانت التجارة حتى فى حالة المدينة النيوليثية الأولى التى انتقلت من دور

---

(١) لويس ممفورد — مرجع سبق ذكره — ص ١٤٦ .

(٢) Jonson, P., The civilization of Ancient Egypt, London, 1979, p. 98.

(٣) Ibid, p. 232.

القرية الى دور المدينة ، كانت بحكم موقعها مراكز تجـــارية ، أى أن التجـــارة هى التى حولت بعض القـــرى الى مدن ، ومن أمثلة هذه المدن قفط (ثا — بونت — نثرت) التى قامت لاستقبال تجارة البحر الأحمر عن طريق وادى الحمامات ، وأبيدوس (تا — ور) أو العرابة المدفونة الحاليـــة ، التى قامت لاستقبال التجـــارة الليبية وتجـــارة الواحـــات[1] .

(١) محمد السيد غـــلاب — البيئة والمجتمع — الاسكندرية ، سنة ١٩٥٥ ص ٣٣٣ — ٣٤ .

الفصل السابع

..مورفولوجية المدينة المصرية القديمة

على الرغم من ان استعادة احدى مكونات ــ جغرافية المدن الحديثة لتطبيقه على المدينة المصرية القديمة بعد اجراء جزافيا arbitrary الى حد ما ، ولكن لا شك ان المدينة المصرية القديمة ــ رغم عدم اكتمال الصورة المورفولوجية عنها ــ تبين عن كثير من المظاهر التى تعالجها مورفولوجية المدينة الحديثة . ويختلف الباحثون فى جغرافية المدن فى معالجتهم للمورفولوجية الحضرية فمنهم من يهتم بالمدينة من زاويتين ، الأولى علاقتها بغيرها فى نطاق ما ، والثانية دراستها هى ذاتها فى منطقتها دراسة تفصيلية عادة ما تعنى المورفولوجية[1] .

ويحدد دافيز Davies نموذجا ثلاثيا للمورفولوجية يتضح فى البيئة ممثلة فى الموضع والموقع ثم أنشطة الخدمات بالمدينة ، ثم المورفولوجية ممثلة فى المبانى ومادة البناء أساسا[2] .

بينما يدرس « وهيبة » المورفولوجية من خلال الخطة ، وأشكال النمو ، والتركيب الداخلى ، والتجمع المدنى[3] .

ولما كانت التعريفات السابقة خاصة بالمدينة بمفهومها الحديث ، فاننا سوف نتبع فى دراسة مورفولوجية المدينة المصرية القديمة أسلوبا وسطا بين هذه المناهج ، وذلك فى ضوء المادة المتاحة هنا .

فاذا ما حاولنا استقراء الوضع فى اقدم المدن المصرية ونعنى بها

---

(1) Carter, H., The study of urban geography, Arnold, Bristol, 1974, p. 8.

(2) Davies, W., Approaches to urban geography: An overvie£, in Carter, H., & Davies, W., eds. urban essays, London, 1970, several pages.

(3) عبد الفتاح وهيبه ــ فى جغرافية العمران ــ بيروت ــ ١٩٧٣ ، ص ٢٣٩ .

عواصم مملكتى ما قبـل التاريخ نجد أن كل مملكة كان لها عاصمتان واحدة منهما تمثل المركز السياسى ، والأخرى الدينى فى المملكة • وكانت مبـانى كل واحدة تعكس تلك الوظيفة بلا شك • وكانت هذه العواصم هى « نخب » ، نخن « لمملكـة الجنـوب » ، « دب » ، « بى » لمملكة الشمال • وفى هـذا الوقت البـاكر ، فان الحـديث عن التركيب الداخلى يعتوره العديد من الصعاب يكمن جلها فى ان « البقايا » الدالة زالت من الوجود بحكم المـادة الرخوة التى كانت تبنى منهـا مبـانى المدن • ولكن بعد ذلك ، نجد أن العواصم المصرية الاحدث تميزت بمبان معينة ، تمثل ادارات الحكومة وكان احدها للوزير الذى يباشر مهامه من العـاصمة ، ومن أهم هذه المبـانى الادارية ، التى كانت أكبر من فروعها فى البلاد ، مبان معينة مثل بيت المـال وهو بمثابة وزارة الماليـة اليوم •

كذلك كان من المبانى الهامة « المخازن المركزية » وهذه كان لها أهميتها فى خزن الفائض الذى كان سبب حيـاة المدن ، وكان هناك مخـازن تميز التركيب الداخلى للمـدن الأصـغر • ومن الادارات الحكومية أيضـا ادارة تعداد الاملاك ، للأموال والمواشى ، وكان ذلك التعداد يجرى كـل عامين ، ثم أصبح يجرى كل سـنة • وادارات الهيئات الملكية التى تشرف على الأراضى والهبات التى تمنح لمن يقدم خدمات خاصـة للملك • وادارات الأشغال التى كانت تقيم المعـابد والاهرامات والأعمال العـامة كالسدود والترع والقـلاع ومبـانى الحكومة (ويمكن أن نشبهها اليـوم بوزارة الأشغال أو الاسـكان أو التعمير) •

كذلك كان هناك ادارات للبعثات الخارجيـة ، وللتعدين ، وكان هناك ادارة للتسجيل والتوثيق ، وادارة خاصة للوثائق الملكية[1] •

---

(١) عبد المنعم أبو بكر — النظم الاجتماعية فى مصر القديمة — فى تاريخ الحضارة المصرية — وزارة الثقافة — مرجع سبق ذكره — المجلد الاول — العدد الثانى — ص ١١٠ — ١٦ •

هذا عن المبانى العامة ، وكانت تتوسط المدينة وتحيط بالقصر الملكى لتسهيل الأمور ، وكان لابد من مبان تكميلية تتمثل فى المبانى التى تساعد على تسيير الحياة اليومية للناس ، ممثلة فى محلات الجزار ، والمخبز ، ومبانى التحنيط (والتى كانت فى أطراف المدن وأحيانا كثيرة كانت مبان مؤقتة) .

وفى قليل من الحالات سورت المدينة ، ولكنها كانت عموما غير مسورة بعد أن أثرت عقيدة المصرى القديم بالنسبة للملك الاله والذى يحميه من كل الاعداء ولم يعد هناك ما يخيف ساكن المدينة وهو يستظل بحماية الاله ، فاختفى السور وهو أحد المظاهر المورفولوجية الاختلافية مع المدن فى المناطق الأخرى كالعراق مثلا[1] .

والأسوار فى المدن المصرية كمظهر مورفولوجى عرفت فى فترة ما قبل التاريخ حيث كانت من الطوب وتشير الدلائل الى ان المدن وقتها كانت مستديرة أو بيضاوية ، ومحاطة بأسوار ومزودة بدعائم . ويرى « ممفورد » ان مدينة « الكاب » كان يحوطها سور مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ١٦٠٠ قدما ، وكان يتقاطع مع سور مدينة أخرى أكثر بدائية ويحيطها أيضا سور .

وطبقا لآراء « ممفورد » فان نجاح الحكم فى بداية الأسرات على أساس الاعتقاد الدينى والدنيوى فى الملك الاله كان له أثره فى تغيير مورفولوجية المدينة ، التى فقدت أحد مظاهرها فيما بعد ونعنى به السور ، كذلك كان لهذا الاعتقاد الدينى أثر آخر ، تمثل فى وجود مدينة أخرى ملحقة بالمدينة الأصلية ونعنى بها مدينة الموتى Necropolis ، وهو مظهر مورفولوجى لم يتطور بهذا الشكل سوى فى مصر القديمة[2] .

وقد تحكم المناخ وعنصر الجفاف فى مصر فى عمارة المدن ومورفولوجيتها ، فنجد أن الأفنية كانت دائما عنصرا فى العمارة

---

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٤ .
(٢) لويس ممفورد : المرجع اعلاه ، ص ١٤٧ .

المصرية . ولهذا السبب ظهرت أسطح المبانى مستوية طوال العصر الفرعونى ، وكان الطراز المعمارى المختار ايضا عاكسا للمناخ وخصائصه ، فأدخل « الصفات » فى واجهات المبانى ، أو حول الأفنية الداخلية ، وكان ذلك عنصرا لتوفير الظل . كما ان النوافذ الضيقة كانت من صفات المبانى لذات السبب ، وصممت المبانى بحيث تستقبل الرياح الشمالية ، كما زودت المنازل بفتحات علوية فى الأسقف وهى « الملاقف » التى تستقبل هواء الشمال المنعش .

وهكذا كان التصميم المعمارى ، كعنصر من عناصر المورفولوجية بالمدينة عاكسا لظروف طبيعية لصيقة بمصر ومناخها الجاف .

واذا ما أنتقلنا الى تحليل عنصر آخر من عناصر مورفولوجية المدينة المصرية القديمة وهو مادة البناء المستخدمة ، نجد أن المصرى القديم قد حرص على وجود اتساق بين مادة البناء والأشكال المعمارية التى يشيدها ، وذلك منذ بداية استقراره ، ففى البداية كانت المواد بسيطة ، تناسب مساحة المبانى الضئيلة بالضرورة ، والتى تتمشى عموما مع ضآلة المحلة العمرانية ، وكان الطمى المادة المتاحة من النيل فى كثير مما شادوه ومنه صنعوا اللبن منذ فترة ما قبل الأسرات وخلطوه بالرمل والتبن ليقوى تماسكه ، وحتى لا يتقلص ويتشقق فيتغير شكله حين يجف[1] ، وقد ساعد اللبن فى اتساع رقعة العمران ، واعطاء مظهر افضل للمبنى ، وقد تحسن صنعه وشكله فى الدولة الوسطى ، ومنه صنعت عمارة المبانى والمعابد فى البداية على السواء ، ولم يكن قاصرا على طبقة بعينها فى المدينة ، وظل سائدا فى عمارة المدن ، ولم يستخدم محروقا الا فى عهود متأخرة . واستخدم الطين كملاط مع اللبن كما هو الحال اليوم فى الريف ، وعرف المصريون نوعين من الملاط ، كما أن الجدران كانت تطلى اما بالطين ، واما بخليط من الطمى والحجر الجيرى[2] ، وكان استخدام الخشب قاصرا على

---

(١) Lucas, Ancient Egyptian materials and Industries, Arnold London, 1948, pp. 62-64.

(٢) محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٧ — ٤٣ .

بعض أجزاء المبنى ، ووائمت عمارة المنازل بين نقص الخشب[١] ، والتصميم المعمارى ، فظهرت أقبية من اللبن فى شكل أنصاف دوائر ، ومع توافر الخشب المستورد ساعد على استقامة السطوح .

اما أنواع مواد البناء الأخرى ، فكان من الطبيعى ان تستخدم الأنواع النادرة والقوية منها فى عمارة المدن ، والمعابد بخاصة ، ودور الحكومة الهامة .

وفى الدولة القديمة كان الحجر الجيرى هو حجر البناء الرئيسى ، وان اختص به أكثر المعابد والمنشآت الدينية والمقابر ، واستخدموا معه فى منشآت المدينة الجبس كملاط وذلك رغم توافر الحجر الجيرى فى مصر ، وذلك لقلة الوقود اللازم لحرق الجير فى مصر ، بينما يحتاج حرق الجبس لدرجة حرارة اقل .

أما الجرانيت فاستخدم للتكسية ، والأعمدة ، والعتبات ، والأطر وكان مصدره منطقة أسوان وخاصة جزيرة الفنتين[٢] .

أما الحجر الرملى فاستخدم بعد ذلك فى عهد الدولة الحديثة ، الذى اتاح تسقيف مساحات كبيرة بعكس الحجر الجيرى ، ووضح ذلك فى ضخامة المنشآت الدينية ومعبد الكرنك شاهد على ذلك .

أما الأحجار الأندر ، مثل الكوارتزيت ، والمرمر المصرى (الكلسيت) والبازلت فكانت أقل استعمالا ، واستخدم الأول فى العتبات وغرف الدفن ، والثانى فى النواحى الجمالية للمبنى ، والثالث فى رصف طرق المعابد (لأن معظم شوارع المدن كانت غير معبدة)[٣] .

والملاحظ ، أن مبانى مدن الموتى ، حظيت مع المعابد ، بتنوع فى مواد البناء لم تنله مبانى الاحياء ، مثال ذلك هرم خوفو من الحجر الجيرى ، ومعبده الجنائزى ، الكبير فى شرقية كانت أرضيته

---

(١) جون ولسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩٠ .
(٢) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ — ٥٥ .
(٣) المرجع اعلاه ، ص ٥٥ .

من الدولوريت الأسود ، المقطوعة احجساره من محاجر شمال بحيرة قارون بالفيوم ، بينما كانت مبسانى الاحيساء المدنية من اللبن ، كذلك حفظت سفن خشبية ، وكسان الخشب يضن بالبنساء به ، كمسا كانت أرضيات المعابد من المرمر من محاجر « حتنوب » فى الجبل الشرقى قرب تسل العمسارنة[١] .

ومما تقدم ذكره ، نرى ان صناعة الطوب واللبن الذى كان شائعا لدى أصحاب الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط[٢]، كانت من أهم الصناعات لاقامة مبسانى المدن ، وكانت مقاييس اللبنة المصرية هى ٣٨ × ١٨ × ١٢ سنتيمترا[٣] .

ويعطينا « جونسون » فكرة عن تركيب المدينة المصرية ، فيلمح أولا الى الاختلاف الخاص بمورفولوجيتها وخاصة منطقتها الوسطى التى كان يتمركز بها قصر فرعون والمعبد الرئيسى ، بينما فى المدن المعاصرة لهسا كان يحل بدلها القلعة[٤]، كذلك يذكر ان معظم المسدن كانت غير محصنة ، واعتمادا على « هيرودوت » يذكر ان قطاعا كبيرا من سكان المدينة كانت مبانيهم ذات شكل قروى ، كذلك كان للمدن ضواح خاصة بها ، ومثال ذلك العمارنة التى اخذت الشكل الطولى ، وكان لها ضواح متعددة ، وكانت احيساء الطبقة العاملة ذات خصائص مورفولوجية مميزة منها بساطة المنازل ، وكانت منازل الأغنيساء تتميز بدخول عنصر الحجر فى عمارتها ، وذات أطر حجرية ، كذلك كان لها دعامات وأعمدة خشبية[٥] .

ويؤيد نورثام «Northam» ملاحظة «Johnson» الخاصة بأن القلعة التى كانت تتوسط المدينة القديمة كانت غائبة فى المدينسة

---

(١) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره .

(٢) Hodges, H.W.M. Domestic Building Materials and Ancient settlements, in ucko, p., Tringham, R., and Dimbleby, G. W., eds, op. cit., p. 525.

(٣) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٢ — ٢٧٣ .

(٤) Johnson, p., op. cit., p. 98.

(٥) Ibid., p. 98.

المصرية القديمة[١]، ويذكر أيضــا ان المنــازل التى شيدت بعد سنة ٢٠٠٠ ق ٠ م ٠ كان بعضها متعــدد الأدوار ممــا غير فى مورفولوجية المدينة المصرية ، كذلك كانت بعض شوارع المدينة متسعة بما فيــه الكفاية لتجعــل سير المواكب الدينية ممكنا ، مما يعكس أثر النواحى الدينية على مورفولوجية المدينة ٠

وأدى تفاوت طبقات المجتمع الى ان بعض المدن أبانت عن أجزاء متدهورة بين مكونات المدينة المــادية والاجتماعية ، فيما يعرف اليوم بالمناطق الفقيرة المتدهور Slum areas ، بينما شغلت منطقــة قلب المدينة مناطق القصور والمعابد والمخازن الخاصــة بالفائض[٢]٠

وهكذا ، ظهر نوع من التخطيط أو التخصيص للمناطق Zoning سواء فى صورته المــادية فى صورة استخدام الأرض ، أو فى هيئته الاجتماعية فى صورة الطبقة التى تشغل المنطقة ، ويذكر « برستد » انه حــول قصر فرعون ، فى وســط المدينة ، كانت مبــانى الحكومة ومنــازل الموظفين ، بحسب أهميتهم ، وبالمثل كان تخطيط مدن الموتى وتوزيع المقابر حول مقبرة فرعون بحسب لأهميتهم فى الحياة الدنيا[٣]، وكانت المبــانى الضخمة للمدينة العاصمة ذات أثر فى اتخــاذالعاصمة مظهرا مبهرا ميزها عن مدن الاقاليم الأصغر حجما يضــاف الى عنصر المبــانى فى مورفولوجية المدينة ، الحدائق وخاصة فى منف[٤]٠

ويجب أن نشير الى ان مورفولوجية المدينة قد أعتورها التغيير حتى انتهى عهد الفراعنة ، فيشير « نصحى » الى أن المدن التى بناها البطالمة كانت ذات شوارع منتظمة ومبــان ضخمة من الأحجار على عكس مدن مصر القديمة[٥]٠

---

(١) Northam, R., op. cit., pp. 31 - 38.

(٢) Ibid., pp. 30 - 33.

(٣) برستد : مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ ٠

(٤) المرجع اعلاه ، ص ٨٦ — ٨٧ ٠

(٥) ابراهيم نصحي : تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، الجزء الثانى ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٧٧ ، ص ٤٠٠ ٠

أمثلة لمورفولوجية مدن مصرية قديمة :

يمكن لنا أن نعيد تكوين صورة عامة عن المســاحة ، والشكل ، والتركيب الداخلى ، واستخدام الأرض فى بعض من مدن مصر القديمة ، وليس ذلك كله ممكنا فى كل مدينة على حـدة ، ولكن يمكن أن نلحظ بعض هذه الجوانب العمرانية ، فى بعض المدن المصرية كما يلى :

مدينـــة هليوبوليس :

قامت هليوبوليس كأول عاصمة لمصر الموحدة ، ولكنها عاشت بعد ان فقدت أهميتها كعاصمة كمدينة دينية ومزارا مقدسا لقرون عديدة ، ويعنى ذلك أن مورفولوجيتها نمت بالتدريـــج وان المبـانى الرسمية والدينية قد غلبت على شكلها العـــام •

ومن دراسة بقايا أسوارها نجدها كانت تشغل حوالى ٤ اميال مربعة ، كذلك تعطى المسلات ومواقعها فكرة عن المنطقة الوسطى من المدينة ، والمســلة القديمـــة هى أقــدم آثارها ومما يدل على تطور مورفولوجية المدينة ، ان معبد الدولة الوسطى ، أقيم فوق مبـــان أقدم منه فى عهد سنوسرت الأول ، وآثار المبانى المتناثرة تعطى فكرة عن قلب المدينـــة فى فترة من فترات حياتهـــا المتطورة ، ومما يدل على تطــور المورفولوجية ، انه بعد ٥٠٠ ســنة من اقامة مسلة سنوسرت الأول ، أقام تحتمس الثالث مسلة له بهليوبوليس •

وأضاف العديد من المبـــانى ، من ذلك مبـــان حكومية ، وأيضا مسلتين أخريين (نقلا بعد ذلك للاسكندرية) وبعدها استقرت واحدة فى لندن والأخرى فى نيويورك[١] •

مورفولوجية مدينـــة منف :

كان انشـاء منف عند رأس الدلتا ، معبرا عن اتحاد القطرين من جديد ، وأضاف موضع المدينة قرب النيل وعند رأس الدلتا الكثير من

---

(١) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤ — ١٥٦ •

الأبعـــاد الى مورفولوجيتها ، فكما ورد فى الدراسة الخاصة بموضعها عدل « مينـــا » من خصائص الموضع ، وأنشـــأ ثنية عندها ، وأضاف لسانا مائيـــا يحميها من الشمال والغرب وسميت فى البداية الجـــدار الأبيض ، وكان معبد بتاج اله الدولة القديمة الأعظم يتوسط منطقتها المركزية الوسطى ، وقام الملوك المتعاقبين بالاضافة الى مبـــانى هذا المعبـــد ومبـــانى المدينـــة[١] .

وأما عن مساحتها وأبعادها ، فقد نقب الكثير من الآثريين بهـــا ، وتدل الدلائل على ان محيطها بلغ ١٥٠ « استادا » وهو ما يقابل ٥ر٢٤ ميلا ، وأيد ذلك « فلندرز بترى » بالمقارنة بطول جبانتها ، أو مدينة موتاها ، المتمدة من دهشور الى أبى صير ، وكان يحيط بها عدة ضواح وقرى وحدائق ملاصقة تفصل فيما بينها وبين مدينة الموتى ، عن جهة الغرب والجنوب ، ومما يـــدل على تزايد نمو عمرانها ، أن جبانتهـــا امتدت بطول ٤ أميـــال ونصف ،وكان عرضها نصف ميـــل ، وبينما لا نلحظ الا اليسير من معـــالم مورفولوجية المدينة القديمة ، نجـــد ثروة من المعلومات عن مدينة الموتى ، مثل ما يوجد فى « السيرابيوم » ، الذى كانت ترقد تحت أقبيته أجساد العجل أبيس ، وهرم ســـقارة المدرج أقدم بناء حجرى فى العالم ، بالاضافة الى معابده الأخرى[٢] .

وتدل بعض الشواهد ، على ان طول المدينـــة كان ٥ر١٢ كـــم وعرضها ٦ كيلو مترات أى أن مساحتها حوالى ٧٥ كم^2، وهى مساحة هائلة فى ذلك الوقت . اذا علمنا ان مدينة بهذه المساحة اليوم تعد من المدن الكبرى ، ومن المنـــاطق الوظيفية بالمدينة كان الميئـــاء ، وكان يسمى « برونفر » وفيـــه تبنى سفن الأســـطول ، وبها ترابط فـــرق الجيش الرئيسية مما يدل على أن قسما من المدينة كانت تحتله الثكنات ، وكانت تصل اليها بعض السفن المحملة بالبضائع الأجنبية ، لذا كانت المخازن والمتاجر مكونا هاما فى تركيبها الداخلى ، وتميزت منشـــآتها بالتعدد والصبغة الأكثر « عالمية » من طيبة الجنوبية ، يدل على ذلك

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩ — ٧٠ .
(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥١ — ٥٥ .

وجود احياء خاصة بالأجانب (وربما يمكن تشبيها فى ذلك بالاسكندرية التى كانت فيما بعد أكثر فى احيــاء الأجانب بها من القاهرة) ، وكذلك كان الوضع فى منف المميز بكثرة أحيــاء الأجانب بهــا قياســا بطيبة العاصمة الأولى • ويدل على كثرة الأجانب بها وكثرة مبانيهم بالمدينة ، أنه وجد بها معــابد لآلهة أجانب غير مصريين ، مما يــدل على وجود مناطق خاصة بهم بالمدينة وسيادة الأعراق غير الوطنية بها[1] ، وذلك مثل معبد الآلهة « عشترت » •

ويرى « بيكى » ، أن من عوامل ضياع معالم مورفولوجية منف استخدام أحجــار بقاياها العمرانية فى انشــاء مبــانى القاهرة فيما بعد على الضــفة المقــابلة ، ورغم ذلك فكان اتســاع المدينة الكبير شاهدا على عظمتها ، كما لاحظ ذلك عبد اللطيف البغدادى فى القرن ١٣ الميــلادى[2] •

مورفولوجية مدينــة طيبــة :

لا توجد الا أدلة قليلة تمكننا من الحديث عن ذلك الموضوع وأن كانت المصادر تجمع على كبرها واتساعها ، ويكفى أن نشهد اليوم كيف ان المســافة بين معبديها الرئيســين الأقصر والكــرنك تزيــد على الكيلو مترين وكانت هذه المنشآت الدينية تشغل المنطقة الوسطى من المدينة على شاطىء النيــل ليمكن نقل المواد الضخمة اللازمة لحركة البنــاء وتشييد المعــابد والمبــانى ، وربما يوحى باتســاع رقعتها المبنية أنها كانت تسمى مدينة المــائة باب ، ويلاحظ أن طيبــة رغم طول مدة بقائها كعاصمة مصرية كانت تفقد هذه الصفة أحيانا ، مما يقلل من مساحتها ، وأهميتها كمركز جذب سياسى وادارى ، وبالتالى قلت وأهملت مبانيها ، ومن ذلك الفترات التى نمت فيها مدن شمالية فى الدلتا أو قريبا منها ، أو الفترات التى قامت فيها عواصم أخــرى بواسطة الغزاه •

---

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٠ •
(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٣ •
فلندرز بترى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ — ٤٦ •

وكانت من أهم المبـانى بها بالطبع ، المعـابد والدور الحكومية ، كما كانت بها المخـازن الرئيسية للحفظ وكانت على نوعين :

الأول : مخازن وصـوامع مخروطية مبنية بالطـوب تستخدم لتخزين السنابـل .

الثانى : حجرات ذات أسقف قبابية ، وتستخدم لخزن الحبوب ، وتغطى أرضية هـذه الحجرات والمخـازن بطبقة من الحجر الجيرى السميك ، منعا لتسرب الفئران[١] .

ويرى بترى أيضا ، أنه فى كل مدينة كبرى كانت توجد محكمة ، والتى كانت أحدى المعـالم الخاصة بتركيب المدينة الوظيفى ، بل ان وجود محكمة أحيـانا كان شرطا لاطـلاق لفظ المدينـة على المحلة العمرانيـة[٢] .

وكما يشير «O'connor» فان البقايا التاريخية ، وامتداد هـذه البقايا يدلان على ان مدنا مثل ممفيس وطيبة كانتا كبيرتان فى المساحة والسكان بحيث يمكن ان نطلق عليها لفظ مدينة أو مدينة كبرى city بالمقارنة بغيرها ، ويكفى أن المصريين كانوا يشيرون الى طيبة باسم المدينة الجنوبية ، فى مقابل الشمالية ممفيس ، وفى ذلك غنى عن بقية التعريفات[٣] ، ولا شك ، ان من ضمن اجزاء مورفولوجية طيبة أيضـا كانت التكنات العسكرية ، التى كان وجودها فى المدن الكبرى وعواصم النومات ، ضرورة لامكان تعبئة الجنود ، والتحكم فى الموارد البشرية ، بسرعة مثل العمالة الاجبارية ، وذلك فى رأى «O'connor» [٤] .

ويرى سميث «Smith» ان شوارع مدينة طيبة لعبت دورا هاما فى اعطائها الشخصية المورفولوجية المتفردة ، اذ أن الطرق المستقيمة ، الحجرية المعبـدة ، والشوارع التى اصطفت على جانبيهـا تماثيل

---

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ — ٤٦ .

(٢) المرجع أعلاه ، ص ١٠٤ .

(٣) D'connor, D., op. cit., pp. 683 - 86.

(٤) Ibid., p. 695.

أبى الهول ، والتى تصل بين الكرنك والاقصر ، أثرت فى توجيه الاحياء المركزية من المدينة[1].

مورفولوجية المدن المخططة :

تركت لنا الآثار المصرية بعض أمثلة من المدن « الرسمية » أى التى انشئت لغرض رسمى حكومى ، ومنها قرى العمال حول المقابر الضخمة كالأهرامات والمنشآت الاقتصادية ومشروعات الاصلاح والعواصم الجديدة ، وفيما يلى عرض سريع لاهمها :

مدينة العمال بالجيزة :

وهذه كانت ذات خطة طولية فى صورة سلسلة من الثكنات أقرب الى صورة المعسكر منها بالمدينة ، وقد عثر هناك على ١١١ غرفة طويلة خالية تماما من أى جهاز أو أثاث ، وكل منها تتسع لنحو ٥٠ رجلا[2]، وكانت المبانى من الطوب اللبن ، وبينها حارات ضيقة كانت تستخدم أيضا كمصارف للمجارى والمرور[3].

مدينة كاهون :

وهى مثال آخر لقرى أو مدن العمال ، والمحلة كانت ذات سور مربع ، وتنقسم الى قسمين غير متساويين أكبرهما لمساكن كبار الموظفين ، والأصغر للعمال ، وفى هذا القسم الأصغر كان يشقه ١١ شارعا ، وكان ترتيب المنازل يعكس الطبقة الاجتماعية للموظفين والعمال اذ أن مساحة منزل أحد كبار الموظفين كانت تعادل مساحة ٢٥ منزلا من منازل العمال[4] وكانت المدينة بطول ٤٠٠ مترا

---

(١) Smith, H. S., Society and settlement in Ancient Egypt, in ucko, p.; Tringham, R. and Dimbleby, G.W. op. cit., p. 216 - 18.

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور : التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، مجلة كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد السابع عشر ١٩٦٣ ، مطبعة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤ ص ١ .

(٣) Gallion, A. B., & Eisner, S., op. cit., 1969, 5 - 7.

(٤) المرجع أعلاه ، ص ٩٢ .

وعرضها ٣٥٠ مترا ، وسورها من اللبن ، وكانت المبـانى الهامة تحدد ملامح مورفولوجيتها ، فقصر الملك يحتل شمال القسم الشرقى الكبير المخصص لكبار الموظفين وحوله منـازل عليه القوم ، تمتد على طول طريق رئيسى مستقيم طوله ٢٨٠ مترا ويمتد من مدخـل المدينـة فى الشرق الى سـاحة فى الغرب ، بينما كانت أبعـاد منطقـة العمـال ٢٤٠ × ١٥٠ مترا ، وفيها حوالى ٢٥٠ منزلا ، يتخللها شارع رئيسى من الجنوب الى الشمال عرضه ٩ أمتار ، وتتصـل به على زوايا قائمة شوارع جانبية عديدة عرض كل منها أربعة أمتـار[1]، ويمكن دراسة أهميـة العـلاقة بين المعبد والمدينـة فى كاهون كمثال لذلك ، اذ كان هناك معبد كبير للدفن يشكل معلما هاما لمورفولوجيتها ، وتحطم جزء كبير منه ، وعموما تبين المدينـة العـلاقة الوثيقة بين نشأة المدينـة وتعدد تركيبهـا الداخلى والأهميـة التى كانت للمعابد ضمن هـذه المورفولوجيـة[2]. ويشير « ممفورد » الى ان المدينـة كانت تأخـذ الشـكل الشبكى المتعامد Gridiron plan ، ويرى أن هذه الخطـة كانت غير ملائمة لجو مصر[3]، ولا شـك أن مورفولوجية كاهون قـد تطورت مع الزمن ، اذ الثابت أنها ظلت مسكونة حتى عصر الهكسوس ، ولمدينة كاهون أهمية خاصـة ، اذ أن التنقيب هناك أبان عن مرحلة غير متوقعة من التخطيط على حد قول بترى ، وكانت أبواب المنـازل المطلة على الشوارع ذات عقود من اللبن ، ويرى « بترى » أن السور حول المدينة كان يحيطها من ثلاث جوانب فقط[4].

وكان الملوك يكملون أعمـال أسلافهم كما فعـل ذلك أمنمحات الثالث فى الفيـوم[5].

---

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٢) Kemp, B. J., Temple and town in Ancient Egypt, in ucko, p.; Tringham, R. & Dimbleby, G., op. cit., p. 658.

(٣) جاردنر : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٤) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٠ — ١٩٣ .

(٥) محمد ابو المحاسن عصفور : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ — ٩٤ .

مورفولوجية دير المدينة ، مدينة هابو غربي طيبة :

وهذه كانت عند الضفة الغربية لطيبـــة ، وحدد موضعها بعض أبعـــاد مورفولوجيتها اذ تقع فى واد منعزل جدب محصور بين قرنه مرعى ، والتلال المتطرفة جنوب هضبة طيبـــة ، وظلت مسكونة بصفة دائمة نحو ٤٠٠ سنة ، وأدى طول المسافة بين دير المدينة وموقع العمل فى بنـــاء المقـــابر الملكية ، الى ظهور نمط عمرانى تابع لدير المدينـــة Settlement فى صـــورة أكواخ حجـــرية فى الطـــريق المشرف على الوادى قرب المكان الذى يجرى به العمل يقضى العمال فيها معظم أوقاتهم •

وكان من أهم ملامحها المورفولوجية ، خطتها المستطيلة ، والتى استطالت أكثر مع الزمن ، كـــذا السور المشيد باللبن الذى احاطها ، والشارع الوحيـــد الضيق الذى يخترقها ، وكذا كانت المنازل طويلة تفتح على الشارع الرئيسى ، كذلك مع نموها أخذت شكلا جديدا ، اذ بدأت المنازل تظهر خارج السور ، وكان للسور فى خطة للمدينة وظيفة تختلف عن وظائفه فى المدن الأخرى ، اذ كان للفصل بين الطبقات التى تألف منها السكان ، وكانت الطبقات الأهم داخل السور ، والأقل أهمية فى خارجه ، كذلك لا يسمح بوجود الحيوانات الا خارج السور •

ومن الملامح المورفولوجية ، اتصـــال المنـــازل ببعضها ، وكانت ضيقة لا يضيئها ، الا ضوء الشارع ، ومنـــافذ التهوية فى السقف • وتميزت بوجود خزان خارجهـــا يجلب اليـــه المـــاء اللازم لحيـــاة المدينة • وتوحى الدراسة المتأنية للمدينة وخطتها انها حظيت بنوع من التخطيط ، والتنظيم والرقابة ، اذ رغم شغلها أكثر من ٤٠٠ سنة الا أن مستوى أرضها لم يرتفع مما يدل على أن منازلها وكان يعـــاد بناؤها على نفس الأساس السابق[١] وترجع أهمية مدينة هابو ، وكذا أبعاد مورفولوجيتها الى كونها تعكس فكرة الارتباط بين المدينة والمعبد فى مصر القديمة ، اذ كانت المعـــابد تشكل أهمية خاصة فى تركيب المدينة الداخلى ، اذ كانت مقـــر جنائزى لرمسيس الثالث ، وبها أمثلة جيدة

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ — ٩٤ •

للمبنـــانى الجنائزية ومما يدل على تطور مورفولوجيتها أنها بنيت على مرحلتين ، احتـــل المعبـــد الفترة الأولى وهـــو نســـخة مصغرة من « الرمسيوم » • والمعبد هو نقطة البدء فى التعرف على مورفولوجية المدينة ، فمن هذا القلب وحوله تنتشر المبـــانى وتنتظم مجموعة من المستودعات ، والمخـــازن والمتاجر والمكاتب وبعض المبـــانى الثانوية والمبـــانى الملحقـــة ، وكلهـــا مخدومة بشبكة من الشوارع المعبدة ، ومحاطة بسور ضخم من الطوب • وبها بعض التحصينات التى تعلو ٥٠ قدما ، وكانت المدينة تشغل مساحة (٦ أفدنة) ، وكان هناك بهـــا مساكن للموظفين ، والعاملين بالمعبد بخاصة ، ومبان ادارية ، وحديقة ، ومبـــان ملكية أخرى • ولم يكن هناك قصر واحد ، ولكن ثلاثة قصور على الاقل ، لاستخدام الملك حين زيارته للمعبد • وكانت تصل لهذه المعـــابد قنوات ، تصل بينها وبين النيـــل ، وكانت الأرض تدرج لتصل بين مستوى المعبد ومستوى ماء النيـــل[1] • ولوضع أقصى عـــدد من المساكن فى « هابو » فى المساحة المتاحة ، كان على المعمارى المصرى القديم أن يضعها فى خطوط مستقيمة ، مع جعـــل مداخلها فى الأماكن الأطـــول • ويوحى تصـــميم المبـــانى والمنـــازل بوجود مستويين ، يعكسان الطبقات الاجتماعية ، فى شـــكل صفوف منـــازل داخليـــة وخارجية • وكانت هذه التى فى الصفوف الداخلية ، يمكن الوصول اليهـــا من الطرق حول السياج الداخلى ، وهـــذه التى خلفها ، يمكن الوصول اليهـــا فقط من الشـــوارع الضيقة والحـــارات المسدودة Blind Allays المنتشرة بين صفوف المنـــازل ، وكان عرضها ٥ أقدام فقط ، مقـــارنة بحوالى ٢٠ قدما فى الشوارع الاوســـع • ويوحى هذا التخطيط بأن منـــازل هذه المنطقـــة كانت شبه منعزلة ومقطوعة عن غيرها ، وكان هنـــاك طريق يصـــل بين المنطقـــة المحصنة ، والمنـــازل الخارجية ، ربما كان يستخدم من قبـــل حراس المعبد • أما المنـــازل القريبـــة من المعبد فكانت لكهنـــة والحراس ، وخدم المعبد • ويرى Uphil أن مثل هذه الخطة المدنية ، كانت متكررة فى كل الأمثلة

---

(1) Uphill, U., The concept of Egyptian palace as a (ruling machine), in ucko, p.; Tringham, R., and Dimbley, G., op. cit., pp. 722-26.

الحضرية التى بها معابد جنائزية ، وأيضا مقابر ملكية وقصور ، حيث كانت تعكس عظمة أصاحبها ، اذ أن المنازل الحسنة فى « هابو » كانت أبعادها كبيرة ، وجيدة البناء ، أما الداخلية فكانت أبعادها ٥٣ × ٢١ قدما ومجموعة أخرى أبعادها ، ٣٣ × ٢١ قدما[١] .

مورفولوجية مدينة « افق آتون » :

لا شك أن هذه المدينة قد أضافت الكثير الى النمط الذى كانت عليه المدينة المصرية القديمة ، وكما يقول « Fairman » أنها توضح أكثر الاضافات العمرانية فى الأنماط السكنية فيما بين المراكز الدينية والادارية[٢] ، وأهمية المدينة تكمن فى أنهـا بنيت على موضع بكر ، غير مسبوق ، بينما غيرها من المدن كان يقـام أحيانا على بقايا شغلت أماكنها من قبل ، والنقطة الثانية ، أنها ولدت مخططة ، أى أنها سابقة التخطيط ، كذلك كانت فريدة فى نوعها اذ أقيمت أساسا من أجل اله جديد ، ولعل هذه الخصائص نفسها تجعلها غير صالحة لأن تجعلنا نعمم الأبعاد المكانية والجغرافية فيها على غيرها من مراكز الحضر فى مصر ، ولكن أهميتها بالنسبة للباحثين أنها تمثل احدى الآثار النادرة جدا للمملكة الحضرية المصرية القديمة ، ولا شك أن موضعها عند طرف الصحراء كان عاملا فى بقاء بعض ملامحها المورفولوجية .

والمدينة ، تتوسط المسافة بين عاصمتين سابقتين لمصر (طيبة فى الجنوب ومنف فى الشمال) وان كانت أقرب للثانية من الأولى . وتضافرت العوامل الطبيعية والبشرية فى تحديد المدينة بصرامة ، فوجود المدينة فى منطقة سهلية تتسع فى الوسط وتضيق شمالا وجنوبا على طول الضفة الشرقية للنيل ومحمية فى الشرق بحافة الهضبة حدد مساحتها بشىء كبير من الدقة ، وتعاليم اخناتون باقامة علامات تحديدية ، وكذا قسمة الا يبرحها والا تزيد حدودها يوضح لنا اختلافها عن غيرها . لذا فان أهميتها كاحدى العواصم الهامة القديمة

---

(١) Uphill, U., op. cit., 1972, pp. 727 - 34.

(٢) O'connor, D., op. cit., p. 681 - 82.

أهمية فائقة أكثر من أى عاصمة أخرى كما يقول « Fairman »[1] وذلك نظرا لأن المساحة التى كانت عليهـا المدينة لم تزد لأنها كمـا سكنت فجأة ، هجرت فجأة أيضـا ودام عمرها أكثر قليلا من ١٥ عاما .

ولا شـك ، ان الدين الجـديد كان عامـلا هـاما فى الأبعـاد المورفولوجية الحضرية للمدينة الوليدة . ويذكر « ولسون » ان طولها كان ٨ اميـال[2] ، بينما يقرر « شـكرى » أن طولها ٩ كم وعرضها بين ٨٠٠ — ١٥٠٠ مترا[3] ، واذا أخذنا بالقيـاس الثانى ، فمعنى ذلك أن المدينة كانت ذات مساحة تقرب من ١٥ كم^2 . ومع ملاحظـة ان المـدينة كانت منطقة حضرية خالصة ، اذ أن ظهـيرها الزراعى كان يوجد فى الضفة الغربية المقابلة لها . أما عن عدم وجود سور لهـا ، فقد علل ذلك بأن التلال الشرقية قامت بتلك الوظيفة ، كمـا ان التحرر من القيود الذى كان من صـفات الديـانة الجـديدة ، انعكس على مورفولوجية المدينة وجعلها تخلو من الأسوار .

ويرى « جاردنر » أن مورفولوجية العمـارنة هذه قد اختلفت جذريا عن غيرها ، ويدلل على ذلك بضخامة مبـانى الاله الجديد ، من ذلك ان طول المعبد الكبير لآتون كان ٢٠٠ ياردة ، ويرى أن المبـانى شيدت بسرعة لتستوعب السـكان .

ومن معـالم اختلاف تركيب هذه المدينة ، الناتجـة عن خصائص موضعها أنهـا كانت على خـلاف المـدن الكبرى الأخـرى ، توجد مدينة موتاها فى الشرق (حيث الصحراء) وليس فى الغرب كما اعتاد المصريون الدفن هناك . وعلى ذلك وقعت « أخيتاتون » بين مدينـة الموتى الخاصة بهـا والتى تبعـد عنها أربعة أميـال فى الشرق[4] ، وبين ظهيرها الزراعى عند الضفة الغربية فى الغرب .

---

(1) Fairman, H.W., Town planning in Pharaonic Egypt, the town plan. Rev., 20, 1949, p. 32.

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

(٣) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ — ٨١ .

(٤) جاردنر : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٨ .

وتميزت المدينة الجديدة بعدم تأثرها بالطغيان الكبير للكهنة على تخطيط المبانى اذ أن كل شىء « موجه لاتون » •

وطبقا لخصائص الموضع سابقة الذكر ، كان لابد أن تكون المدينة ذات خطة طولية شقتها ثلاثة شوارع رئيسية بحذاء المحور النيلى من الجنوب للشمال ، تقطعها فى زوايا قائمة شوارع أقل أهمية تصل بينها وبين النهر ، فكأن الخطة كانت قائمة الزوايا فى اجزاء كثيرة grid plan وكان أهم الشوارع هو الشارع القريب من النيل (الشارع الغربى وكان يطلق عليه الطريق الملوكى) وفى هذا الجزء كان معبد أتون العظيم ، وكذا المبانى الحكومية ، المركزية ، كدار المحفوظات ، ومكتب الشئون الخارجية ، ومنازل الكهنة والموظفين وتأثر قلب المدينة بالشكل الطولى ، وكانت مساحته حوالى (١ كم٢) وكانت الشوارع السالفة تخترقه[١] •

أما ثكنات الشرطة فكانت فى الشرق ، عند التلال له مكان مراقبة أى عدو ، وفى نفس الموقع وجدت ساحة للاستعراض ، أما فى أقصى شمال وجنوب المدينة فوجد قصران للملك تختلط بهما منازل أفراد الشعب دون تميز ، وكان ذلك ملمحا جديدا على مورفولوجية المدينة المصرية القديمة • ومن أجزاء المدينة الأخرى كانت قرية العمال أوحى العمال ، الذين كانت مهمتهم حفر المقابر الصخرية ، ولذا تأثر موقع هذا القطاع من مورفولوجية المدينة بالوظيفة الخاصة بساكنيه ، فكان فى الشرق أيضا حيث الصخور والتلال ، وكان الحى مربع الشكل ، وبه ٧٤ منزلا ويحيط بالحى فقط سور مرتفع له مدخل جنوبى ، وتتخلله ٥ شوارع مستقيمة متوازية بين الجنوب والشمال أيضا ولكنها قليلة الاتساع • اذ لا تزيد عن متر واحد[٢] •

وروعى فى تخطيط الشوارع بالذات أن تبرز ابهة الموكب الملكى ، لا سيما فى الطريق الغربى (الطريق الملكى) • وهنا تبرز أهمية الشوارع فى المدينة كمكون رئيسى فى مورفولوجيتها • وفى قلب المدينة

---

(١) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ — ٨٢ •
(٢) المرجع اعلاه ، ص ٨٠ — ٨٣ •

نجد أفخم المبانى ومنها المعبد العظيم الذى شغل مساحة (٢٥٠٨٠٠ ياردة مربعة) • كذلك روعى فى استخدامات الأرض بالمدينـــة بصفة خاصـــة وجود الحدائق وخاصـــة حول القصور الملكية ، وتشير بعض المبـــانى التى تؤلف مورفولوجية المدينة الى وظيفة هامة ، مثال ذلك ديوان الخارجية ، حيث وجدت خطابات تل العمـــارنة الشهيرة وهى المراســـلات الدبلوماسية[1] •

ولمـــا كانت رقعة المدينة محددة طبيعيا تحديدا ممتازا ، فانه فى المنطقة الشمالية والجنوبية وحيث تقترب حافة الهضبة من النهر أقيمت نقاط للحدود والحراسة والمبـــانى اللازمة لهما وكانت الشوارع ممهدة فقط وغير مرصوفة أو مبلطة ، كذلك لم يعرف نظـــام متكامل للصرف الصحى ، وكانت البقايا تجمع فى أكوام •

وقد وجد نوع من الفصل الاجتماعى بحيث ان الأغنيـــاء كانت مساكنهم على امتداد الشوارع الرئيسية ، والأقل ثروة مساكنهم فى الأماكن الخلفية • ويلاحظ من خصائص مورفولوجية المدينة أيضـــا أن الموقع البكر للعمـــارنة ، اتاح لها الامتداد الافقى السهل ، وانعكس ذلك على كثافة المنـــازل (اذ كانت منخفضة) وعلى ارتفاع المبـــانى (كان أغلبها من دور واحد) وفى هذا تناقض مـــع المدن القديمة فى طيبة ومنف التى وجدت فيها — نتيجة عدم وجود المسطحات الكافية — منـــازل متعددة الأدوار[2] • وهناك دلائل على وجود وحدات جيرية منفصلة شبه مكتفية ذاتيا ، كمـــا ان خطة الضواحى كانت عشوائيـــة organic plan

ويرى البعض من الباحثين أنه فى أماكن سكنى العمـــال فى الشمال من اخيتاتون وجدت بعض مظـــاهر الفقر والتدهور بالسكن المعروف اليوم فى جغرافية العمران بالمناطق الفقيرة المتدهورة أو ما يطلق عليه تعبير Slum areas [3] ، كذلك يرى Kemp ، ان بعض المنـــازل والمبانى

---

(١) المرجع أعلاه ، ص ٩٧ .

(٢) المرجع أعلاه ، ص ٩٨ — ١٠١ .

(٣) Kemp, B. J., op. cit., pp. 661 - 80.

كانت ذات وظيفة زراعية يسكنها قوم يعملون بنواحي الزراعة ، رغم ان الزراعة فى الضفة الغربية ، (وجدت بعض مظاهر النشاط الصناعى فى ضواحى المدينة) • ويرى كذلك أن قلة ارتفاع المبانى ، ووجود بعض المنشآت ذات الوظيفة الريفية ، يعطى العمارنة مظهر سلسلة من القرى ، ساعد على ذلك خطة المدينة ، وكونها رحبة متسعة ، منخفضة المبانى بصورة لم تكن متاحة فى المدن التى بنيت فى مناطق زراعية خصبة ، حيث ظهرت فى طبية المبانى متعددة الأدوار ، كما أن المنازل نفسها فى العمارنة كانت كبيرة المساحة قياسا على غيرها فى المدن الأخرى ، وأوحى هذا الاتساع بأنه صمم ليستقبل انتاج المزارع ، وهو شذوذ آخر عن الصفات الحضرية فى المدن المصرية الأخرى(١) •

ويرى « سميث » ان كبار رجال الدولة والأغنياء كان لهم ميزة اختيار مواقع منازلهم ، دون النظر كثيرا الى المحاور التى تمتد على طولها المبانى فى الأحياء الرسمية ، وكان حول منازلهم يتجمع عدد من منازل التابعين والحرفيين ومن هم فى خدمتهم ، ومع ذلك ، يشير الى نقطة هامة ، وهى ان العمارنة لم تعرف ظاهرة التمنطق أو المنطقة Zoning على أساس حرفى بمفهومها الحديث فى جغرافية المدن ، بمعنى ان تخصيص المناطق كان على أساس طبقى واقتصادى ، وليس على أساس حرفى ، وان وجدت بعض دلائل على أن بعض المنازل التى تخص أصحابها ، كانت تتجمع حول مصدر رزق أصحابها(٢) •

وبناء على ما تقدم ذكره ، فان « العمارنة » ، كانت فريدة فى مورفولوجيتها ، ولعل ذلك ما دفع « جونسون » الى القول ، أنها كانت شذوذا لا يقاس عليه ، بحدائقها وأشجارها ومزارعها ذات الخطة المنتظمة ، على النقيض من « ممفيس » التى كانت أقرب الى فكرتنا عن المدينة الشرقية المكتظة ذات الشوارع الملتوية ، والضيقة ،

---

(١) Kemp, B. J., op. cit., pp. 665 - 80.

(٢) Smith, H., op. cit., pp. 505 - 10.

والمساكن متعددة الطوابق ، ورغم ذلك فان « ممفيس » أيضـــا كانت شذوذا لا يقاس عليه atypical ، ولكن « العمارنة » أكثر تفردا لأنها طبقا للخلفية والظروف التى أحاطت بها تعتبر غير مؤهلة لتمثيل المدينة المصرية العــادية فى رأى الباحث . وأهمية المدينـــة ، أنهـــا توضح صورتها عند فترة زمنية معينة ، يدل على ذلك أنها حين هجرت كانت بعض مبانيها تحت الانشاء[1] .

---

(1) Jones, E., & Zandt, E., The city, New York, 1974, p. 86.

الفصل الثامن

تركيب المنزل المصرى القديم وتخطيطه

تطور المنزل المصرى القديم مع تطور المكونات الحضارية الأخرى ، كأحد معالم مورفولوجية المحلات العمرانية الريفية والمدنية ، وعلى الرغم من عدم وجود بقايا كاملة لهذا المنزل الا أن العديد من الاشارات والنقوش على جدران المقابر والمعابد تشير الى أبعاد وتخطيط المنزل المصرى فى عصوره المختلفة .

واذا ما تتبعنا المنازل المصرية القديمة منذ عهدها البدائى فى الحضارات التى ترجع للعصر الحجرى الحديث ، نجد أن مساكن سكان « دير تاسا » كانت مستقلة عن المقابر وكانت هذه الأخيرة حفرا مستطيلة بها طاقات لوضع أثاث المقبرة ، وهذا ميزهم عن أهل « مرمده » ، رغم حداثة الاخيرين زمنا ، ولم يعرف الكثير عن منازل التاسيين أما البداريون فتميزوا بمعرفة النحاس ، وأسسوا قرى ثابتة منظمة . أما حضارة « العمرى » أو حلوان الأولى ، فكانت مساكن القوم مبعثرة فوق سطح ممهد خصيصا لها فوق الهضبة الصحراوية ووجدت المواقد مجمعة فوق هذا السطح ، ويعتبر « بوفيية لا بيير » هذه الحالة تنظيما بدائيا لتخطيط المدن فى هذا العصر المبكر[1] .

وكانت مساكن « مرمدة بنى سلامة » بيضاوية مبنية من الطين ، وارتفاع الجدران مترا واحدا ، وبعضها لم يكن له سقف وطولها من مترين الى أربعة أمتار ، ووجدت فى مرمدة مساكن مقامة على أعمدة وكانت مستديرة فى هذه الحالة ، وتميزت مرمدة بأن مقابرها كانت داخل مساكنها وهى حالة فريدة فى الحضارات المصرية .

---

(1) ابراهيم رزقانة : الحضارات المصرية فى فجر التاريخ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٥٢ .

وتشير المقارنات عن المساكن وحجم القرى أن القرى فى الدلتا كانت متسعة بينما كانت فى الصعيد أصغر حجما ، كذلك تميزت حضارة الفيوم أن مخـازن الغـلال المصنوعة من الغاب لم تكن توضع بالقرب من المساكن شأنها شأن الحضـارات المعـاصرة بل فى مكان خـاص بعيدة عن القرية ومركزه فى مكان واحـد .

وفى عهد ما قبـل الأسرات ، كانت المسـاكن بسيطة أقرب الى الأكواخ وبعضها مستدير بيضـاوى ، وجدرانها من أعـواد بعض النباتات بعد ضمها وتثبيتها .

أما السقف فكان أيضـا من أعـواد النباتات الجـافة ومغطى بالقش ، وتمثل المعـادى خير مثال لمساكن ذلك العصر ، ويمكن تمييز نوعين من المنـازل :

١ — القديم مستدير أو بيضـاوى ، وله قوائـم مغروسة فى الأرض ، ويملأون المسافات التى بينها باغصان مضفورة ثم يغطونها بعد ذلك بالطين . وفى داخل تلك المنـازل التى يرجح أنها كانت غير مسقوفة وضعوا المصطلى الذى يطهون عليه طعامهم ويمدهم بالدفء .

٢ — أما الثانى فهو أحدث وكان مستطيلا ومشيدا بطريقـة القوائم المغروسة كالنوع الأقـدم ، أما بابه فكان يفتـح فى منتصف الواجهة التى كانت فى احدى الجهـات الطولية ، وقد زادوا على هذا النوع من المنـازل جدارا أمام المدخل يحمى من فى داخل المنزل من الرياح ونظرات المـارة[1] .

وأما فى حضـارة حلوان الثانية أو حلوان ب ، فكانت المساكن تقـام بحيث يكون جزء منها تحت مستوى سطح الأرض ، وكان ذلك الجزء بيضـاوى الشـكل ، تقوم حوله جـدران من الحصر المغطى بالطين ، كما وجدت بقايا أعمدة من الخشب مغروسـة فوق سـطح الأرض ، كانت تؤلف فيما بينها جدران نوع آخر من المساكن تقوم

---

(١) احمد فخرى : مصر الفرعونية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٤٢ — ٤٨ .

بأكملها فوق سطح الأرض ، وربمـا كانت المخـازن المحفورة تمثل مخـازن للمؤن ، أما الأخرى فللسكن .

وفى المعـادى وجـدت مسـاكن على شـكل [] ومطابقـة للكلمة الهيروغليفية « بـر » ومعناها مسكن[٢] .

وفى عهد الأسرات أعتمد المنزل فى بنائه ، مثلما كان قبلا ، على الأغصـان والطين ، وفروع الشـجر والمواد النباتيـة ، وكان تطور أسكن أكثر بعد صناعـة الطـوب اللبن ويسر ذلك البنـاء وأدى الى استقامته ، وأدى الى استخدام الأبواب فى المبـانى ، كما كان الباب يوضع بجـانب أحد طرفى البنـاء ، ولكن لقلة الأخشاب بمصر انتشر تسقيف القاعات باللبن فى شـكل قبو[١] واستمر ذلك حتى العصور المتأخرة ، وقد استمر ذلك حتى اليوم فى بعض منـازل الصعيد ، وكان المنزل مكونا أولا من قاعة واحدة ، ثم أصبح ذو ردهة وقاعة ، وتطور السـقف نحـو الاستقامة حيث كان يصعد اليه صـاحبه فيستمتع بالنسيم[٢] . وتطور المسكن بتطور الحضارة المصرية ، وكان دائما يعكس الأحوال الاقتصادية والطبقة الاجتماعية لاصحابه ، وكان من علامات التطوير وجود بهو وسلم يؤدى للسطح وعلى السطح وجدت حواجز ، وصوامع للغلال وبنيت شرفات مثلثة الشكل تبرز من الطوابق العليـا (فى حالة تعـدد طوابقه) لتزينها ، كذلك فتحت « الملاقف » فى السطح لاستقبال الرياح الشمالية[٣] .

ومنذ عهد الدولة القديمة وجد من البيوت ما يتألف من قاعتين

---

(١) ابراهيم رزقانة : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٣ .

(٢) لايزال بناء الاقبية ملحوظا فى بعض مناطق المنيا لا سيما فى المقابر التى يعلو كل منها قبو وخاصة فى قريتى الدفن الرئيسيتين بمركز المنيا وهما قرية زاوية سلطان وبها مدافن المسلمين ، وقرية دير سواده وبها مقابر المسيحيين ، راجع : محمد مدحت جابر عبد الجليل : مركز المنيا ، « دراسة فى جغرافية العمران » . رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى قسـم الجغرافيا ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ٢٧٦ — ٧٧ .

(٣) محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٩١ .

(٤) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٠ — ٣٠٤ .

متقابلتين أو فنـاء يليـه قاعة ، وكانت الصوامع الملحقة بالمسكن بعضها أسـطوانى والآخر مقوس ، كذلك استحدثت بالمسكن صفات ذات أساطين من الخشب تأخذ أشكال نباتية كالبردى ، وكذلك استخدمت فى السقوف جذوع النخيل ، وكذلك طريقة التقبية القديمة ، ووجدت أعـداد قليلة للغـاية مبنيـة من الحجر ، وكان الأغنيـاء أحيـانا يسكنون منـازل من الخشب ، يتراوح عرض كل « لوح » منها بين ١٢ — ١٤ بوصة ، وطوله بين ٦ — ٧ أقدام ، وكانت تلك المنـازل كثيرة الأبواب وكثيرا ما كانت هذه المساكن تنقل اذا ما كانت فى مستوى الفيضـان ، وتقام على حافة الصحراء المطلة على الوادى فى مـدة لا تعدو يوما واحدا ، كما كان أصحابها ينقلونها الى جـوار أكواخ الرعاة المصـنوعة من الغاب حين يريدون ذلك[١] ، وكانت جـدران المنـازل فى القرى القديمة المصرية وأيضـا الحديثة ، لا يوجد بها الا نوافذ صغيرة (مختلفة فى ذلك من سـكان المناطق البـاردة) يسميها الفلاحون طاقات ، يدخل الضوء منها الى الحجرات ، عـلاوة على ما يدخل اليها من الأفنية ، المكشوفة .

وفى الدولة الوسطى ، نجد مظاهر التطور فى خطة المنزل ، وأنه وجد فى بعض المنـازل حدائق ملحقة مسورة يتوسطها حوض مـاء ، تحيطه أشجار الجميز[٢] ، وقد انسجم تخطيط المنزل مع بقية مكونات مورفولوجية المحلة العمرانية ، فيستقى من منـازل وخطة اللاهون (الأسرة ١٢) أن المنـازل المحيطة بكل شارع كانت تختلف باختلاف عرض الشارع ، اذ كانت منـازل كل شارع ذات حجم موحد واختلفت الشوارع أيضـا طولا ، ففى اللاهون كان هناك أحد الشـوارع طوله ٦٢ قدما ، يطل عليـه منزلان من كل جـانب ، وآخر طوله ٣٢٠ قدما يطل عليـه ثمانية منـازل من جـانب وتسعة من جانب آخـر[٣] ، وكانت المنـازل تحتوى على فنـاء صغير ، وقاعة أو اثنتان أو ثلاث ، ووجد أن اسطح بعض القاعات كان مقببا .

---

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٠ .
(٢) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ — ٩٨ .
(٣) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ — ١٠٠ .

أما منـــازل حكام الأقاليم فكانت أفخم وأرحب بطبيعة الحـــال ، وذات طوابق ثلاثة ، مع الفخامة فى ترتيب المنزل وزخرفتـــه ، فكان هناك فنـــاء مستطيل والمنزل على شكل برج من ثلاثة طوابق ، ويتوج بابه بالكورنيش المصرى ، وتتخلل نوافذه قضبان ، وبه سلم يؤدى للطـــابق الأعلى ، الى السطح ، وكان ملحقا به مرافق مستقلة للغلال والصوامع ، وأماكن للغزل والنسيج وصناعة الجعة ، والأثاث .

وقد روعى بعض الميل فى الجدران نحو الداخـــل ليعطيها ثباتا أكبر ، وكانت أطر الأبواب وعضاداتها doorposts تصنع من الأخشاب ، ويدحض الرأى القائل بأن صناعة اللبن جـــاءت من ميزوبوتاميا أن قيـــاس اللبنـــة وشكلها العـــام مختلف فى مصر عنه فى العـــراق .

وفى الدولة الحديثة زادت الأعمال المعدنية والحجرية بكثرة فى تشييد المنـــازل وخاصة للأشخاص المميزين ، وكانت الأبواب أحيانا مفردة وأحيـــانا مزدوجة ، وكانت تثبت فى أطر حجرية ، وعليها تحفر اسم المالك وبعض الرموز السحرية ، وأما الأغنيـــاء فقد ثبتوا الأبواب فى أطر نحـــاسية وكانت منـــازل مصر العليـــا تزود أحيـــانا بغرف تحتية رطبة وسراديب ، ليلجأ اليها السكان فى القيلولة ، ولم تعرف الدلتا مثل هذه السراديب كثيرا وخاصة أيام الفيضان .

ومعظم المعلومات عن مساكن الدولة الحديثة مستقاة من منازل العمارنة ، حيث زادت مساحة المنزل عن ذى قبل ، رغم أن العمارنة تعد مثالا لا يصح تعميمه ، وأن كان البعض يرى ان نموذج بيت العمارنة هو نموذج للبيت المصرى ، لسببين ، الأول ، محافظـــة المصرى على التقاليد ، والثانى ، أن فترة حيـــاة « آخيت آتون » كانت قصيرة ، لا تتيح تطويرا خاصـــا فى المبـــانى ، وكان منزل العمارنة عموما من طابق واحد حيث كان هناك متسع من المساحة ، فاختزل البعد الرأسى نتيجة الاتساع الأفقى ، وكانت معظم المساكن من اللبن مع استثناءات نادرة من الحجر[1] .

---

(١) محمد انور شكرى : المرجع السابق .

والحق بالمنزل المصرى القديم أحيانا الحظيرة والتى روعى أن تكون فى مناطق لا يدركها الغمر والبلل كما كان الحال لدى الكثير من أصحاب الحضارات القديمة[٢] ، وأن كانت فى منازل الأغنياء منفصلة عن السكن ، وتحوى سكن الخدم وأدوات المزرعة والحظيرة ، كذلك لوحظ بجوار المنزل ، أن هناك منطقة منخفضة ترص فيها مجموعة من الجسرار تجلب اليها الميساه من النهر وتصف الجرار فى خط مستقيم على الأرض أو على دعامة خشبية .

وفى أحيان كثيرة بنى المصريون مصاطب عالية بجوار المنازل ودهنت أعاليها بعناية بالطين بعرض ٣ — ٤ قدم ، وهو ما يمكن رؤيته بالريف المصرى حتى اليوى ، وتستخدم للنوم والجلوس .

ورغم ان سكان العمارنة (الدولة الحديثة) كانت أراضيهم الزراعية فى البر الغربى ، فأنهم قد احتفظوا بحظائر للماشية التى تمدهم باللحوم والألبان ، وكانت الصوامع تملأ من أعلى ، أما المخزون فيؤخذ من فتحات سفلية ، وتقع المخازن فى صف واحد تتقدمها سقيفة ، أما الحظائر فكانت مربعة الشكل ، وفى مؤخرتها المزاود بما يسمح بملئها من الخارج ، كما هو الحال فى الحظائر الحديثة حاليا . وكانت الحديقة مستقلة عن البيت وتفصل بجدار[١] ، وعموما تميز المنزل المصرى فى عصوره المختلفة بمخططه المستطيل ، وامتداده الى الداخل فى أغلب الأحيان ، ووضوح أقسامه ، وانتظامها ، واستقامة قاعاته بما ينم عن روح هندسية تؤثر الترتيب والنظام[٢] .

وفى نهاية العهد الفرعونى ، وفى العصر البطلمى ، تدل الدلائل على تأثر البطالمة بنظام عمارة المنزل المصرى ، كما تدل الدلائل

---

(١) Hodges, H.w.M., Domestic Building Materials and Ancient Settlements, in ucko, p.; Tringham, R.; Dimbleby, G. W. eds, op. cit., pp. 523 - 30.

(٢) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

(٣) المرجع أعلاه : ص ١٥٠ — ١٥١ .

على أن المنزل المصرى الفرعونى كان يتحكم فى مساحته وفخامة عمارته مرتبة صـــاحبه ، ويرى « نصحى » أن المصريين فى عهد البطالمة تنعوا بوجه عــام بأنواع المنــازل التى ورثوها عن الدولة الحديثة وأورثوها لخلفائهــم[1] .

---

(١) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦١ — ٦٢ .

الفصل التاسع

التجهيزات الصحية فى المنزل المصرى القديم والمنطقة السكنية

لا شك أن معرفة المصرى القديم بهذه التجهيزات ، قد واكبت تطور معرفته وحضارته بصفة عامة . ولا تبين أية محلة عمرانية من عهد ما قبل التاريخ عن أى دليل واضح للتخلص من النفايات ، والتى كانت تترك ببساطة ، لتتراكم على بقعة من الأرض وتوضح الحفائر وجود طبقات متعاقبة من نفايات المحلات ، وهى ذات كثافة متباينة ، وممتدة فوق مساحة المحلة كلها[1] .

وشملت هذه النفايات المادة العضوية وغيرها من مخلفات فخارية ، ومطاحن ومجارش ، وبقايا غذائية .

ويعمم « ممفرد » Mumford ، حديثه عن المدينة القديمة عموما دون الاشارة الى بلد بعينه ويشبه الوضع بالنسبة للتخلص من النفايات بها بما هو عليه الحال اليوم فى بعض مناطق أفريقيا من القائها فى الشوارع بلا نظام بحيث يرتفع مستوى الشارع عن مداخل المنازل[2] وان كان حديث« ممفورد » هذا عاما ويعبر عن فترة طويلة فى الزمن ، الا أن الدلائل توضح أنه بتعاقب المراحل الحضارية المصرية القديمة ، لحق الارتفاع بمستوى المنزل المصرى ففى خلال الأسرات الثلاثة الأولى نمت عمارة المقابر ، وأثر ذلك فى نمو عمارة المنزل فتعددت حجراته ، ولذا وجدت تجهيزات صحية فى بعض هذه المقابر ، وكيفية التخلص من النفايات والفضلات . وان كان

---

(1) Dixon, D.M., The disposal of certain personal, houshold and town waste in Ancient Egypt, in ucko, p.; & Tringham R., & Dimbleby, G., op. cit., p. 646.

(2) لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٤ .

البعض مثل Dixon ، وآخرين يروا ان الحاق هذه التسهيلات الصحية كان قاصرا على منازل الخاصة من طبقات المجتمع الذين وجدت بعض أنواع الحمامات لديهم مغطاة بطبقة لا تتأثر بالرذاذ كما وجدت مغاسله ومراحيض[١] .

أما المراحيض ، فرغم قلة الآثار من الدولتين القديمة والوسطى ، الا أنهما متوفرة من آثار الدولة الحديثة ، ومنهما أشكال عدة ، منها ما تمثل فى « تل العمارنة » بعضها يشبه ما وجد فى الدولة القديمة ، والآخر له فتحات دائرية ، وأخرى لها مقاعد ملساء ، ومائلة لتسهيل عملية تنظيفها ، وفى احد المنازل وجد فراغان ، واحد على كل جانب ومملوء بالرمل لتغطية الفضلات[٢] .

وبينما كان هناك مراحيض ثابتة ، وجد بعضها متنقلا كالدولاب الخشبى ، الذى عثر عليه فى دير المدينة وأحيانا على هيئة مقعد بدون مسند على شكل حدوة الحصان[٣] .

ويلاحظ أن المصرى القديم كان يقضى حاجته ليس فى وضع منحن ، ولكن جالسا ولذا كان المرحاض يتألف من جانبين منخفضين متوازيين وبينهما يوضع اناء فخارى نصف مملوء بالرمل ، والذى كان يزال ويفرغ عند الضرورة وكان المحتوى يعرض للشمس[٤] واذا كان هناك دلائل كثيرة تشير الى المراحيض ، فان الحمامات كانت نادرة فى ذلك المجال ، رغم وجود احد القاب الدولة القديمة يحمله صاحبه وهو « المشرف على غرفة استحمام الملك ، كذلك من قصة سنوحى المعاصر لسنوسرت الأول ، يستفاد أنه كان لديه حماما أو غرفة للاستحمام . وفى الدولة الحديثة ، استخدم فى الحمامات الواح من الحجر الجيرى ، لتغطية الجدران ، بينما فى منازل الأثرياء استخدم نوع من البلاط شبيه « بالقيشانى » وأن كانت كل هذه الآثار يتضح أنها لدى الاثرياء والجدير بالذكر ،

---

(١) Dixon, D. M., op. cit., pp. 647 - 48.

(٢) بول غليونجى وزينب الدواخلى : الحضارة الطبية فى مصر القديمة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤١ .

(٣) بول غليونجى وزينب الدواخلى : المرجع أعلاه ، ص ٤١ .

(٤) Dixon, D. M., op. cit., p. 674.

أن أحواض الاستحمام لم تكن مفضلة لدى المصريين القدماء[١] وكانت الأبنية الدينية مجهزة هى أيضـــا بالمرافق الصحية كالأبنية الدنيوية ، بل أنها كانت أوسع وأرحب وأفخم ، ومثال ذلك ما يوجد فى معبد دندره .

أما عن استخدام الميـــاه بالمنزل والمحـــلات فقد كشف عن بعض الأنابيب الفخـــارية فى منطقة « تانيس » وهى بدون قاع ، وقد أحكم تثبيت كل منها فى ـــ الآخر ، فى أرض المدينة ، ويرجح أنها كانت لميـــاه الشرب ، أو لتصريف الميـــاه القذرة ، وفى كلتى الحالتين فالأمر يدل على تطوير هائل آنذاك ، فى سبيل راحة السكان[٢] .

وهناك من الدلائل فى منطقة اللاهون (الدولة الوسطى) على أن ميـــاه المنـــازل كانت تمر خلال مجرور بوسط الطريق ، وفى أحد منازل « تل العمارنة » (الدولة الحديثة) وجدت الميـــاه تمر خـــلال اناء فخـــارى ، مثقوب وتصب فى وعاء خارج الحوائط[٣] أما عن النفايات المتخلفة عن الاستخدام اليومى والغـــذاء وما الى ذلك ، فنجـــد أن « ديكسون » يرى تشابهـــا فى طريقـــة التخلص منهـــا عند أصحاب الحضارات القديمة ، فيرى أنها كان يلقى بها الى النهر فى مصر كما كان يحـــدث لدى أهل اليونان القديم وفى روما . ويرى أيضا أن أكوام النفايات كانت تكوم فى الشوارع سواء بالقرية أو المدينـــة القديمـــة وكانت ممثلة لهما ، بمثل ما هى ممثلة لهما اليوم ، وفى بعض الحالات نجد أن الأبنية المهجورة من المدينة كانت تستخدم فى وضع النفايات والقمامة بها وأحيانا تحرق ، وسبب اختيـــار هذه الأبنيـــة المهجورة أنها كانت تتخلل الرقعة المبنية كثيرا بينمـــا كانت الأكوام الخاصـــة بالقمـــامة تقـــع بعيـــدا عن المنـــازل ، وطبقا لمبـــدأ الجهد الأقـــل Least effort principle فان السكان القريبين منها كانوا يستخدمونها فى القـــاء نفاياتهم بهـــا .

---

(١) بول غليونجى وزينب الدواخلى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ .

(٢) محمد انور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، مرجع سبق ذكره ، صفحات متعددة .

(٣) بول غليونجى وزينب الدواخلى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .

وتشير الدلائل المكتشف بواسطة « بترى » «Petri» فى كاهــون (وهى مدينة من الأسرة ١٢ أقيمت للعمــال العــاملين بالقــرب من هرم سيزرستريس الثانى فى اللاهون) الى أن المدينــة شغلت لفترة وجيزة ، ثم هجرت وحينما كانت مأهولة ، فان النفــايات كانت تكوم فى تلال خلف السور الشمالى للمدينة أو فى المبــانى المهجورة داخــل المدينة نفسها[١] .

كذلك أنه فى « العمــارنة » ، فى الصحراء نجــد أن مســـــاحة حوالى ٣ (فرلونج[٢]) Furrlong (الفرلونج ⅛ ميل) من مساحة القصر وحوله كانت مخصصة للاكوام من النفايات ، ويحتمل اختلاطها بأكوام الاجــزاء المجــاورة للمحلة وبعض الأكــوام كانت مساحتها ٦٠٠ × ٤٠٠ قدم وبعمق بين ١ — ٤ مترا .

أما فى « دير المدينة » غربى طيبة بالضفة المقابلة لها ، فانه انشىء بها فى الأسرة « ١٨ » محلة لاقامة العمــال المشتغلين فى بنــاء المقابر الملكية فى وادى الملوك ، ورغم أن هذه المحلة شغلت ٤٠٠ سنة ، فان سطحها لم يرتفع بفعل النفايات ، حينما كان يعــاد بنــاء المســاكن ، اذ كانت هذه تشيد على نفس الأساس ويعنى هذا أنه كان هناك ، بعض التنظيم فيما يختص بالبنــاء ، والتخطيط والتخلص من النفايات[٢] .

وأهتم المصريون بالنواحى الصحية البيئية ، ومن ذلك أن عملية التحنيط كانت لا تتم فى مبــان داخل الرقعة المبنية ، ولكن عند أطراف المدن ، وفى الغرب دائما قرب أماكن الدفن ، وكانت أماكن التحنيط مقار مؤقتة تفك بعد انتهاء العمليــة أو تنقل الى غيرها من الأماكن محافظة على الصحة العامــة[٣] .

---

(١) Petri, W.M.F., Kahun, Gurab, and Hawara, London, 1890, pp. 31 - 32.

(٢) Dixon, D. M., op. cit., p. 650.

(٣) بول غليونجى وزينب الدواخلى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .

وعموما فقد تطورت النواحي الصحية وتجهيزاتها في المبـاني المصرية مـع تطور الحضـارة المصرية ذاتها ، يدل على ذلك نجـاح اخناتون في تحسين الجهـاز الصحي لمنـازل مدينته فقد كان في منازلها ٤ أنـواع من المراحيض[1] ويدل ذلك على عنـاية المصريين بالنواحي الصحية لمنشآتهم المدنيـة .

(١) بول غليونجي : الطب عند قدماء المصريين ، في وزارة الثقافة والارشاد القومي ، تاريخ الحضارية المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول ، ٧ ، ص ٥٣٥ — ٥٣٧ .

الفصل العاشر

مجتمع المدينـــة المصرية القديمة

اذا كنا نتحدث اليوم عن بعض تقسيمات فى المدينة الحديثة اعتمادا على أسس مادية أو اجتماعية ، كالمناطق المتردية وسكانها Slumareas أو الموبوءة Blighted areas ، أو الطبقات الاجتماعيـــة وتصنيف السكان الاجتماعى مما يبرز قطاعا معينا من المدينة ذا خصائص معينة سواء من النواحى المكانية Spatial أو الاجتماعية Social ، مما يتضح فيما يعرف بالمناطق الاجتماعية من المدينة Social areas فانه يمكن أن نتصـــور بغير قليل من التعميم صـــورة مشابهة لذلك فى المدينة المصرية القديمة مع الاختلاف فى المعايير والأسس بطبيعة الحال .

وعموما ، فان اقامة السكان فى مدينة ما ، كانت تأخذ طابعا مكانيا خاصـــا معتمدا على أسس طبقية ، وهذه الطبقية جاءت بصورة خاصة معتمدة على أسس حرفيـــة .

ولفهم تلك الصورة فانه ينبغى أن ندرك ما ذهب اليه « لويس ممفورد » من أنه يتيسر لأول مرة أن يقضى الانسان حيـــاته بأكملها يقوم بعمل جزئى ، بمعنى أنه يقوم بجزء بسيط مما تحتاجه الاقامة فى مدينـــة وما يحتـــاج اليه الفرد من متطلبات وحتى فى مدن التنقيب والتعدين كان هناك أكثر من ٥٠ صـــفة ودرجـــة مختلفـــة للموظفين والعمـــال وحين زار هيردوت مصر فى القرن الخامس ق.م. كان تقسيم العمل قد بلغ الذروة ، فهو يسجل أن بعض الأطباء يختصون بالعيون ، وبعضهم بالرأس ، والاسنان ... الخ . ونشأ عن هذه المهن والطوائف هـــرم حضرى ذروته الحـــاكم المطلق ، وحوله فى القمـــة الكاهن ، والمحارب ، والكاتب ، ومن بعد ذلك تتسع الطبقات تدريجيا لتشمل التجـــار وأرباب الحـــرف والمزارعين والمـــلاحظين وخدم المنـــازل

والأرقاء ، وكانت الطبقات الدنيا تظل قابعة هكذا ، وعكست الملابس وأسلوب الحيـاة فى المدن الطبقة الاجتماعية التى تمثلها .

كذلك انعكس التركيب الطبقى فى طرز المبـانى التى مثلت غلاف طبقى على حـد تعبير ممفورد[1] ويدل على هـذه الطبقية ما أورده بترى من أن الحـاكم (على رأس التراتب الاجتمـاعى) كان يفسر القانون ويشرف على ما تحتـاجه المدينـة ، يعاونه الكاتب ، وقاضى القضـاة ، وقائد عسس المليـل ، اما الطبقـات الأدنى من العمـال والصناع فكان ممنوعا عليهم تغيير حرفهم[2] ، كذلك كان تزايد عدد أفراد طبقة معينة رهنا بالظروف الداخلية والخارجية ويدل على ذلك زيادة طبقة الموظفين زمن الدولة الحديثة .

وكان النظـام الطبقى فى المدينة يبدى بعض الأبعاد المتوارثة ، بمعنى ان المهن والحرف كانت فى أكثر الأحوال تورث . وبخاصة فى الوظائف الدينيـة التى كانت لطبقـة عليـا ومحاطة ببعض الأسرار المقدسة ، وتتطلب تدريبا دقيقا ، كما أنها كانت موضـع الاحترام فى مجتمع المدينة . كذلك كانت بعض وظائف دواوين الحكومة تستدعى اقامة المدارس فى هذه الدواوين لتخريج الموظفين[3] .

وكما ذكر فى موضوع اختلاف الاعراق والأجناس والجاليات فى المدن المصرية كانت بعض مجتمعات المدن تبدى خليطا غريبا من السكان متنافرين على أساس حرف ومهنى بمثل ما هم متنافرين على أساس عـرقى[4] .

وتجدر الاشارة الى ظهور نمط خاص من المدن المصرية القديمة ، ونعنى به المدن المستقلة ، ويبدو أن وجود جاليات أجنبية بين مجتمع

---

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦ — ١٨٧ .
(٢) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ — ٦١ .
(٣) فلندرز بترى : المرجع اعلاه ، ص ٢٢٢ .
(٤) راجع الموضوع فى الدراسة الخاصـة عن اختـلاف الاعراق والجاليات بالمدن المصرية .

المدينة كان شرطا لاعلانها مستقلة . وان ظهور هـذا النمط فى تاريخ متأخر زمن الأغريق ، وكان من المجتمعـات المدنية المستقلة فى مصر « ارسنوى » فى الفيوم ، بطوليماس وهى قرب المنشاة فى سوهاج ، « أنتينوى » وهى الشيخ عبـادة بالمنيـا ، وكذا اكرينكوس (البهنسا الحالية) وهيراكليوبوليس (اهناسيا المدينـة الحالية ببنى سويف) وكان لمعظمها دسـاتير ومجلس أعيان مستقلة عن بقيـة نظم الدولة لوجود الأجانب بها . ويذكر بترى أنه كان فى مدينة الفنتين (أسوان) فى العهد الفارسى جالية يهودية كبيرة وأشار الى عقد زواج بين يهودى ويهودية كما كان لهم عمله خاصة بهم هى « الشاقل »[1] مما جعـل مجتمع المدينة مختلطا ، وخاصة فى بعض عهود انشـاء الامبراطورية ، كما كان زمن تحوتمس الثالث بعد كثرة الجاليات والأمراء الذين جاءوا للاقامة فى مصر ليكونوا تحت تأثيرها الثقافى .

ويذكر « فخرى » أن الطبقية فى المجتمع الحضرى المصرى لاتبدو فى طبقـات المجتمـع فى مدن الاحيـاء فقط ، ولكن هنـاك ما يشير الى تكرارها فى مدن الأموات ، اذ أن مقـابر الفقراء كانت فى مناطق غير مقـابر الأغنيـاء والنبـلاء ، أمـا فى المنـاطق التى حفـرت ونحتت فى الصخور فى مصر الوسطى والصعيد فاننا نجد أن المقـابر العليـا كانت للنبـلاء والأغنيـاء ، أما مقابر الفقراء فعند السفح فى منسوب منخفض بالنسبة لمقـابر الحكام والنبـلاء ، ويبدو ذلك فى منـاطق دشاشة وزاوية الأموات (فى شرق المنيـا) وبنى حسن والبرشا وغيرها[2] . وكما يحدث فى العصر الحديث ، فان مجتمع المدينة المصرية القديمة قد تأثر بالتيـارات والأفكار التى كانت تضطرم فيه ، نتيجـة الاحتكاك الحضـارى التجـارى مع الأجانب القادمين من آسـيا وحوض البحـر المتوسط والجنوب ، ومن آثار ذلك فى مجتمع المدينـة أن المصريين بـدأوا يخففـون من غلواء تقاليدهم الدينيـة والاجتماعية وتسربت اليهم تقاليد البـلاد الأجنبية ، وبدأوا لا يزون

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥ — ١١٨ .

(٢) المرجع اعلاه ، ص ٢١٦ .

حرجا فى الزواج من أجنبيـات بعد أن تزوج تحوتمس الرابــع من امرأة من ميتانى (شمال العراق) وكان المعترك الذى انصهرت فيــه هذه التغيرات الحضرية هى المدن المصرية ، ومدينة طيبة على رأسها[١] .

وكانت حرف المدينة عرضة للتنوع والتطوير بالاحتكاك الخارجى ، وزادت طبقــة العمــال والصناع والجنود مواكبــة بذلك التوســع الامبراطورى واحتياجات هذا التوسع ، وكذلك زاد الطلب على طبقة الكتاب ، مما زاد من عــدد المدارس التى تخرجهم فى المدن وجعلها «بيئة بالنشاط ، ومما يؤكد طبقية مجتمع المدينة ما أورده« ويلسون » من أن اعداد جثة نبيــل للدفن استغرق ٧٠ يوما ، بينمــا دفنت امرأة من عامة الشعب فى نفس يوم وفاتها وكما كان هناك طبقية فى مدينة الأحيــاء ، كان هناك طبقية فى مدن الأموات[٢] .

ويعقد « ويلسون » مقارنة بين مجتمع المدينة الحديثة ومشكلاته وبين ما يقابل ذلك فى المدينة المصرية القديمة ، فيشير الى أنه فى سنة ١١٦٠ ق.م نجد أنه حدث فى طيبــة تزايد فى الأسعار ونتج عن ذلك ما نعبر عنــه اليوم بالتضخم واستمر ذلك فترة طويلة ، وأثر ذلك فى عمــارة وتركيب المدينــة ، فنهبت بعض المعــابد وخاصــة الذهب ، وصحب ذلك الوضع الاقتصادى المتردى ظهور أمراض اجتماعية بالمدينة متمثلة فى الرشوة وكانت الطبقــات الفقيرة هى الأكثر تأثرا بالمجاعات والتضخم . وكما نجد اليوم فى مدينة كالقــاهرة ، فان السكان فى عهد الأسرة « ٢٠ » من الفقراء والمعوزين ، سكنوا المقــابر فى المدن ، مما اعطى المدينة طابعا عمرانيا لم تعرفه من قبــل ، وتمثل ذلك فى البر الغربى من طيبة بصفة أساسية ، ولعــل أول اضراب فى العــالم كرد فعــل للتضخم ومشكلات المدينة هو ما حدث فى تلك الفترة[٣] وتبع ذلك كما تقدم ذكره انتشار الرشوة والتزوير بين الموظفين الموكل اليهم

(١) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١ — ١٨٢ .
(٢) ويلسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢٠٤ .
(٣) ويلسون : المرجع أعلاه . ص ٤٣٦ — ٤٤ .

جمع الضرائب ، أكثر من ذلك أن تفاقم الأحوال نتج عنه شيوع الجرائم كما نجد الجريمة اليوم علامة من علامات المدن يستوى ذلك فى بلدان العالم النامى أو المتطور .

ويلاحظ أن فى حالات الأزمات هذه كانت غارات البدو تشتد على المدن ويصبحوا من سكانها مما يزيد من مشكلاتها بعد أن يصبحوا قطاعا سكانيا أضافيا بين قاطنيها وتمثلت هذه العناصر المغيرة على المدن فى الربو Rebu أو المشوش الليبيين ، ويذكر ويلسون ، أنه قامت ثورات فى مدينة هابو وفى طيبة وخربت مدينة فى مصر الوسطى ، وكان من أهم جرائم ذلك الوقت نهب المقابر وساعد على ذلك تراخى الحكام ، وانتقالهم فى بعض شهور السنة للاقامة فى العاصمة الشمالية قرب الدلتا لشدة الحرارة وأهمالهم شئون الجنوب[1] .

والملاحظة الجديرة بالذكر هنا : ان التراتب الطبقى لم يواكبه فى أغلب الأحيان أبعاد مكانية Spatial بمعنى أن هذا التراتب كان على الوظائف والحرف ، وليس فى المكان وذلك بالنسبة لمدينة واحدة فقط تمثل حالة خاصة كما نعلم ، وهى مدينة « اخيتاتون » وذلك للتحرر من القيود القديمة ولذلك فكما مثلت اختلافا فى الأبعاد الحضرية الأخرى التى ذكرت سلفا فانها كانت مختلفة أيضا فيما يختص بالطبقة وخاصة من منظور مكانى ، اذ كان هناك ديمقراطية سكنية ، لم تعرفها المدينة فى بقعة أخرى ، اذ اختلطت بها بيوت الأشراف ، وكبار رجال الدولة والكهنة ، ورجال الجيش ، والتجار والفنانون والصناع أى طبقات المجتمع المختلفة ، حتى أنه كان يجاور الكاهن الأعلى صانع النعال ، ويجاور الوزير صانع الزجاج[2] .

هذه بالطبع كانت حالة خاصة ، وان لم يمنع هذا التراتب الحضرى والطبقى على نطاقيه الاجتماعى والمكانى ، لم يمنع المصرى

---

(١) ويلسون : المرجع السابق . ص ٤٤٦ .
(٢) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٨١ .

القديم من صغار الناس من الشعور بأنهم مثل العظماء فى أنهم جميعا رعايا فرعون الملك مثلهم مثل النبــلاء • وكانت الطبقية مرتبطة بالمهنة فى الغالب ، بمعنى أن البعض كان ممنوعا من احتراف مهن معينــة ، ومن ذلك شكوى أبداها بعض الأفراد من الطبقات العليــا ، عند قيام احدى الثورات ، كما جاءت فى مواعظ « أيبو — وير » من أن أبنــاء الطبقات السفلى اقتحموا معاقلهم ، ونكلوا بزوجاتهم وأكثر من ذلك انهم وضعوا أيديهم على المعرفة التى كانت محجوبة عنهم[١] •

ولم تكن الطبقية قائمة فقط على أساس حرفى ، لكنها كانت موجودة أيضــا على أساس عرقى ، فكما كانت بعض منــازل طيبيــة تقع فى منطقة يطلق عليهابيت البقرةThe House of the cowشمال معبد آمون الكبير فى الكرنك وغرب معبد مونتو Montuوسكن هذا الحى عمــال المقــابر وأصحاب الوظائف الثانوية ، فهذا مثال على الطبقية المكانية على أساس حرفى • وفى المقــابل نجد أنه فى ممفيس كان هناك أيضــا حيــا لعمــال المقــابر يتجمعون فيه ، وكان للجنود المرتزقة حيهــم الخــاص ، وللايونيين Ionians وغيرهم أحياؤهم الخاصــة ، وهذه طبقية على أســاس عرقى[٢] كذلك مما يدل على التنظيــم المكــانى للأحيــاء السكنية Residential quartors على أساس طبقى حرفى اجتماعى فى مدينة هابو أن هناك قائمة ، بها خمسة منــازل على رأس القائمة تخصص للرسميين وكبار الموظفين بما فيهم الحاكم ، وكذا هناك بعض المنــازل تخص ٣٢ كاهنا ذوى رتب متعددة ، و ٧ منــازل تخص رجــال الشرطة ، و ٣ تخص الحــراس و ٩ للبستانيين ، ٦ للزراع ، ١٢ للصيادين ، ١٦ للرعاة ، ٣ لمربى النحــل وغير هؤلاء مثل صــانعى الصنادل (الأحذية) وصناع الذهب والعــاملين فى تشكيله ، مع مراعاة أن هؤلاء جميعــا كانوا قائمين على خدمــة المعبد الرئيسى مما يعكس الارتبــاط بين المعبد والمدينة والمجتمع بها[٣] • وكانت الطبقات تبدو

---

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٨ — ١٧٩ .

(٢) Smith, H. S., op. cit., p. 708.

(٣) Kemp. B., J., op. cit., p. 658 - 65. & upwitt, op. cit., p. 728.

فى صورتها الصارخة أكثر فى مدن المزارات المقدسة والمدن ذات الصبغة الدينية اذ على رأس التراتب الاجتماعى نجد رجال الدين المميزين وفى ذيلة نجد عمـال المقـابر ومن اليهم ، وبينهما بعض أفراد المجتمع من رتب مختلفة ، وفى مثل هذه المدن كانت مسـاكنهم ترتب بحسب منزلتهم الاجتماعية[١] — تمثل ذلك فى المدن التى كانت بهسا معـابد طـائر الأبيس Apis المقـدس ولا سيما فى غرب ممفيس عند حافـة الصحراء ، وتجدر الاشارة الى أن بعض أصحاب الحرف الدنيا مثل مربى الخنازير لم يكن مسموحا لهم الاختـلاط بالسـكان وكان لهم أماكن خاصة من المدينة .

(١) Pay, J. D., The house of Osorapis, in ucko P., & Tringham, R., op. cit. pp. 699 - 704.

الفصل الحادى عشر

التركيب العرقى فى المدينة المصرية القديمة

أبانت المدينة المصرية القديمة منذ عهود باكرة ، عن بعض الاتجاهات الديموجرافية ، كان من أبرزها تميز بعض المدن بزيادة الاعراق الأجنبية الأخرى بالمدن المصرية • وكما نجد اليوم ، تركيزا ضمن نطاق جغرافية المدن على دراسة الاختلافات العرقية واللغوية وتعدد أعراق السكان وما الى ذلك مما يطلق عليه تعبير Ethnicity ، فقد كان الوضع فى بعض المدن المصرية القديمة متميزا بتعدد الأعراق واللغات ، وبدون شك اختلفت نسبة الدماء الأجنبية فى المدن المصرية ، باختلاف الظروف الداخلية والخارجية والعوامل التى مهدت أو أعاقت تواجدهم فى مصر كما سنرى فى السياق التالى :

وكان أحد أسباب تزايد الدماء الأجنبية فى مصر بعامة ومدنها بخاصة الحروب ، فقد عاد الملك « سنفرو » من ملوك الأسرة الرابعة من حملته على النوبة بسبعة آلاف أسير و ٢٠٠ر٠٠٠ رأس من الماشية والغنم ، كذا أسر عددا هائلا من بدو الصحراء الشرقية • ومن الثابت أنه فى عهد خوفو من ملوك نفس الأسرة كانت الاتصالات بين مصر والخارج نشطة وذلك منذ الأسرة الثانية ، ودل على ذلك وجود معبد مصرى وجالية مصرية فى ميناء جبيل مما يدل على توافد غير المصريين على مصر نظرا لهذا النشاط • كذلك كان يختار من النوبيين حراسا يسهرون على الأمن منذ الأسرة السادسة فى العاصمة (منف) وربما فى غيرها من المدن وكانت نقطة الصلة بين المصريين والنوبيين هى مدينة « الفنتين » وهى جزيرة أسوان[1] •

وقد لعب الموقع الجغرافى للمدن المصرية دورا هاما فى نوع الدماء

---

(١) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ — ١٠١ •

الأجنبية التى استقرت بهـا ، ويدل على ذلك تزايد الأعراق الآسيوية فى مدن شرق الدلتا ، والأعراق الليبية فى مدن غربها ، ونجد أن شاشنق الذى كون الأسرة ٢٢ كان مستقرا بعائلته فى اهناسيا بالفيوم ، ومثل ذلك يقـال عن مدن الجنوب كمدينة « الفنتين » وحتى طيبة وقد لعبت الجاليات الأجنبية فى المدن المصرية أحيـانا دورا فى مجريات الأمور السياسية والحربية ، ومن ذلك أنه فى عهد الاستعمار الفارسى ، اراد « دارا » أن يكثر من نسبة الفرس مقابل تغلغل اليونانيين فى مدن مصر ليجعل هناك توازنا ، وحفز ذلك رغبته فى حفر القنـاة الموصلة للبحر الأحمر ، وأثناء احتدام الصراع بين الجالية الفارسية واليونانية عملت الجاليـة اليهودية فى الخفـاء وكانت فى مدينـة الفنتين « مـؤازرة للمستعمر »[١] .

ومن الطبيعى أن تزداد نسـبة الدماء غير المصرية فى المدن التى أسسها المصريون فى بعض الأماكن مثل النوبة ، ويصعب أحيانا حساب نسبة الأعراق غير المصرية بالمدن المصرية ، ولكن فى بعض الحالات هناك اشارات موحية . وهناك أحدى البرديات من عهد الرعامسة توضح أن فرقة عسكرية فى الجيش المصرى تتألف من ١٩٠٠ مصرى ، ٥٢٠ من الشردانيين ، ١٦٠٠ من الكهك و ١٠٠ من الشوش ، ٨٨٠ من النوبيين . ويدل ذلك على ان المدن احتوت بين ظهرانيها على الكثير من السـكان غير المصريين ، اذا ما أخذنا فى الاعتبـار أن التركيب الداخلى للمدن المصرية الكبرى واستخدام الأرض بها كان يحوى فى كثير من الأحيان ثكنات كبيرة لاقامة الجنود ، وعمـل بعض غير المصريين أحيانا كمرتزقة فى الجيش المصرى مثل المزوى والنوبيين[٢] . وكما مثلت هذه الدماء الأجنبية قطاعا من سكان المدن ، كان لهم أيضـا مقـابر خاصة بهم ضمن مقابر المدينة مثل تلك التى تنتمى الى النوبيين والمزوى والآسيويين وغيرهم[٣] .

---

(١) المرجع السابق . ص ٤٣٤ — ٤٣٧ .
(٢) سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء العاشر ، مطبعة جامعـة القاهرة سنة ١٩٥٥ . ص ٤٣٢ — ٤٤٤ .
(٣) المرجع اعلاه . ص ١٠٤ — ١٠٥ .

ولما كانت مدن العواصم ذات جاذبيـة سياسية ، وعسكرية ، وثقافية ومع ازدهار العلاقات بين مصر وجيرانها ، فان كثيرا من امراء تلك البلاد الأجنبية جاءوا لينهلوا من مؤسسات مصر ، ومن المدن الهامة فى ذلك منف « ممفيس » وقد جلب هؤلاء الأمراء العديد من العبيد والجوارى وأصحاب التجارة وأقام هؤلاء بالتدريج أحيـاء خاصة لهم بالعاصمة[١] .

والجدير بالذكر ، أنه بالرغم من وجود العديد من الأجناس فى مدن مصر وخاصة الموانى فان المصريين ، كما يذكر « جونسون Johnson » لم يكونوا جالية كبيرة فى مدن الخارج ولا سيما « ببيلوس » فى لبنان لأنهم كانوا يخشون أن يدفنوا هناك .

ومن العوامل الجغرافية أيضا التى شجعت وفود الأجانب لمدن مصر ان مصر بالرغم من بعض فترات القحط ، كانت اكثر بلاد العالم القديم انتظاما فى انتاج الطعام ، مما شجع أهل الممالك الأخرى ، على الاندفاع اليها وقت المجاعات فى بلدانهم . وتدل المصادر المصرية على أنه كان بمصر جالية يهودية كبيرة فى القرن ١٣ ق.م. ويقول « جونسون » أن اليهود بنوا مخازن لفرعون وأسسوا مدنا مثل مدينة رمسيس وبيتوم Pithom [٢] ويرى « محمد رمزى » أن المدينة الأخيرة هى « التل الكبير الحالية » . وعلى ذلك فكانت صورة التركيب الديموجرافى فى المدن المصرية ، مرتبطة بما يحدث خارجها مما جعل المدينة أحيانا بها أكثر من حى للأجانب ، ومن دلائل علاقة التركيب العرقى بالاحداث الخارجية ، أنه حينما انتصر الأشوريون فى فلسطين بدأت سلسلة من الهجرات اليهودية الى مصر وشكل بعضهم مرتزقة فى الجيش المصرى وكان لليهود حى أو ما يمكن أن نطلق عليه بتعبير جغرافية المدن الحديثة « جيتو » فى مدينة « الفنتين » فى الجنوب وآخر فى أدفو . ودلت الدلائل على دوام اتصالهم بالمناطق الأصلية

---

(١) هيرودوت : مرجع سبق ذكره . ص ٢٣١ .

(٢) Johnson, p., op. cit., pp. 75 - 76.

التى وفدوا منها كذلك أنتشر اليهود كصناع وحرفيين وتجـار فى المدن المختلفة ، وكانت الجالية اليهودية فى عهد الرومان أكبر الجاليات فى المدن المصرية وأكبر تجمع لها خـارج فلسطين فى رأى « جونسون » •

مما سلف ذكره ، يبدو أثر الأجانب فى تنوع المنشط الاقتصادية وتنوع الأفكار وعظم تأثير المدن نتيجـة لتأثرها هى ذاتهـا بالوفود الأجنبى اليهـا مما كان له أثره فى اثراء الحضـارة عن طريق التـأثر والتأثير المتبادل ، وأثر ذلك فى تطور وظيفة المدينة المصرية القديمة • وفى الفترات التى وقعت فيها البلاد بين نفوذ أكثر من قوة أجنبية ، كما كان الحـال حين تكالب الغزو الأثيوبى والأشورى على مصر ، نجد ان التأثيرات الأجنبيـة والآشورية بدت فى مـدن شرق الدلتـا مثل « سايس » ، « وأتريب » • بينما كان النفوذ الأثيوبى باديا أكبر فى طيبة لقربها من بـلادهم ، مما يوضح أثر العوامل المكانيـة فى التأثيرات الأجنبية العرقيـة فى المدن المصرية •

وقـد ذهب بعض المؤلفين الى القول ، بان معظـم التطويرات الحضـارية فى مصر وكانت وافدة عليها منكرين بذلك الابداع والأصالة المصرية ، وكان تزايد الأجـانب فى مصر القديمة هو دافعهم على ذلك القول ، ومن ذلك ما ذكـره Baines & Malek عن استجلاب المصريين أساليبه لتطويرات الرى وتجفيف المستنقعات من الخـارج[1] وفى كثير من الحـالات ، كان هؤلاء الأجانب يخدمون فى قطـاع المعابد الدينية كخدم للفرعون وأحيـانا كثيرة قويت شوكتهم لكثرة أعدادهم ، وكان الاعتماد عليهم يتم بصورة انتخابيـة انتقائية بمعنى اختيـارهم من ذوى الحـرف (فى حـالة الاسرى) والصناعات والفنون ليتيسر لهم الاضافة فى مجالاتهم ، وفى عهد رمسيس الثالث كان عدد الاسرى كبيرا جدا ، لدرجة أنه ذهب لخدمة المعـابد وحدها ١١٣٫٤٣٣ أسيرا زمن حكمه ، وكان معظمهم من أهل المغرب والشام ، ويحدد بترى Petri

---

(١) Baines & Malek, op. cit., p. 16.

جملة عددهم بحوالى ربع مليون أسير ، مما طبع المدن المصرية بطابع اندماجى[1] .

وكان التخلص من نفوذ جماعة أجنبية ، يعنى فى ذلك الوقت تزايد نفوذ جماعة أخرى مناوئة لها فى المدن المصرية ، ظهر ذلك بعد تخلص ابسماتيك من نفوذ الأحباش فى الجنوب ، وكذا الاشوريين وعول أكثر على الاغريق المستقربين فى الدلتا ، واتخذ من مدينة دلتاوية عاصمة له (سايس) وتبع ذلك تزايد الاغريق كقطاع سكانى أجنبى له أهميته بالمدينة . وبدت العرقيـة بوضوح زمن ابسماتيك ، وكان الاغريق هم العنصر الغالب وخاصة فى الثغور ومدن الحاميـات وكانت أهمها فى عهده ثلاث هى عند « جزيرة فيلة » وجنودها مصريون « ودفنة » ، « وماريا » فى الشمال ، الأولى عند خليج السويس ، والثانية (مريوط) وكان جنودهما من الاغريق .

وفى أحوال معينة كانت اقامة عنصر سكانى بعينه فى احدى المدن يتم قسرا كما حدث زمن أمازيس ، حين نقـل الاغريق من دفنه الى منف ، وكذا حينما أجبر معظم الاغريق على الاقامة فى نوقراطيس[2] .

وحدث فى بعض الحـالات ، ان أصبح بعض هؤلاء الأجانب عن هويتهم الأجنبية صراحة حينما كانت تثقلهم واجبات الشعائر الدينية بما لا طاقة لهم به كما حدث بالنسبة لليبيين من سكان « ماريا وأبيس » كذلك حين رغبوا فى أكل لحم البقر . وأحيـانا كانت الأعراق الأجنبية تندمج اندماجا كبيرا حين توجد فى مجتمع منعزل ، كما حدث بالنسبة للامونيين وكانوا فى سيوه ، واندمجوا مع الأغريق الذين أقاموا معبد أمون هناك .

ومن الجدير بالذكر ، أنـه اذا كنـا قد ذكرنا هـذه المجموعات الأجنبية كأقليات فى المدن المصرية ، فانه كانت هناك أقليات مصرية فى داخل مجتمع المدينة ولكنها اعتبرت أقليات على أساس الحرفة التى

---

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٦٦ — ٦٨ .
(٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ٤٣ — ٤٨ .

كانت غير مقبولة لدى المصريين • ومن ذلك ان رعاة ومربى الخنازير كان محرما عليهم دخول أى معبد بالمدينة ، كما كانت العلاقات الاجتماعية معهم شبه منفصلة ، وترتب على ذلك اقامتهم فى أماكن معينة من المدينة[١] مما يوحى لنا بالمعازل الحديثة التى نعرفها فى المدينة الحديثة •

وعلى ذلك كان هناك ، نوع من التخصيص فى التوزيع الجغرافى للأجانب فكثر التحيو من الزنوج والحاميين ، والماجاى السودانيين والليبيين (التمحو فى المدن الجنوبية والغربية) ، واشتهر بعضها بأهميتها فى خدمة الشرطة مثل الماجاى السودانيين[٢] • أما المرتزقة فكانوا من أجناس متعددة ، وقد — كانت احياؤهم منتشرة فى المدن المصرية ، ابان الدولة الحديثة ، ولم يقتصر العنصر الأجنبى — اذا ما صنفناه بمعيار الوظيفة — على الجنود والشرطة ، اذ كان هناك العديد من الموظفين والتابعين من أصل أجنبى فى المدن المصرية وخاصة الكبرى منها فى مجالات السياسة والادارة وفى الفترات التى تزايد فيها النفوذ الأجنبى نستدل على وجود العناصر الأجنبية فى المدينة من الآثار الحضارية فيها ، فنجد زمن الهكسوس ، ان الحصون والمعسكرات أقيمت فى بعض مناطق شرق الدلتا على نمط غير مصرى[٣] •

واذا ما قارنا بين الجاليات الأجنبية فى المدن المصرية ، والجاليات المصرية فى المدن الأجنبية فاننا نجد ان العقيدة المصرية كانت لا تشجع المصرى على الاقامة فى الخارج كثيرا اذا ما أخذنا فى الاعتبار ما يختص بالحياة الثانية وطقوسها المعقدة وضرورة دفنه فى مكان معين من مصر ، كل ذلك كان يدفع المصريين الى الخوف من الموت خارجها ، وبالتالى تقليل فترة الاقامة حتى اذا تواجد فى خارج مصر ، ويدل على عدم التوازن بين الجاليات الأجنبية فى مصر ، والمصرية خارجها ، ان المصريين كان لهم جاليات فى الشلال الرابع ، وجبيل فى فينيقيا « وبيسان » فى فلسطين منذ عصر مبكر قبل سنة ١٤٠٠ ق•م•

---

(١) المرجع السابق . ص ٩٤ ، ص ١٤٤ — ١٤٦ .
(٢) ولسون : مرجع سابق . ص ٢٣٤ .
(٣) المرجع اعلاه . ص ٢٣٤ — ٢٣٨ .

وجاءوا بأسرى وجاليات من هذه المناطق مما كان لها تأثيرها فى المدن المصرية ، وفى المقـــابل اشـــتد الطلب على بعض المهن المصرية كطلب الأطبـــاء المصريين فى آسيا الصغرى وفارس مما جعل المدن المصرية معبرا للثقافات(١) .

ويؤكد سميث « Smith » على أنـــه كان للجنود المرتزقـــة من الايونيين Ionians وغيرهم أحياؤهم الخاصـــة فى ممفيس ، منذ القرن السابع ق.م بينما كان هنـــاك جيب يهودى فى « الفانتين » فى القرن الخامس حتى الرابع ق.م. كما تؤكد ذلك بردية آرامية(٢) وفى الفترة البطلمية كانت هناك أحياء وطنية « مصرية » فى المدن البطلمية كانت بها ، ويرى أنه فى المدن المصرية ، اتجه اليونان الى التجمع بجوار بعضهم البعض . هـــذا بالطبع بخـــلاف المدن التى كانت أغريقيـــة خالصة ــ لدرجة ان ــ الاسكندر حين قدم لمصر وجد بها مدينة أغريقية قديمة هى « نقراطيس » كانت بمثابة دولة اغريقية خالصة فى داخل الدولة المصرية ، وهى قد تأسست ابان الأسرة ٢٦ من عهد الأسرات(٣) .

---

(١) المرجع السابق . ص ٤٩٦ ــ ٤٩٧ .

(٢) Smith, H.S. Society and settelement in Ancient Egypt, in ucko, P.; Trangham, & Dimelby, eds. op. cit., pp. 908 - 9.

(٣) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الثانى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ . ص ٢٩٦ .

الفصل الثانى عشر

تباعد المدن فى مصر القديمة

تعتبر محاولة اعادة رسم خريطة الشبكة العمرانية فى مصر القديمة مهمة على قدر كبير من الصعوبة ، ومع ذلك فانه من الممكن التثبت من مواضع قدر كبير من المدن الاقليمية وعواصم النومات أو المقاطعات وعلى ذلك ، يمكن دراسة التباعد بصورة أفضل اذا ما اتخذنا المدن الاقليمية وعواصم المقاطعات مثالا لذلك ، وهى أفضل من المدن التى تليها فى الحجم مثل العواصم والمدن المقدسة ومدن المعابد والمزارات الدينية لان هذه لم يكن يحكم تباعدها عوامل جغرافية ومكانية بحتة بل أضيف اليها عوامل دينية وشخصية (كما فى حالة اخيتاتون) ، كذلك هى أفضل من المستوى الادنى من الحجم لان هذا المستوى يصعب التعرف عليه ، وغالبا كان أقرب الى المحلات الريفية منه الى المدنية .

وفى دراسة التباعد ، لن نقصر اهتمامنا على المسافة بل سنأخذ فى الاعتبار العوامل الجغرافية والاقتصادية والوظيفية التى كانت تؤثر فى تباعد المدن الاقليمية فى مصر القديمة ، وهنا يجب أن نتذكر أن المدينة المصرية القديمة كانت دائما مسكونة بقطاع سكانى زراعى عريض تبعا لنشأتها فى بيئة زراعية فيضية ، بل كانت الزراعة دافعا الى « ثورة حضرية » فى رأى البعض مثل « جوردون تشايلد » .

وكانت نشأة عاصمة المقاطعة ونموها مرتبطة بالأحوال الاقتصادية فى المقاطعة واستقرار الأمن ، وعموما كانت العاصمة أهم من سواها من محلات المقاطعة ، وروعى فى حجم المقاطعة أن يكون حاويا لعدد كبير نوعا من السكان ، وروعى التوازن بين حجم السكان وموضع العاصمة بحيث يكون ممكنا لسكان أقصى الضياع القدوم الى السوق فى العاصمة والعودة فى مدى نهار واحد[1] .

---

(١) ايتين دريوتون ، جاك فانوييه : مصر ، مرجع سبق ذكره ص ٤٤ .

ويرى « ممفورد »[١] اعتمادا على بترى أن العواصم الباكرة لمديريات الوجه البحرى ، وكذلك المدن الباكرة فى بلاد ما بين النهرين ، كانت تبعد احداها عن الأخرى فى المتوسط بمقدار ٢٠ ميلا تقريبا (٣٣ كيلو مترا) وأحيانا أقل من ذلك ، ويرى ممفورد أن ذلك التراتب الحضرى ، والتباعد يرجع أساسا الى الحاجة الى مركز رئيسى لتخزين الحبوب ، بحيث يتسنى الوصول اليه بسهولة . وما دام التجار يدفعون دائما ثمن مشترياتهم حبوبا فلابد من أن يكون التخزين قد أدى الى مضاعفة عدد مراكز الأسواق التى كانت تظللها رعاية إله رفيع القدر من الآلهة المحلية ، كذلك يرى أن التقارب أى قلة تباعد بعض هذه المدن المبكرة يدل على أنه فى وقت انشائها كانت تسود حالة من الأمن والسلام .

ويؤكد « وهيبة » على العلاقة بين القرب من النيل ، وخصب التربة وامكانية الحياة والاستقرار على هذه الموارد المتاحة ، وبين تباعد المحلات ، اذ بعيدا عن النيل ، حيث تقل المياه المتاحة وبالتالى التربة الخصبة وامكانية الزراعة ، تزيد المسافة وتتباعد المحلات[٢] . واذا أخذنا فى الاعتبار وظيفة العاصمة الاقليمية كمكان للسوق ، فان الزمن الذى يستغرقه الانتقال الى مكان السوق كان يقدر باليوم فى النيل والقنوات ، أو بسير الانسان ، أو بالمدة المقطوعة على ظهور الدواب[٣] وأحيانا كانت المسافة لا توحى بالزمن المقطوع وتساويه بتساوى المسافة ، من ذلك ، أن المسافة بين حصن ومركز كرمة التجارى فى الجنوب حتى الجندل الثانى شمالا كانت تستغرق ٦ أيام على ظهور الحمير ، ومن كرمة الى الجندل الرابع جنوبا يومين على ظهور الحمير أيضا ، ومع تقارب المسافة فى الحالتين ، فان الاختلاف فى الزمن يرجع لعوامل جغرافية تتعلق بمورفولوجية المكان الذى يبين عن وعورة ملحوظة

---

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٣١ — ٣٤ .

(٢) عبد الفتاح محمد وهيبه : مصر والعالم القديم ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ . ص ٣٤١ .

(٣) ولنسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢٣٥ .

— فى حالة الزمن الأطول[1] ، وان كان المثال المتقـدم ذكره ينسحب على مدن الحصون وليس على المدن الاقليمية .

ويربط « بترى » بين تباعد المدن المصرية القديمة ، وبين توافر الفـائض من الحبوب الذى أدى الى تواجد أسـباب القوة ، وظهور « حكومات المدن » كذلك بين توفر الفائض وتبـاعد المدن فى الدلتا ، مقارنا ببلاد ما بين النهرين ويرى أن ذلك التباعد كان متوسطه ٢١ ميلا فى بلاد ما بين النهرين ، مما جعل المخازن الرئيسية للحنطة توجـد فى دوائر لا تزيد أنصاف أقطارها على ١٠ أميـال ، وهى أطول مسـافة اقتصـادية لنقل المحاصـيل مما انعكس على وظيفة مدن وحـواضر المقاطعات وأهميتها لمخازن الغلال[2] وكان الملك يحول جزءا من فائض الحبوب من أجل بناء المدن ، حيث تبنى فيها الصوامع[3] للحفاظ على الحبوب وكانت معظم هذه الصوامع تبنى فى عواصم المقاطعات والتى كان لابد أن تتباعد على مسافات مناسبة لحفظ وتخزين هذه الحبوب .

ويشير «O'connor» الى تقارب المسافات بين عواصم النومات فى مصر القديمة فى عهد الأسرات ، غير أنه يربط بين هذا التباعد وخصب التربة واتسـاع السهل الفيضى فمثـلا يلاحظ أنه فى المنطقة الكثيفة السكان جدا فى شمال طيبة ، نلاحظ أن تبـاعد عواصم النومات يقل وتتقارب من بعضها البعض ، ويكون تباعدها عموما بصورة منتظمة عن بعضها البعض[4] ، وان شذ عن ذلك موضع مدينة فقط Gebtyu لأسباب سبقت الاشارة اليها وأهمها أسـباب خاصة بسهولة الاتصال بمنطقة البحر الأحمر واستغلال الخامات هناك وبسـهولة الوصول عن طريق الوديان التى تشق الصحراء الشرقيـة[5] ويربط «Kees» بين تقارب

(١) المرجع اعلاه ، ص ٢٣٥ .
(٢) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩ .
(٣) Jones, E. & Zandt, E., op. cit. p. 25.
(٤) O'connor, D. op. cit., pp. 688 - 89.
(٥) راجع موضوع الموضع والموقع .

المدن وقلة تباعدها فى مصر فى بعض الأماكن والأهمية الاستراتيجية للمكان[1] .

ويرى بوتزر «Butzer» أن المراكز العمرانية ذات الصبغة الزراعية لابد أنها كانت متساوية التباعد على طول مجرى النيل ، وكلما زاد عرض السهل الفيضى ، كلما زادت مساحة الظهير المستغل فى انشاء محلات عمرانية تابعة Satelite settlements ، مما يقلل بالضرورة التباعد بين المحلات ويجعلها أكثر تقاربا[2] .

وتجدر الاشارة فى ختام موضوع التباعد الى أن نمط ذلك التباعد فى الوادى على وجه الخصوص يأخذ اتجاها مناقضا بعض الشىء له فى الدلتا (وهو نفس ما تبديه محلات العمران الحديثة حاليا فى الوادى والدلتا) ونتج ذلك التناقض عن الشكل الطولى للوادى على عكس الدلتا الذى من شأنه أن يزيد التباعد ، كذلك فان امكانية فهم التباعد فى ظل بعض أبعاد نظرية المكان المركزى Contral place theory وذلك فى مصر القديمة فيه صعوبة شديدة ، وذلك لغياب عديد من المراكز العمرانية الدنيا ، كذلك ما ذكرناه عن الشكل الخطى للوادى جعل Butzer يقول ان الشكل السداسى اللصيق بالنظرية ، غير ملائم فى حالة العمران المصرى[3] وأيد الملاحظات السابقة أيضا Dacey اعتمادا على أن اقليم المدينة والمناطق المخدومة بالمكان المركزى ليس دائما موحدا uniform ولكنه فى عديد من الحالات عشوائى random لا سيما فى حالة المدن النهرية[4] والتى عادة ما يزيد التباعد بينها اذا كانت فى منطقة ضيقة محصورة كما هو الحال فى وادى النيل .

---

(١) Kees, H., Ancient Egypt: A cultural Topography, London, 1961, pp. 99 - 100.

(٢) Butzer, K., 1976, op. cit., p. 101.

(٣) Ibid., pp. 71 - 82.

(٤) Dacey, M.F., the spacing of river towns, A.A.A., G., Vol. 50, 1960, in Carter, H. op. cit., p. 115.

الفصل الثالث عشر

اقليم المدينة المصرية القديمة

اذا جاز لنا استعارة هـذا المفهوم الحديث وتطبيقه على المدن المصرية القديمة ، فاننا سوف نجد أن المدن المصرية القديمة ، شأنهـا فى ذلك شأن المدن المصرية الحديثة ، وغيرها من المدن فى العالم كانت تبدى نظاما هيراركيا « تراتبيا » طبقا للوظائف التى كانت تضطلع بها ، وكون تلك الوظائف مركزية أو غير مركزية •

وبطبيعة الحال ، فان المـدن الكبرى ذات الوظائف السـياسية كالعواصم والمدن الدينية المقدسة ، كانت ذات نفوذ طاغ وكان مجال نفوذها يطوق البلاد كلها فى بعض الأحيان • والى جانب تلك ، نشأت مدن اقليمية كان أهمهـا كما سـبق عواصم النومات والتى كان يمكن اعتبارها مدن أسواق Market towns يأتى اليها سكان النوم للتسوق بحيث روعى فى مواضعها أن تغطى منطقة أو أقليما يمكن الوصول من أقصى جزء منه الى موضع السوق فى مدى نهار واحد ، باحدى طرق المواصلات المتاحة آنذاك ، وهى اما راجلا ، أو بالدواب ، أو المواصلات النيليـة •

ويرى « بترى » أنه كان يستحيل على مدينة بذاتها أن تفرض نفوذها على كل البلاد وتوحد كافة المقاطعات ، وذلك بسبب أن المـادة المستخدمة آنذاك فى التعامل هى الحنطة ، وعدم استطاعة نقل الحنطة لدفع الأجور فى المناطق المترامية البعيدة[1] وفى عهد الأسرات الأولى كانت السلع تنقل محليـا فى دائرة محدودة من قرية الى أخرى دون ترخيص من الملك ، وأكثرها ينقل على صفحة النيل ، مما زاد من منطقة نفوذ المدن النيلية ، ويرجح « ولسون » أن هـذه التجارة أو الحركة التجارية ربما كان يدفع عنها ثمن للملك أو الحكومة[2] •

---

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره • ص ٣٠ •

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره • ص ١٥٤ •

وكان من البديهى أن تختلف أشـكال ومناطق نفوذ المدن تبعـا للأشكال الحضرية ، والوظائف الخاصة التى تحكم فيها أساسا الصفوة من المجتمع ، ولذا كانت المدينة المصرية منبعا ليس للسلع والخدمات ولكن أيضا للأفكار ، مما ساعد على اقامة أول أشكال التنظيم المكانى Spatial organization . فى مصر حيث كانت المحـلات والقرى أساسا مفتـوحة open village مما سـاعد على انتشـار السلع والخدمات والأفكار على طول النيل على عكس مدن العراق القديم(١) وذلك أدى الى وجود بعض صـور أقاليم المدن فى مصر على خـلاف العراق . وبالاضافة الى اتساع مجال نفوذ المدن الكبرى كالعواصم كان أيضا مجال نفوذ مدن المعابد كبيرا ، اذ كان يفد الى مثل تلك المدن سكان المناطق المجاورة ، ليس من الريف فقط بل أيضا من مدن أخرى مما أوجد نوعا من التداخل فى أقاليم المدن مما نراه اليوم ، وكان لكل مقاطعة الاهها ، ولكن من الملفت للنظر ، أنه فى كثير من المحلات ، نجد أن المعبد الرئيسى فى عاصمة « النوم » يخصص لاله يختلف عن الاله الرسمى للنوم ، وهيأ ذلك الوضع المجال للعلاقات والحركة بين المدن لزيارة معابد الآلهة(٢) وليس أدل على اتساع نفوذ وأقاليم بعض مدن مصر القديمـة من أن « بيكى » قد ذكر أنه فى مدينـة « بوباسطة » (تل بسطه) وهى قرب الزقازيق الحالية ، والتى كانت طوال التاريخ المصرى القديم مدينة هامة ، كان يفد اليها للزيارة والحج والمنـاسبات الدينية حوالى ٧٠٠٫٠٠٠ شخص(٣) ، وهو رقم كبير للغاية ان دل على شىء فعلى اتسـاع اقليم ومجال نفوذ هـذه المدينة ، اذا علمنـا أن « ممفورد » يقدر عدد سكان مصر كلها بعد الأسرة السادسة بحوالى ٣ (ثلاثة ملايين نسمة)(٤) وفى مصر ، فان البعض يرى ، ومنهم على سبيل المثـال « ممفورد » أن وجود شعب قانع بحياته وراض بحكم

---

(١) Rugg, D. S., Spatial foundation of urbanism, dubuque, Iowa, 1979, pp. 29 - 33.

(٢) Mc' Evedy, colin, & Sarah, The Atlas of world history from the beginning to Alexander the great, London, 1970, p. 22.

(٣) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٥٣ — ٥٦ .

(٤) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥١ .

فرعون ، ووجوده اله محلى ، وسوق قريب ، قد جعل من الفلاح المصرى (فى القرية) وساكن المدينة الصغيرة ، غير راغب فى التردد على المراكز الحضرية الكبرى أو العاصمة ، حيث الحكومة المركزية ، وهذا صحيح عموما ، ولكنه فى نفس الوقت لابد وأن يؤخذ بحذر اذ ما علمنا أن بعض المدن كانت تجتذب قادمين من كافة أنحاء مصر كما هو الحال فى المثال المتقدم الخاص بمدينة تل بسطة • ومثلها كانت مدن أخرى مثل هليوبوليس ، وتانيس ، وبوتو ، وابيدوس ، وطيبة •

ولعله من المهم أن نشير الى أن اقليم المدينة المصرية القديمة — وكما هو الحال فى المدينة المصرية الحديثة — لابد وأنه كان يغلب عليه الشكل الدائرى المتسع فى حالة مدن الدلتا التى كانت أسبق تقدما وكان يغلب عليه الشكل الشريطى المستطيل فى حالة المدن الواقعة فى الوادى • وعضد من ذلك الشكل أن معظم المدن كان تتخذ لها مواضع نهرية • ذلك أن المدن فى ذلك الوقت كانت تكتسب أهمية كبرى ، ومن ثم اتساعا فى اقليمها من اتساع ظهيرها الزراعى ، وعلى ذلك كانت هيلوبوليس أثناء الاتحاد الأول مركزا للحياة الزاهرة ذات اقليم متسع ، عضد من ذلك كثرة الحبوب من الحقول المحيطة بها ، ومن غيرها والتى تدفقت على العاصمة ، ولا سيما بعد اختراع المحراث بعد أن كانوا لا يعرفون سوى الفأس الخشبى البطىء ولذا فان المحراث كأول اختراع « ميكانيكى » ضاعف من مساحة المزارع مما جعل هليوبوليس تجنى ثمار ذلك ثروة زراعية واتساعا فى اقليمها[١] وكما سبق الذكر كانت الحبوب تحل محل العملة فى التبادل والعلاقات ومقياسا للاهمية والحالة الاقتصادية ، بمثل ما هو عليه الحال اليوم فى بعض العملات الهامة والمعادن النفيسة كالذهب • وكان الفائض أحد أسباب اتساع اقليم المدينة مما أوجد نظاما اقتصاديا حضريا مختلفا عما كان سائدا من قبل فى حالة النظام القروى أو القبلى •

وقد عضد من اتساع أقاليم مدن الدلتا عن مدن الصعيد ، أن الأولى كانت أسبق فى التجارة كما دلت على ذلك الآثار والنقوش

---

(١) برستد : مرجع سبق ذكره • صفحات متعددة •

المتمثلة فى السفن والقوارب وأيضا عضد من ذلك كثرة المجارى المائية فى الدلتا وقد علمنا أهمية الموضع النهرى أو المائى فى الاتصال فى ذلك العهد ، مما جعل مدن الدلتا تحظى بقصب السبق فى ذلك المجال ، وليس أدل على التشابه بين أهمية نفوذ بعض المدن القديمة ، كما هو الحال فى المدن الحديثة ، ما شاهدناه من أن نفوذ بعض مدن مصر وصل الى خارجها متمثلا فى السلع ، والأفكار والمعتقدات مما أوجد نفوذا مصريا فى المدن الأجنبية ، سواء فى الجانب المادى أو الروحى •

وكما هو الحال اليوم ، فان المدن الأكثر نفوذا كانت ذات أثر واضح وخاصة فى أوقات الازدهار فى ابتداع الأساليب والطرق الفنية والأفكار ، ومنها كانت تجد سبيلها الى عواصم الأقاليم ، فى سهولة • وان كان لذلك آثاره السلبية اذ لم تنجح المدن الاقليمية فى أن تكون لها خصائص مميزة فى الفنون المختلفة[١] •

---

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧ ،

الباب الثالث

العاصمة المصرية القديمة وتغير مواقعها

الفصل الرابـــع عشر : العواصم الباكرة منذ فجر التاريخ وحتى قيام طيبة كعاصمة قومية .

الفصل الخامس عشر : العاصمة المصرية منذ اتخـــاذ طيبـــة كعاصمة وحتى نهاية عصر الأسرات .

الفصل الرابع عشر

المواصم الباكرة منذ فجر التاريخ وحتى قيام طيبة كعاصمة قومية لأول مرة

العاصمة المصرية القديمة وتغير مواقعها :

يعتبر هذا الموضوع أحـد موضوعات جغرافية العمران المصرى القديم الهامة ، فكلما تغيرت العاصمة مكانا spatial تغيرت زمانا chronological وتتبع العاصمة المصرية منذ عهود ما قبـل التاريخ ملىء بالاشارات الجغرافية الهامة التى لم تسلط عليه أضـواء البحث حتى الآن ، كذلك نلاحظ أن غياب الأدلة المادية للعـاصمة المصرية القديمة كما هو الحال فى شـأن بقية المدن والمحلات العمرانية ، جعل بعض الباحثين يجنح الى التعميم حيث توجد آثار ومعلومات وافرة نسبيا ، كما هو الحال بشـأن العمـارنة عاصمة اخنـاتون وفى ذلك خطـأ كبير .

على أية حال ، فاننـا سوف نحاول تتبع رحلة العاصمة المصرية القديمة منذ أقدم العصور ، للوقوف على أهم التضمينات الجغرافية التى لصقت بكل عاصمة والأسـباب الجغرافية وغير الجغرافية التى كانت وراء تغير العاصمة زمانا ومكانا .

المواصم الباكرة منذ فجر التاريخ وحتى قيام طيبة كعاصمة فى الأسرة الحادية عشر :

فى فجر التـاريخ ، كانت مصر مقسمة الى مقـاطعات مستقلة ، وبعدها أصبح للوجه البحرى مقاطعاته ، وللقبلى مقاطعاته ، وكان فى الوجـه البحرى مملكتين ، احداهما عاصمتها فى المغرب (بحدت قرب دمنهور) والأخرى فى الشرق (بوصير قرب سـمنود) ثم اندمجت المملكتان فى مملكة واحدة عاصمتها بحدت والهها حورس .

وفى ذات الوقت ، اتحدت مقساطعات الوجه القبلى ، فى مملكة واحدة عاصمتها (نقادة) الحالية قرب قفط ، والهها (ست) .

وغزت مملكة الشمال ، مملكة الجنوب ، وتوحدتا فى مملكة واحدة عاصمتها (بوصير) ثم أعقب ذلك ثورة الجنوب على الشمال ، ولكن هزم الشمال الجنوب ، وتوحــدت المملكتان ثانية فى مملكة واحـــدة عاصمتها قرب هليوبوليس حتى تكون متوسطة بين الشمال والجنوب . وهكذا برز العامل الجغرافى الخاص بمركزية العاصمة وتوسطها منـــذ هذا الوقت الباكر فى تاريخ مصر . وضعفت الدولة بعد ذلك ، فانفصل الشـــمال تحت زعامة « بوتو » كعاصمة ، والجنوب تحت زعامة نخن (الكوم الأحمر) كعاصمة[1] . وهكذا أصبحت مصر بعد ذلك مقسمة بين هاتين المملكتين ، حتى توحــدتا فى بداية الأسرات تحت زعامـــة « هليوبوليس » التى كان لهـــا اشعاعها الثقافى والدينى ، فضـــلا عن الزعامة الســـياسية بكونها عاصمة ، فكانت بالاضافة الى كونها مدينة أولى primate city ، مركزا لعبادة اله الشمس فى مصر ، وكانت مقر جامعة الكهنة الذين أتوا من جميع أنحاء مصر ، فعبر ذلك عن مجال نفوذها الثقافى والدينى ، خاصة وأنه كان لها نظام خاص بعبادة آلهة الشمس يعرف بالتاسوع ويشمل ٩ آلهة كلها متفرعة عن الاله « رع » . ومما يدل على أهمية هليوبوليس ، أنها بعد تحول العاصمة منها الى غيرها ، لم تفقـــد أهميتها بسبب وظائفها الأخـــرى غير الســـياسية والادارية . حتى بعد عديد من السنين ، وحين ظهرت طيبة كمنافس سياسى ودينى (أمون) لهليوبوليس ، لم تفقد الأخيرة أهميتها ، لأن الاله آمون كان عليه أن يستجيب لرغبات اله هليوبوليس ، وأن يقرن اسمه باله هليوبوليس « رع » تحت اسم « آمون رع » قبل أن يفرض نفسه على المجتمع المصرى . وهذا يعطينا فكرة عن بقاء أهمية بعض عواصم مصر القديمة بالرغم من زوال أهميتها كعاصمة وأفول نجمهـــا اداريا . وظلت هليوبوليس طوال الحكم المصرى القديم مدينة عظيمة ، ويعطينا هذا اشارة هامة للعلاقة بين المدينة والمعبد فى مصر القديمة .

---

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ — ٣٩ .

اذ كان للمعابد أهميتها وممتلكاتها الاقتصادية ، ومواردها التى لم تكن بالضرورة قريبة من المدينة التى بهـا المعبد الذى يمتلكها ، بل انه فى بعض الحالات كانت ممتلكات المعابد تبعد عنها ٢٠٠ ميلا ، بل ان المعابد فى المدن كان لها سفنها الخاصة التى تصل ليس الى موان مصرية فقط ولكن لموان أجنبية[١] وجذب نفوذ هليوبوليس قادمين ليس فقط من مصر ، ولكن من أنحاء العالم فى ذلك الوقت ، على الصورة التى نجدها فى مجال نفوذ الجامعات الحديثة رفيعة المستوى التى يفد اليها طلاب العلم منجذبين الى مجال نفوذها الثقافى ، وقد قضى أفلاطون ١٣ عاما يتلقى بها العلم كما ذكر هيردوت[٢] .

واذا ما حاولنا اليوم أن نعيد رسم صورة هذه العاصمة الباكرة بالطريقة التى نعرفها اليوم فى مدن العالم الكبرى برسم خط السماء الخاص بها ، فانه لابد وأن هذا الخط كان يبدو عاكسا لذرى معابدها الضخمة ومسلاتها ومبانيها الثقافيـة والدينية التى عكست وظائفها ، ولم تكن لهليوبوليس أهميتها الدينية والثقافية التقليدية فحسب ، بلْ كانت تستقبلْ تجارة آسيا عبر برزخ السويس[٣] .

ويرجع تاريخ العـاصمة هليوبوليس الى حوالى ٤٢٤٠ ق.م ، وينظر لها على أنها رمز الوحدة ، ومن أسمائها الأخرى « أون » وقد ظلت عاصمة فترة طويلة رغم اختفاء أهميتها كعاصمة كما سبق ذكره بفضل وظائفها الأخرى يدل على ذلك الاضافات العمرانية التى أضيفت الى رقعتها المبنية عبر التاريخ .

وبعـد هليوبوليس ، جاءت عاصمة فى موقع منف ، أطلق عليها « القلعة البيضـاء » ، أو الحائط الأبيض ، وعموما فان منف عرفت

---

(١) Kemp, J., op. cit , pp. 657 - 59.

(٢) جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيـل ، مرجع سبق ذكره . ص ١٥٢ .

(٣) محمد السيد غـلاب ، يسرى الجوهرى : جغرافيـة الحضر ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، بدون تاريخ . ص ٤٠٨ — ١٠ .

بهذا الاسم منذ الأسرة السادسة ، وينسب بناؤها الى «مينا» عند رأس الدلتـــا[١] .

وعموما فانه بعد الأسرة الثانية ، حيث كانت العاصمة هليوبوليس ونازعتهـــا الأهمية أحيـــانا « ثنى » فى الجنوب قرر الملك « زوسر » (الأسرة ٣) نقل العاصمة بصفة نهائية الى الموضع الذى عرف باسم « منف » بعد ذلك ، حتى يرضى أهل الجنوب ، الذين قيل أنهم كانوا غير راضين عن موضع هليوبوليس (وربما كان ذلك لوجود هليوبوليس فى شـــمال رأس الدلتا على الضفة الشرقية للنيـــل ، بينما كان الثقل السكانى فى الوادى على الضفة الغربية للوادى ولذا كان اختيار موضع منف قريبا من رأس الدلتـــا ولكن أقرب الى الجنوب من ناحية ، وفى نفس الضفة التى بهـــا المجتمعات السكانية وهى الضفة الغربية) . وعرفت منف بهذا الاسم فى الأسرة ٦ كما سبق الذكر ، حين شيد فيها الملك (ببيى ـــ من نفر) حيـــا أطلقوا اسمه عليه ، ومع مرور الزمن أصبح اسم الحى ، يطلق على اسم المدينة كلها ، وان أصبح اســـمها اليونانى بعد ذلك ممفيس ، والعربى منف[٢] .

وكانت العاصمة منف التى أختير موضعها بعناية ، وأضاف مينـــا الى أهمية الموضع تدعيما لوظيفة المدينة الدفاعية والتجارية ، وكانت لها مركزية طاغية على مصر ، فلم تكن منطقة نفوذها تشمل الدلتا فقط كما كان الحال فى « بوتو » أو معظـــم الوادى ، كما كان الحـــال فى « نخن » بل كان اختيار الموضع عند رأس الدلتا دالا على الفهم العميق من قبل فراعنة مصر لمزايا الموضع هنـــا بالذات لتحقيق ربط الشمال والجنوب ، وذلك الفهم الذى بدا بعد ذلك حتى أثنـــاء الفتح العربى ولم تتحرر عاصمة مصر من أسر وجاذبية ومزايا الموضع هنـــا حتى الآن . ويدل عليه ، تتابع عواصم مصر بعد الفتح العربى فى المنطقة المقابلة لمنف أى فقط كان الاختـــلاف أن تلك العواصم كانت فى شرق النيل بينما كانت منف فى غربه .

---

(١) هيرودوت : مرجع سبق ذكره .. ص ٦٤ .

(٢) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٩٢ ـــ ٩٣ .

وكما يقرر « حمدان » أن مصر وإن عرفت أحيانا عواصم قامت فى مواضع خلاف موضع منف ومنطقتها (سواء فى شرق النيل أم غربه) مثل العواصم الجنوبية القصوى كطيبة فيما بعد ، أو شمالية قصوى مثل أفاريس وغيرها ، فانما كان ذلك لأسباب أهمها أن مزايا الموضع للعاصمة كانت غير متضخمة فى المرحلة التكوينية للدولة المصرية ، أو لأن عواصم الشمال المتطرفة كانت من اختيار الغزاة يصدق ذلك على أفاريس (الهكسوس) وعلى الاسكندرية (البطلمية الرومانية)[١] .

وقد ظلت منف مدينة هامة ، حتى فى الفترات التى تخلت الأضواء فيها عنها ، واختيرت غيرها كعاصمة . وكان من أهم مبانيها معبد « بتاح » الذى ظل محتفظا بأهميته حتى عصر الأسرة ٢٠ ، وكانت أهمية المدينة فى الواقع تتبع من أهمية معبودها ، وكما نعرف فى ظل جغرافية المدن الحديثة فإن أهمية موضع وموقع المدينة هى نسبية بحكم الظروف المتغيرة التى تمر على المدينة منذ اختيار موضعها لأول مرة ، ويمكن القول ، أن موضع منف كان له علاقة وثيقة بموقعها ، فقد اختاره مينا موضعا مرتبطا بالموقع ارتباطا وثيقا فأراد أن تكون على اتصال سهل بين الشمال والجنوب ، وأما التضمين الثانى فى سياق الموضع والموقع فهو ، أن اختيار موضع منف على الضفة الغربية كان يأخذ فى الاعتبار مجرى النهر كفاصل جغرافى له شأنه فى رد هجمات بدو الصحراء الشرقية عن العاصمة وأيضا بدو شرق الدلتا ، أما بدو المناطق الغربية فقد أمن شرهم حين حصن مناطقها الغربية والجنوبية بالفاصل المائى بعد التعديلات التى قيل أن مينا أجراها فى مجرى النيل .

واختار موضعها ، سهل الاتصال بالدلتا للغاية ، والتى كان يتوقع أن تثير المشاكل أمامه أكثر من منطقة الوادى الذى يمثل المنطقة التابعة له شخصيا . وإذا أمعنا النظر فى موضع العاصمة نجده ليس عند رأس الدلتا شمالا ولكن يبعد جنوبا عدة كيلو مترات لتكون سهلة الاتصال مع أنصار الملك فى الجنوب ، والملفت للنظر جغرافيا ، أن مينا

---

(١) جمال حمدان : فى ديزموند ستيوارت ، القاهرة ، ترجمة يحيى حقى ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، مارس ١٩٦٩ ، ص ١٧ — ١٨ .

لم يقنع بميزات الموضع الطبيعية ، ولكنه كما هو ثابت تاريخيا ، أضاف الى هذه الخصائص ، خصائص جديدة من صنع الانسان كما يتقدم ، لتصبح العاصمة أكثر قدرة على الدفاع عن نفسها ضد المغيرين ، فعدل فى الموضع ، وربطها بالقنوات ودعم جسور النيل[١] .

وظلت منف عاصمة مزدهرة ، ذات سلطة طاغية ، حتى ضعفت فى عهد الأسرتين السابعة والثامنة ، التى فى أثنائها ادعى الملوك ، حكم البلاد كلها ، رغم أن كثيرا من الحكام الاقليميين فى البلاد كانوا لا يعترفون بسلطان العاصمة وجدير بالذكر أن ضعف العاصمة كان يعطى الفرصة لقوة ونفوذ العواصم الاقليمية ، ومن ذلك أنه لما ضعفت مركزية وسلطة منف ظهرت أسر مناوئة فى قفط ، وبعدها فى اهناسيا (فى الفيوم)[٢] ولذا يعتقد بعض المؤرخين أنه كان هناك بعد الأسرة السابعة أكثر من عاصمة مثل « شتوك » الذى يعتقد فى وجود حكام حكموا من كل من قفط واهناسية ، وان كان بعض الأثريين يعارض ذلك[٣] .

ومهما ثار الجدل حول تعدد العواصم فى الفترة المذكورة ، فانه من الثابت أن العاصمة تحولت مع بداية الأسرة التاسعة الى مدينة اهناسيا (نن — نى — سوت) عند مدخل الفيوم ، والذى كان له أثره بالطبع على مورفولوجية كل من العاصمتين القديمة منف والجديدة اهناسيا ، نتيجة اختيار الأخيرة كمقر ملكى وما يتبع ذلك من اتساع فى مجال نفوذ المدينة متعدد المجالات ، وكما حدث فى الماضى تكررت الصورة بعد الأسرة التاسعة فدب النزاع بين ملوك وحكام اهناسيا ، وبدأت قوة طيبة فى الظهور[٤] وان كان « ويلسون » يذكر أن انتصار طيبة الذى تم فى النهاية ، يعتبر مشكلة تحتاج الى تفسير ، لأن اقليم الجنوب كان أفقر فى امكانياته وموارده ، كما أن موقع

(١) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٢٠١ — ٢٠٢ .
(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ١٨٦ .
(٣) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ١٦٣ .
(٤) ويلسون : مرجع سبق ذكره . ص ١٨٧ .

اهناسيا أكثر توسطا عن طيبة بين أقاليم مصر ، بمثل ما هو ملائم أيضا للاتصال الخارجى[1]، كما أن اهناسيا أظهرت نفوذا ثقافيا كبيرا امتد خارجها أحيانا ، كما نجده اليوم فى المدن الثقافية الكبرى فى العـــالم التى يتعدى نفوذها حدود الدول ذاتها،ومن ذلك وجود آلهة مصرية تعبد فى خارج مصر مثل ببلوس فى فينيقيا ، ولمــا كان هناك ملوك من طيبة معاصرين لملوك اهناسيا ، جرت الحروب ، وانتصر ملوك طيبة ، بعد أن ظل نفوذ حكام اهناسيا طاغيا على مدى الأسرتين التاسعة والعاشرة ، وان قال البعض بوجود نفوذ ادارى للعاصمة القديمة منف .

(١) المرجع أعلاه . ص ٢١٦ .

الفصل الخامس عشر

العاصمة المصرية منذ اتخاذ طيبة عاصمة قومية
وحتى نهاية عصر الأسرات

أصبحت طيبة عاصمة الأسرة ١١ ، وان كانت المدينة ذاتها قديمة ، بمعنى أن طيبة لم تبن لتكون عاصمة ، بل كانت مدينة أقدم من الفترة التى اخيرت فيها كعاصمة . وكان تحول العاصمة من اهناسيا الى طيبة مقرونا ببعض الاضطرابات ومظاهر الضعف التى اعتورت الحياة المصرية مما يؤكد على أن حالة الفوضى فى الماضى — كما هى فى الحاضر — كانت تنعكس على المدن بعامة والعواصم بخاصة ، فنجد أنه فى قصة « الفلاح الفصيح » بعض الدلالات الجغرافية والعمرانية اذ أنه كان متوجها الى العاصمة اهناسيا باعتبارها سوقا تجارية ، ومركز خدمات ، وبؤرة مركزية للحياة الاقتصادية فى البلاد ، فتعرض فى ضواحيها للنصب والاعتداء ، مما يدل على انعدام السلطة ، وغياب الرخاء والتقدم الذى كان يشيع فقط فى أوقات الرخاء وتقدم العاصمة وقوة نفوذ السلطة المركزية بالعاصمة . وحينما استقرت الأمور لطيبة كعاصمة بعد اهناسيا ، وسقوط الأخيرة فى عصر منتوحتب الثانى ، ورأت العاصمة طيبة عهدا جديدا فى تاريخها ، وكبرت مساحتها ، وزادت رقعتها المبنية نتيجة الرخاء والأموال التى تدفقت عليها ، من ضرائب البلاد ، ولم يدخر منتوحتب وسعا فى تجميل العاصمة وانشاء المعابد المختلفة بها ، وكانت العناية بطيبة ، ليست قاصرة على مدينة الأحياء (فى الضفة الشرقية) ولكن أيضا على مدينة الأموات (الضفة الغربية) .

وهكذا ، كان اختيار طيبة لأول مرة كعاصمة قومية فى عهد الأسرة ١١ بداية شهرتها كمدينة ذائعة الصيت لا زالت تجذب الاهتمام حتى اليوم رغم أن بعض الكتاب يرجع نشأتها الى الأسرة الأولى ممثلة فى نواة المدينة وقلبها القديم الواقع بين معبدى الأقصر والكرنك ، شرقى النيل وبين ذراع أبو النجا ومدينة هابو على الشاطىء الغربى ، ومن

الطريف أن « هومير » شاعر اليونان العظيم ذكر أنه كان بها مائة باب يتسع كل منها لمرور مائتى رجل[1] .

وفى عهد الأسرة ١٢ ، فى عهد أمنمحات الأول ، رأى برأيه الثاقب أنه لابد أن تنقل العاصمة المتطرفة نحو الجنوب ، الى موقع أكثر توسطا فى الشمال (ويرى بعض المؤرخين أن نقل العاصمة كن فى عهد سلفه منتوحتب الرابع) وعلى ذلك جرى اختيار موضع له الكثير من المزايا الجغرافية التى تحدثنا عنها فى اختيــار مواضع عواصم مصر القريبة عند قمــة الدلتــا ، مثل هليــوبوليس (أون) ومنف ، والتى أبرزها توسطها ، ومركزيتها ، وســهولة اشرافها على الشــمال والجنوب فى آن واحــد .

واختير الموضع الجــديد فى منطقة على مقربة من منف ، وسمى المكان الجــديد باسم له أيضا دلالته الجغرافية ، اذ أطلق عليه اسم « اثت تاوى » أى القابضة على الأرضين ، مشيرا بذلك الى الشمال والجنوب[2] وفى اختيار موضع العاصمة الجديدة للأسرة ١٢ ، فكر ثاقب اذ غلب ذلك الملك « أمنحات الأول » مزايا الموضع الشمالى على النواحى العاطفية بصفته طيبى المنشأ .

ومع ذلك ظلت العنــاية بطيبة كذلك قائمة ، وحسن من مظهرها وأنشأ معابد جديدة ، وحسن القــديمة ، وكما كان لكل عواصم مصر حتى هذه الفترة جباناتها اللصيقة بموضعها ، فانه كان أيضا للعاصمة الجديدة (اثث تاوى) جبانتها فى منطقة « اللشت » وتجدر الاشارة ، الى أن الاهتمام بالاهرامات كشكل معمارى لصيق بمدن الموتى ، عاد الاهتمام اليه فى هذه الفترة ، وجدير بالذكر ، ونحن فى سياق الحديث عن مدن الموتى ، أنه فى الفترات المتــدهورة التى كانت تعقب قيــام وازدهار العواصم ، كانت تكثر الجرائم ، وكان أهمها نهب مدن الموتى وليس مدن الأحياء باعتبــار الأولى أكثر ثروة من التحف والجواهر والأشياء القيمة التى كانت تدفن مع الميت .

---

(١) هيرودوت : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ — ٦٦ .
(٢) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

ومع الأسف ، فلم يقدر للعاصمة الجديدة فى الأسرة ١٢ الازدهار والنمو لفترة طويلة ، اذ قدر لها الضعف قبيل فترة الانتقال الثانية وقبيل غزو الهكسوس ، وضعفت الحكومة المركزية وتكررت الصورة التقليدية من اتساع نفوذ بعض مدن الأقاليم وحكامها ، كرد فعل لضعف نفوذ العاصمة ، ولذا نجد بعض المدن بدأت تظهر على مسرح التنافس الحضرى المرتبط بقوة نفوذ الحكام الاقليميين ، فظهرت أهمية « سخا » وأسرة بها تنافس حكم طيبة واثنت تاوى لذلك تعددت مناطق نفوذ المدن المطالبة بالحكم فى الأسرتين ١٣ ، ١٤ مثل طيبة وقفط ، وأسيوط ومدن الدلتا كما سبق الذكر .

لذلك نجد أنه فى عهد الأسرة ١٤ أصبحت العاصمة فى « سخا » والتى كانت عاصمة تسمى بالمصرية « خاست » ويطلق على العاصمة (خاسوت) و (سخوت) وكانت العاصمة عاصمة المقاطعة السادسة فى الدلتا[1] ولكن ، ونظرا لأحوال الضعف القومى فى ذلك العهد بقيت للعاصمتين القديمتين منف ، وطيبة أهميتهما الاقليمية الكبيرة وبالذات النواحى الدينية .

وكان لابد لتفاقم الأمور من ضعف وتدهور ، أن تقع البلاد تحت حكم الأجانب من الهكسوس ، ولذا فمع الأسرة الخامسة عشرة ، أصبحت العاصمة لأول مرة فى أفاريس أو (أواريس) فى شرقى الدلتا ، وهو موضع يختار فى هذه المنطقة لأول مرة ، ويبرز بجلاء كيف أن الموضع كان يتدخل فى اختياره أحيانا ظروف خارجية تماما ، واختار الهكسوس ذلك الموضع عند أطراف الدلتا الشرقية ليكون قريبا من موطنهم فى آسيا ، ولاعتقادهم أن الأشوريين سوف يقومون بغزو مصر حيث كانت قوتهم ظاهرة آنذاك ، ولذا أختير موضعها كمدينة أولى فى وادى الطميلات طريق المواصلات الطبيعى مع آسيا[2].

---

(١) سليم حسن : اقسام مصر الجغرافية ، مرجع سبق ذكره . ص ٧٤ .

(٢) El-Gouhary, Y., The Ancient Capitals of Egypt. Bull. Fact. of Arts, Alex. Univ. (19), 1966. p. 7.

ويرى « ويلسون » أن غزو الهكسوس ، وتأسيسهم عاصمتهم فى الشمال فى الدلتا ، لم يضعف العاصمة الجنوبية طيبة فقط لأن قطب الحيـاة السياسية والادارية والتجارية اتجه شـمالا ، ولكن نجد أن ممتلكات مصر الجنوبية أيضا أصابها التصدع مثل طيبة ، ومثال ذلك تهـدم حصن كرمة فى النوبة ، ومثل ذلك يقـال عن غيرها من المدن والمـواقع •

ولا شك أن أفاريس (أو صان الحجر) التى ظلت عاصمة لمصر من الأسرة ١٥ الى الأسرة ١٨ والتى عرفت باسم تانيس بعد ذلك قد تغير تركيبها عرقيـا بين ثلاثة عهود : الأول فى عهـد الهكسوس حين تأسست ، والثانى فى عهد الدولة الحديثة ، والثالث فى العهد اليونانى الرومانى ، وذلك بحسب العناصر العرقية الغالبة فى كل عهد من هـذه العهـود •

وقد غلب على مورفولوجية أفاريس الطابع العسكرى واحتلت ثكنات الجيوش والجنود مساحة واسـعة ، كما كانت بهـا عدة أوجه اختلاف جوهرية مع ما بناه المصريون ، من ذلك تحصين المدينة بشدة لوجودها كبؤرة دخيلة وسط وجود مصرى صميم ولذلك كانت أفاريس نشازا حضريا ضمن الشبكة المدنية المصرية[1] يدل على ذلك أنه حتى المبانى الدينية المصرية تأثرت بالهكسوس ، فظهر الاله « سوتخ » فى مظهر آسـيوى • وبرغم أن افاريس أصبحت عاصـمة مصر زمن الهكسوس ، فان أول فلولهم أقام فى منف وان ظلت أفاريس العاصمة الرسمية من الأسرتين ١٥ — ١٨ •

وبعد حروب التحرير أصبحت طيبة مرة أخرى فى عهد الأسرة ١٨ العاصمة للدولة المصرية النـاهضة التى وصلت حدودها حتى الشلال الرابع •

وكان لعودة الاهتمام الى طيبة مرة ثانية ، أثره الكبير فى تقدمها من جديد ، لا سيما وأنه حكم مصر ابان عهد الامبراطورية ملوك عظام ،

---

(١) راجع ما ورد عن مورفولوجية المدن من هذا البحث •

عمل كل منهم على زيادة عمرانها من المعابد والمبانى ، والاضافات التى جرت خاصة لمعبد الكرنك والذى حرص تحوتمس الأول أن يكون خليقا بأن يمثل المعبد الأول لعاصمة الامبراطورية فأزال المعبد المتواضع الذى كان قائما من عهد الأسرة ١٢ وبنى مكانه معبدا عظيما ، أمامه مسلتان جرانيتيتان ، وكذا أضاف من تلى ذلك من ملوك لمبانى طيبة ومورفولوجيتها ، وكان ذلك سواء فى جهتها الشرقية أو الغربية ، اذا نظرنا الى طيبة كمدينة توأمية Twin city أو كمدينة أحياء فى الشرق ، ومدينة أموات فى الغرب ، وكان من أعظم الاضافات معبد الدير البحرى الذى أقيم فى غرب طيبة زمن الملكة حتشبسوت .

ولم تكن طيبة فى عهد الامبراطورية عاصمة لمصر فقط ، بل للعالم المعروف آنذاك ، اشارة الى نفوذها السياسى والحربى والتجارى ، والثقافى العالمى ، ولم يكن ذلك التقدم فى العاصمة ، الا انعكاسا للقوة والسلطة المركزية التى افتقدتها العاصمة زمنا من الدهر والتى كانت طيبة فى أثنائها تنحدر الى مجرد مدينة اقليمية[1] .

وفى عهد تحوتمس الثالث بالذات اهتم بالمنشآت التعليمية التى يتعلم فيها النبلاء وأولادهم من مصريين وأجانب الفنون العسكرية والعلوم ، بينما فى عهد ملك آخر طبعت المبانى والمنشآت بالطابع اللاحربى ، وهو الملك أمنحوتب الثالث الذى كان ميالا للسلم ، ويهوى اقامة مبان ضخمة جميلة ويرعى الفنون ، فزاد عمران طيبة فى عهده معبدا فخما لآمون فى جهتها الغربية . وعرفت المدينة فى ذات العهد أشياء جديدة ، وان كانت موجودة من قبل بنسب أقل من ذلك أنه كانت بها أحياء خاصة بمشارب الجعة ، وما فيها من المغنيات

---

(١) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٢٨٥ ، ويلاحظ ان حروب التحرير المصرية ضد الهكسوس لم تخل من اشارات جغرافية اذ ان ملك الهكسوس حاول اغراء ملك كوش (النوبة) ان يناوش « كامش » الملك المصرى من الجنوب ، ثم يقتسمان معا مدن مصر فيما بينهما بعد ذلك ، ولكن ادراك الملك المصرى لاستراتيجيات المكان جعله يحكم الحصار على بعض الواحات باعتبارها على رأس الدروب الموصلة الى مصر ، راجع فخرى . ص ٢٥٦ .

والراقصات ، يرتادها العمال وغيرهم من طبقات الشعب تحاكى حياة الطرب والدعة التى كانت فى القصر الملكى وبيوت النبلاء[١] .

وقد قـــدر للأسرة ١٨ أن تشهد تتابع ٣ عواصم هى أفاريس ، عاصمة الهكسوس ثم طيبة رمز التحرير والعاصمة المصرية القومية ، وبعدها « أخيتاتون » أو « تل العمارنة » التى كانت أقصر العواصم المصرية عمرا . اذ أن الملك اخناتون اختار موضع العمارنة لبناء عاصمته به كما سنعرف تفصيلا . ولكن من بين هذه العواصم تبرز طيبة ، فى الأسرة ١١ ، ١٨ كعاصمة ترمز للتحرير واستعادة السلطة ، فى المرة الأولى من الملوك المحليين وحـــكام الأقاليم ، فى الثـــانية من الغزاة الآسيويين ، والملفت للنظر أنها اضطلعت بهذه المهمة رغم بعدها ٧٠٠ كم عن منف ، لذلك لم يكن عجيبا أن تحدث المؤرخون عن عظمتها وأبهتها بين المدن المصرية ، هى أحيانا واست (أى الصولجان) باسم الاقليم التى كانت تحكمه ، وآنا هى مدينة آمون ، الاله القومى ، وثالثة هى المدينة فقط دليل تفردها بين مدن مصر .

واذا عقدنا بعض المقارنات بين طيبة وبين ما سبقها من عواصم مصرية ، وخاصة هليوبوليس ومنف ، نجد أن طيبة كانت أقل أهمية كميناء نهرى على النيل ، اذ تفوقت عليهـــا منف بعد أن عدل موضعها ليسمح بانشاء ميناء هام يجعل حتى السفن القادمة من الخارج تصل اليها . وان تساوت أهمية طيبة وهليوبوليس فى المجال الدينى كمقـــر للاله « آمون » . كذلك نجد أن طيبة لم تقع على موقع حصين طبيعى ، الا أن نشاط ملوكها هو الذى جعل لها أهمية عسكرية ، وكان من عوامل نموها واستمرارها قربها من النوبة ، الذى أفادها اقتصاديا اذ كانت متاجر النوبة تصب فيها باعتبارها العاصمة وأهم المدن فى المسافة من النوبة وحتى موضع طيبة .

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٨٥ — ٣٠٤ .

وقد قدمت الطبيعة مقومات العمـران فى طيبة سـواء فى مدينة الأحياء أو فى مدينة الأموات ، ففى الأولى نجد سهلا متسعا فسيحا خصيبا حيث ترتد حافة الهضبة كثيرا نحو الشرق ، ويسـير المجرى العريض يفصل بين شرق وغرب طيبة حيث على عكس الحال فى شرقه تقترب الهضبة من النهر ، ولا تترك الا شريطا ضيقا ، فأتاح ذلك بناء المقابر والمعابد الشهيرة الضخمة فى الهضبة الغربية ، ووديانها للملوك العظام وان لم تحرم الضفة الشرقية من هذه المعابد ، ولعل فى مبانى الأقصر والكرنك أعظم شاهد على ذلك .

ويرى الكثير من العلماء ، أن صفة مدينة طيبة ذات المائة باب ، لا يقصد بها أبواب المدينة ذاتها ، ولكن أبواب المعابد ، دليل وفرتها وتعددها[1] وكانت شوارعها بعرض حوالى ٦ أمتار ، وربما كان بعضها مرصوفا على نحو ما كانت الطرق الصاعدة الى معابد الاهرامات فى الدولة القديمة ، أما بقية ملامح مورفولوجية المدينة ، فتدل على أنها كانت متسعة حقا ، وكانت النواة كما سبق القول حول معبد الكرنك ، ومن بيوتها ما كان ذا ثلاثة طوابق ، وهو أمر لم يكن كثير الحدوث فى المدن الاقليمية الصغيرة .

كذلك كثرت بها الحدائق ، وتخللت شوارعها الأشجار ، ورغم أن مدينة منف فاقت طيبة فى نسـبة الأجانب (نظرا لموقعهـا الشمالى الأقصى) الا أنه فى عهـود التوسع ، جلب الفراعنة أبنـاء الجاليات الأجنبية للمدينة ليتعلموا بها ، وخاصة الصغار ، حتى يكونوا أقرب الى مصر بعد أن يتعلموا فيها ، ويتطبعوا بعادات أهلها ، وكانت مكاتب ودواوين الحكومة تقع الى جانب القصور الملكية .

وبالرغم من بعد طيبة ، الا أنه ازدهر بها فى زمن الرخاء والتقدم أكثر من ميناء نيلى ، يزدحم بالسفن من ميتانى وبابل وآشور وسورية وفلسطين وجزر شرقى البحر المتوسط والنوبة ، ولذا فقد عاصر ذلك ازدهار وزيادة نسبة الأجانب بها ، وأن تحول ذلك الوضع الممتاز الى عكس ذلك تماما ، بعد تحول العاصمة الى اخيتاتون ، وبعدها تعاونت

---

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٧٣ .

قوى الطبيعة وقوى البشر على المدينة فقلت أهميتهـا ، ومن ذلك ، أفول نجمها حين تعرضت لغزو الآشوريين والفرس ، وفى بعض سنى البطالمة ، عانت من الحصار لقيام سكانها بالثورة ضد البطالمة ، فسلبوا معابدها وخربوها فى عهد بطليموس التاسع سنة ٨٥ ق٠م ٠ وأما عن عوامل الطبيعة فمن ذلك الزلازل التى دمرتها وخربت بعض معـابدها وآثارها سنة ٢٧ ق٠م[1] ٠

وهكذا نرى أن عاصمة مصر ، مهما كان موضعها كانت تستقبل فترات رخاء وتقدم وأخرى للفترات التدهور والتأخر ، ويمكن لنا من الأمثلة العـديدة السابقة عن تغير موضع العاصمة وأهمية موقعها أن نلحظ أن « نبض العاصمة » وتأثيرها ، كان يصيبه نوع من الانحدار gradient الذى تعرفه الجغرافيا جيدا ، وأن هذه الأهمية كانت تقل رويدا رويدا بالبعد عن العاصمة حتى فى فترات ازدهارها ، فهنا يدخل عامل البعد المكانى وطول المسافة ليؤثر على نبض العاصمة ٠

من ذلك أنه حين كانت اهناسيا العاصمة قرب الفيوم فى الشمال تضاءل تأثيرها على المناطق الجنوبية ، ولاحظنا هذا الانحدار gradient أثنـاء الأسرة ٩ ، ١٠ ، فى المناطق الجنوبية بتأثير المسافة ، يدل على ذلك ظهور وازدهار مدن أخـرى فى الجنوب مسـتغلة هذا الضعف والانحدار فى الأهمية ، فقامت طيبة ، وغيرها من مدن الجنوب مثل قفط تسد هذا الفراغ ، بينما كان نفوذ العواصم الشمالية على الأجـزاء القريبة منها أقوى وأشد وقعا ، ويمكن القول أنه فى الفترات التى كان فيها الحكم يمـارس من أكثر من عاصمة ، فان نفوذ كل عاصمة كان يصيبه هذا الانحدار بالبعد عن مركز احدى العواصم ، مع وجود نوع من التداخل فى مناطق النفوذ هـذه ، ويتضح ذلك من وجود جاليات أجنبية ومتاجر يغلب عليهـا الأصل النوبى الجنوبى فى عاصمة مثل طيبة ، بينما كانت الجاليات التى ترجع فى أصولها لمناطق البحر المتوسط والجهات الآسيوية متمثلة فى مدينة مثل منف التى نشطت بها صناعة السفن التى وصلتها بكافة أنحاء البلاد ، وبالدول الأجنبية ٠

---

(١) المرجع السابق ٠ ص ٧٠ — ٧٧ ٠

وفى أثنـــاء الأسرة ١٨ أيضـــا زمن الملك اميتـــوفيس الرابع (اخنـــاتون) ، (١٣٥٣ — ١٣٣٥ ق٠م٠) قام ذلك الملك بتغيير موقع العاصمة التقليدى (طيبة) الى موضع جديد لم يختر من قبل ، ويرى « جون ولسون » أن موضع العمارنة عاصمة اخناتون الجديدة ربما لم يكن بكر لم يفطن فيه أحد من قبل وفى ذلك يعـــارض ولسون جمهرة المؤرخين ويستند ولسون فى ذلك أن جد اخناتون الملك تحتمس الرابع كان يعنى بهذا المكان ، وان كان المكان فى حد ذاته قد أصبح لأول مرة عاصمة مصر بعد أن شيدت فيه مدينة مترامية الأطراف طولها أكثر من ثمانية أميال وشيدها لتكون واسعة خالدة[١] ٠ وقد اتبع اخناتون فى تعمير « أخيت آتون » مدينته الجـــديدة أو « أفق آتون » أســـلوبا انتقائيا أو انتخابيا ، بمعنى أنه أخذ معه من شايعه فقط من الأنصار ، لذلك فالمجتمع المصرى بهـــا كان جد مختلف عنه فى غيرها من المـــدن المصرية ، وهنـــا تكمن خطورة التعميم الذى يتبعه البعض فى تطبيق ما وجد فى العمارنة على غيرها من المحلات والمدن الهامة المصرية ، ويكفى أن نقول أن عمران المعابد ، وهو أهمها فى أية مدينة مصرية كان غاية فى الاختلاف عنه فى غيرها ، اذ اقتضى الدين الجديد تغييرا فى نظام المعابد ، وأصبحت معابده « أتون » فى العمارنة رحبة مفتوحة الأبنية ليتخللها الهواء وضوء الشمس متوافقة مع العبادة الرسمية الجديدة[٢] ورغم « الديمقراطية » التى بدت فى ترتيب أحياء السكن وعدم الفصل التـــام بين طبقات المجتمع فى العمـــارنة ، فانه بدا فيها التناقض بين المعابد الفخمة والقصور العظيمة ، ومبـــانى الحكومة الكبيرة ، وبين مساكن العمال والكادحين ، كذلك كان لكبار موظفى الدولة حرية اختيار مواضع مساكنهم[٣]٠

ومن معالم اختلاف العمارنة كعاصمة لمصر عن غيرها من العواصم أيضا ، والناجمة عن التغير الذى لحق بالعبـــادة الرسمية ، أن بعض مبانى المعابد أقيمت خارج الأسوار الخاصة بها لأول مرة ، وليس فى

(١) جون ولسون : مرجع سبق ذكره ٠ ص ٣٤٨ ٠

(٢) Jones, E., & Zandt, E. op. cit., 1974, p. 33.

(٣) Smith, H. S. op. cit., 1972, pp. 708 - 10.

داخله ، مما يشير الى أن هذه الأسوار كانت ليس للحماية أى لحماية ثروة المعبد ، كذلك أتيحت لهـا درجة من الاتساع والرحابة لم تتح لغيرها من العواصم مثل طيبة[١] ومع أن العمـارنة لم تكن محصنة ، فانها كانت تخضع لحراسة دائمة ، خوفا من أعداء اخناتون كهنة آمون فى طيبة ، ويقـال أن اخناتون نفسه تعرض للاغتيـال[٢] ، وأظهرت العاصمة الجديدة اختلافات أخرى فاختفى تصوير الاله الجديد من على جدران المعابد والمبانى ، وقصر ذلك على تصويره بقرص الشمس ، وكانت لهـذه الدلالات أسسها ومصـادرها الدينية فآمون معنـاه (المختبىء) ولا يصل الانسـان لمقـدسه بسهولة وبعـد سلسلة من الطقوس المعقدة ، فيصل الى أكثر أجـزاء المعبد اظلاما ، بينما كان معنى آتون (الظاهر أو الواضح) بمعنى أنه يتمثل فى قرص الشمس الواضح للعيان لذا كانت مبانى معابد الاله آتون فى تصميمها تعكس تلك الأفكار المتمـيزة والخاصة به مما أثر فى فورمولوجية المـدينة الوليدة[٣] . ولعله من المفيـد هنا ، أن نذكر أن أفكار اخناتون المثالية التى حاول تجسيدها فى عاصمته الجـديدة كانت الارهاصات الأولى لأفكار مشابهة استجدت بعده بمئـات السنين ، كذلك كانت مشـابهة لأفكار مفكرين سـبقوه ولتفسير ذلك نقول أن مثالياته كانت شبيهة بمثاليات أفلاطون فى جمهوريته ، كذلك فيما بعد نجد « توماس مور » وأفكاره المثالية فى « المدينة الفاضلة » مع الاختلافات بينها جميعـا والتى ترجع لاختـلاف ظروف العصر الذى نشـأ فيه كل من هؤلاء المفـكرين .

وكانت العمارنة لذلك لا تعكس فى استخدام الأرض بها مساحات كبيرة مخصصة للثكنات العسـكرية ، مثلمـا كان فى مـدينة طيبة ، أو أفاريس مثلا التى قيل أن سـاليتس Selitis أول ملوك الهكسوس ، ترك حامية من ٢٤٠ ألف جندى مزودين بسلاحهم ، وكانت لهم ثكناتهم

---

(١) Kemp, B. J., op. cit., 1972, pp. 657 - 80.

(٢) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٣٠٥ .

(٣) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٣٥ .

بالمدينة[١] ومرجع ذلك الاختـلاف أن اخناتون كان رجل فكر وتأمل وليس رجل حـرب مثل ملوك الامبراطورية الحـديثة المحاربين مثل رمسيس الثانى أو تحتمس الثالث ولذلك عكست المدينة ومورفولوجيتها الفن والشاعرية التى تميز بها اخناتون ولم تكن العمارنة كبيرة السكان كطيبة ، اذ طبقا لتقدير تشيلد بلغت ٤٠٠٠ نسمة فى القرن ١٤ ق.م[٢].

وترجع أهمية العمارنة كعاصمة لمصر ، التى كانت أقصر عواصم مصر عمـرا (حوالى ١٦ سنة) أنها حين اكتشافها تمثل وضع مدينة مصرية وعاصمة لحظة تركها والتخلى عن وظيفتها كعاصمة للبـلاد ، يؤكد ذلك أنه حين هجرت المدينة كانت بعض منشآتها لم تكتمل بعد ويجرى البناء فيها ، وبعدها تحولت العاصمة الى طيبة من جـديد ، وعلى ذلك فالأسرة ١٨ تعتبر من الأسر التى شـهدت أكثر من عاصمة وتغير موقع العاصمة أثناءها حوالى ٣ مرات ، كانت فيها طيبة عاصمة لمصر مرتين . ولكن تبقى العمارنة كاحدى عواصم هذه الأسرة لتمثل أهمية خاصة عن غيرها اذ بنيت دفعة واحـدة وفق تخطيط موضوع مدروس[٣] اذ كانت فى رأى « حمـدان » تقـوم كلها على الخطـة الهندسية المنتظمة ، التى تسود أيضا كل مدن الموتى المصرية ، بل ان هناك نظرية حديثة يقول بها « لافيدان » ترى أن مورفولوجية المدينة الفرعونية ، ومثالها العمارنة ، لم تكن على ذات الخطة الخاصة بمدينة العصور الوسطى العشوائية المعقدة الضيقة ، بل كانت فسيحة مترامية واسـعة الشـوارع تلتزم الخطة المربعة أو المستطيلة الهندسـية ، بصرامة كأنها نسخة مبكرة جدا من المدينة الأمريكية المعاصرة ، وذلك استجابة لأغراض الوظيفة الدينية من احتفـالات ومواكب ومعـابد ... الخ[٤] .

---

(١) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٢٤١ .

(٢) Everson, J. A., & Fitz Gerald, B. op. cit., 1975, p. 12.

(٣) محمد ابو المحـاسن عصـفور : التخطيط العمـرانى فى مصر القديمة ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد السابع عشر سنة ١٩٦٣ ، مطبعة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤ . ص ٩٤ .

(٤) جمال حمدان : شخصية مصر ، الجـزء الثانى ، مرجع سبق ذكره . ص ٤١٧ .

وهذا الوصف السابق أكثر انطباقا على العمارنة الرحبة الفسيحة منه على عواصم أقدم مثل منف وطيبة .

وقد ظلت طيبة عاصمة لمصر فى بداية الأسرة التاسعة عشرة ، ولكن ظهرت عاصمة منافسة لها ابان حكم رمسيس الثانى (١٢٩٠ — ١٢٢٤ ق.م.) ونعنى بها مدينة « بر — رمسيس » ويرى البعض أنها ذاتها « صان الحجر » أو « تانيس » ، ويرى البعض أنها بلدة « قنتير » فى مركز فاقوس ، وقد نمت المدينة الجديدة كعاصمة لأن أصول الرعامسة ترجع أصلا الى الدلتا ، كذلك كان للعلاقات الدولية ابان حكم الأسرة التاسعة عشرة ، أثره فى ضرورة نقل العاصمة شمالا ، متأثرة هذه المرة بعوامل خارجية ، اذ كانت مصر قد فقدت معظم امبراطوريتها الآسيوية ، وكان لابد أن يكون موقع العاصمة أقرب الى هذه الممتلكات والطرق المؤدية اليها ، لذلك اتخذت صان الحجر « تانيس » عاصمة ، واضطلعت بوظائف لم تكن لتضطلع بها لولا أن اتخذت عاصمة ، وساعدها على ذلك موضعها وموقعها الجغرافيين فكان موضعها فى شمال شرق الدلتا كمصب نيلى والقيام بوظيفة الميناء ، وساعدها قربها من آسيا ، وبلاد البحر المتوسط على أن تكون مركزا تجاريا فريدا وبؤرة اشعاع ثقافى بالمثل ، حيث تعددت معابدها وتكدس ميناؤها بالسفن ، ومع اضطلاع تانيس بوظيفة العاصمة السياسية والادارية للبلاد ، فقد بقيت طيبة تمارس وظيفتها كعاصمة دينية اذ قويت سلطتها الدينية بعد حركة التحول الطارئة زمن اخناتون .

ومع ذلك فان انتقال العاصمة شمالا ، زاد من الأهمية الدينية لمدن الشمال ، وبعبارة أخرى ، وبلغة جغرافية المدن الحديثة ، فقد تعددت مناطق نفوذ المدن الشمالية سياسيا وادرايا وثقافيا وتداخلت مناطق النفوذ بدرجة كبيرة ، وهنا يجب الا ننسى ما سبق أن أشرنا اليه مرارا ، وهو أن المدينة ، ولا سيما المدينة العاصمة كانت تستمد أهميتها أصلا من المعبد الرئيسى للاله المقام فى وسطها ، وكانت تانيس مقر

---

(١) جون ولسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ .

الاله ست ، وكان له معابد بها ، تلك العلاقة البادية على طول التاريخ المصرى القديم بين المعبد والمدينة[١] .

وظل التنافس زمن الزعامة بين « تانيس » العاصمة الرسمية فى الشمال ، وطيبة العاصمة الدينية فى الجنوب زمن الأسرة العشرين والواحدة والعشرين ، وتبدت أحوال فى آخر عهود الزعامة تدل على الفوضى والاضطراب اللذان سبق أن لحظناهما من قبل فى تاريخ مصر ، فانعكس ذلك مباشرة على العاصمة ، بل ان « ولسون » يقرر أن الملك « حريحور » من ملوك الأسرة ٢١ لم يحاول أن يحكم مصر كلها ، وفقدت مصر حكومتها المركزية القائمة فى العاصمة « تانيس » ، فى الشمال ، وطيبة العاصمة الدينية فى الجنوب ، وأصبح الحكم فى زمنه يتم من كلتا العاصمتين وليس من عاصمة واحدة ، مركزية ، وفضل الأمراء من التجار العاصمة الشمالية (تانيس) بينما زاد نفوذ حكام الأقاليم فى الجنوب ، وأدى ذلك الى تزعزع العاصمة بتزعزع الحكم المركزى ، وكان حريحور يحكم من طيبة وليس من تانيس ، بينما ظل ملك آخر يحكم من تانيس « صان الحجر »[٢] وكان مجال نفوذ العاصمة الدلتاوية يمتد جنوبا حتى أسيوط ، بينما نفوذ العاصمة الجنوبية طيبة يمتد من أسيوط شمالا وما يليها جنوبا ، واستمر الوضع تنافسيا بين تانيس وطيبة مع ملاحظة أن السلطة فى العاصمة الجنوبية — طبقا لوظيفتها الدينية — لم تكن للملك وانما لرئيس الكهنة[٣] .

وهنا لابد من الاشارة الى نقطة هامة ، وهى أن ثروة العاصمة والملك البادية فى حياته فى القصور والمعابد كانت تنتقل بموته الى مدينة الموتى ، ولذلك فليس من العجيب أن تستخرج كنوز الفراعنة ليس من طيبة (مدينة الأحياء فى مصر) ولكن من برها الغربى (مدينة الموتى) وتعد العاصمة « تانيس » استثناء من ذلك أى أن ثرواتها استخرجت

---

(١) Kemp, B. J., op. cit., 1972, pp. 657 - 80.

(٢) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٤٥٦ ، أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٠ — ٤٠٤ .

(٣) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٣٨٨ .

منها لأن بعض الثروات وزعت عليها بعد وفاة ملوكها بينها وبين غربى طيبة (حيث كان يدفن معظم الملوك) .

وفى الأسرة الثانية والعشرين ، كان هناك فى البداية عاصمة فى طيبة وأخرى فى « تانيس » مما جعل مجال النفوذ موزعا بينهما ، وفى نفس الوقت بدأ نفوذ كهنة الاله آمون يقوى بصورة كبيرة ، وخاصة نفوذ الكاهن الأعظم وفى ظل حكم الأسرة الثالثة والعشرون ، ظلت طيبة العاصمة ، ولكن كثرت المطالبات بالحكم من بيوتات عدة ، كل منها اتخذ له عاصمته ، فتعددت العواصم وعمت الفوضى ، والاضطراب ، وحد ذلك من الدور المركزى للعاصمة المصرية ، وقد وجدت بالاضافة الى طيبة ، بيوت مالكة فى (تل بسطة) الزقازيق وفى صان الحجر ... الخ[1] فى الوقت الذى كانت فيه أسرة أجنبية بدأت تسيطر على الحكم وتبدأ الأسرة ٢٥ ، اذ فى ظل هذه الفوضى قوى نفوذ أسرة من أصل ليبى كانت تقيم فى هيراكليوبوليس (اهناسيا) فى الفيوم (مما يؤكد العلاقة بين موضع وموقع المدينة عند أطراف الوادى فى الغرب والأصول الليبية للأسرة فى الغرب) وامتد نفوذ الأسرة من الشمال حتى الجنوب عند أبيدوس[2] . وعلى ذلك استطاع شيشنق Sheshonk أن يؤسس الأسرة الثانية والعشرين فى القرن العاشر ق.م. (٩٤٥ — ٩٢٤ ق.م.) وبرغم بقاء نفوذ دينى فى طيبة متمثلا فى الكاهن الأعظم ، فان المدينة تدهورت من النواحى السياسية .

وظل الاضطراب الناجم عن عدم وجود عاصمة واحدة مركزية قوية باديا فى البلاد ومتمثلا فى مشاركة عدة عواصم للعاصمة الرسمية وهى (اهناسيا) فظهرت منافسة كتل بسطة كما تقدم الذكر ، فى الأسرة ٢٣ ، وفى الأسرة ٢٤ ظهرت أهمية عواصم أخرى مثل طيبة ، وتانيس ، صا الحجر ، الاشمونيين ، بالاضافة الى اهناسيا . وكما كان يحدث فى نهاية كل فترة تدهور فان بعض النوبيين استطاعوا غزو

---

(١) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٤ .
(٢) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٤٥٦ .

مصر ابان الأسرة ٢٥ وجعل « بعنخى النوبى » عاصمته فى « نباتا » عند الشلال الرابع[1] وأحس بعنخى بالمشكلات الناجمة عن بعد المسافة بين العاصمة ، وأقرب عواصم مصر آنذاك وهى طيبة . فقام بتعيين نائبا عنه فى طيبة ، وهكذا كان لمصر عدة عواصم فعلية فى الأسرة ٢٥ فكانت مدن الدلتا الهامة كتانيس تمثل عاصمة شمالية ، وطيبة عاصمة متوسطة فى الجنوب والعاصمة الرسمية نبــاتا فى أقصى الجنوب فى النــوبة[2] .

وفى هذه الأثناء بدأ دور غزو وطمع استعمارى جديد ، تمثل فى الآشوريين والفرس ، وكما رأينا فى فترات سابقة ، حين أحدق الخطر بمصر من الشمال الشرقى ، فان العاصمة استقرت فى الدلتا ، وهــذا ما حدث ابان حكم الأسرة السادسة والعشرين حين اتخــذت سايس (صا الحجر) عاصمة للبلاد اذ كانت موطنا للملك « ابسماتيك » .

وهكذا اختيرت ثلاث مدن دلتاوية منذ الأسرة ٩ وحتى الأسرة ٢٦ ، وهى تانيس (صان الحجر) وتل بسطة (الزقازيق) ، صا الحجر (سايس) يضاف اليها واحدة فى مركز متوسط بين الدلتا والوادى هى اهناسيا مقر الأسرة الليبية الأصل . وكان تركيز موضع العاصمة فى بقعة دلتاوية عاكسا لزيادة الخطر الداهم القادم من الشرق .

وكانت بداية عواصم الدلتا فى هذه الفترة باختيار بر — رمسيس (تانيس) من قبل الرعامسة كما سبق لمراقبة الحدود الشمالية ، وحيث المناخ أفضل من مناخ الصعيد ، وقد اعتمدت المدينة على ظهير زراعى خصب . وأضــاف موضعها النيلى بعــدا هاما لأهميتهــا الحــربية والتجارية ، وكان بها مالا يقل عن ١٠ مسلات ، ويحدد « شــكرى » خمسة عوامل كان لهــا دورها فى أهميــة بر — رمسيس وهى عوامل

---

(١) حاول أحد الأمراء ويدعى (تف — نخت) وكانت عاصمته صــا الحجر فى غرب الدلتا ، انقاذ البلاد من حالة الفوضى هذه ، فاخضع الدلتا ومصر الوسطى واتجه جنوبا من عاصمته الشمالية صا الحجر نحو الجنوب فى الوقت الذى كان فيه بعنخى يتجه من عاصمته الجنوبية نباتا نحو الشمال وانتصر الأخير كما تقدم ذكره ، راجع احمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٣٩٠ — ٤١٧ .

(٢) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٤٥٦ .

تجارية ومناخية وسياسية وطبيعية وحربية ، وفضلا عن كونها عاصمة كانت مستودعا تجاريا هاما entrepot وانعكس ذلك عليها وميزها عن العواصم الجنوبية فكثرت بها أحياء الأجانب وأصبحت بؤرة لانتقال الأفكار والاحتكاك الحضارى وأصبحت مركزا ثقافيا وأصبحت أخيرا أعظم مدن الدلتا آنذاك[١] وأصبحت منافسا لطيبة ورغم غياب السور من مورفولوجية المدينة المصرية كما سبق ، فان الظروف المحيطة والأخطار المحدقة ، حتمت أن يكون للمدينة سورا سميكا من اللبن تتخلله من الداخل والخارج دخلات وخوارج ، وكان باب المدينة يشبه باب رمسيس الثالث فى معبده الجنازى فى مدينة هابو وكان يعلوه برجان عاليان مشيدان بالجرانيت الأسود ، والحجر الجيرى الأبيض ، والحجر الرملى الأحمر ، كما كان هناك ٣ أبواب أخرى .

وللأسف ، فان معظم آثار تانيس قد غاصت تحت طمى الدلتا الكثيف فكانت مجسات « سير فلندرز بترى » تصل الى عمق ٩ أمتار فى طبقات يونانية رومانية دون أن تصل الى مستويات عصر الرعامسة والهكسوس[٢] ومع ذلك فان هناك من الدلائل على أن تانيس — طبقا لعفائر بترى — كانت فائقة العظمة ، وكان طول معبدها ٣٠٠ مترا ، وكان من أكبر المعابد المصرية وكما علمنا من قبل ، فان ضخامة المعابد كانت تشير الى ضخامة المدينة ، وأهمية الاله المقام له المعبد ، وكان طول السور الذى يحيط بالمعبد حوالى ١٠٥٠ مترا وسمكه ٢٥ مترا وارتفاعه الأصلى قرابة ١٣٫٥ مترا واستخدم فى بنائه ٢٠ مليون قالب من اللبن[١] .

وهكذا فكما ازدهرت بر — رمسيس (تانيس أو صان الحجر) كعاصمة فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فى شرق الدلتا ، ازدهرت صا الحجر (سايس) كعاصمة فى الأسرة السادسة والعشرين فى غرب الدلتا ، وذلك فى عهد ابسماتيك الأول ، وكما تكررت الصورة قبلا ،

---

(١) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٧٥ — ٧٧ .

(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٣٥ — ٤٣ .

(٣) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٦٦ .

ازدهرت كعاصمة ، وزاد عمرانها ، وخاصة معابدها ، ويذكر « بيكى » أن اختيار « سايس » كعاصمة فى عهد الفراعنة المتأخر جعل منها مدينة عظيمة الشأن فى العهد الصاوى (الأسرة الصاوية) وكان لهـا الهة هامة هى « نيت » وتدل أكوام سايس على اتساع مساحة العاصمة القديمة ، كما تشير الى أنها أقيمت على تل صناعى (حيث الدلتا سهلة منبسطة لا تموج فيها) وذلك مخالف للمواضع التى كانت تختار الأجزاء المرتفعة على جسور النيل وجسور الحياض فى الوادى . وكان سور سايس يرتفع ٣٠ مترا و ٢٠ مترا فى السمك[١] .

وفى أواخـر الأسرة السادسة والعشرين استطاع قمبيز احراز نصر فى البداية فى تل الفرما « بلوزيوم » وواصل سيره للقضاء على عاصمة النوبيين فى الجنوب « نبـاتا » وبعـد تعرضه للهزيمة ، ترك البلاد وتولى دارا بدلا منه وجعل العاصمة فى منف مرة أخرى بعد أن اضطلعت المدينة بهذا الدور فى بواكير التاريخ المصرى كما رأينـا ، وبعـد اتخاذها كعاصمة ابان الأسرة السـابعة والعشرين وبعد دحر الاستعمار الفارسى وحرب التحرير أسس قائد ثورة مصر ضد الفرس (أمون حر) الأسرة الثامنة والعشرين وهو الملك الوحيد بها ، وجعل عاصمته فى سـايس (صا الحجر) مرة أخـرى ، وتلى ذلك الأسرة التاسعة والعشرين والتى كانت تحكم من مدينة « مندس » (وهى تل الربع أو تمى الامديد) وانتقل اليها البيت المـالك ، وكانت فى منطقة مركز السنبلاوين الحالية[٢] .

وظل الحال كذلك ، فى الأسرة الثلاثين التى تخللها الغزو الفارسى الثـانى ، والذى أعقبه الحكم اليونانى الرومانى ، والذى فى أثنـائه أسست الاسكندرية كعاصمة لمصر (٣٣٢ ق٠م٠) .

وهكذا ، تبرز عـدة حقائق من السياق السالف الخاص بتغير موضع وموقع العاصمة المصرية القديمة ، ويثـار سؤال هام يختص

(١) المرجع اعلاه . ص ٣٥ .
(٢) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٤١٠ — ٤٢٠ .

بالفترة الأخيرة من التاريخ الفرعونى وهو لماذا كان تعدد العواصم دائما فى الشمال ، وكثرة المطالبين بالحكم فى الدلتا ؟ ونجد اجابة ذلك فى أبعاد جغرافية مصر القديمة اذ كان شكل الوادى الضيق ، الشريطى ، الطويل ، فى الجنوب وسهولة السيطرة عليه يجعله على خلاف الدلتا المروحية السهلية المنبسطة ، والمعرضة للتأثيرات والغزوات من الشمال والشرق والغرب • كذلك كان للعامل الدينى أثره فى هذه الظاهرة ، وهو أن طيبة كانت المسكن الأبدى لآمون[1] مما جعل ظهور مدن تنافسها فى الجنوب أمرا مشكوكا فيه • ومن هنا كانت خطورة العواصم المنافسة فى الشمال بادية بينما أمكن تجاوز المحاولات القليلة التى جرت فى الجنوب بسرعة •

كذلك تجدر الاشارة ، الى أن الفترات التى اصطلح المؤرخون على اعتبارها فترات حكم أجنبى كالأسرة الليبية وأسرة نباتا النوبية ، يرى البعض أنها لم تكن أجنبية بعد أن عاش أسلاف هذه الأسرة فى مصر وتمصروا كما كان العامل الدينى المصرى واضحا فى الجماعات النوبية وكانت ملوك وآلهة مصر تعبد هناك ، ويدينون بالولاء لآمون[2] •

وكما رأينا فالنوبيون اتخذوا من طيبة عاصمة بعد أن رأوا أن نباتا نائية بعيدة • وهكذا كان للعامل المكانى والمسافة دوره فى تأكيد أهمية طيبة ، كذلك لم يخل ملوك أسرة نباتا من الحس الجغرافى ، اذ أنهم غيروا أحيانا من العاصمة التقليدية (نباتا أو طيبة) وجعلوها فى الشمال لبعض الوقت لتكون قرب مناطق الخطر فى الشمال الشرقى ، وذلك ما فعله « طهرقا » حين اختار صان الحجر (تانيس) ليكون قريبا من الحدود الشرقية ، لتطلع آشور لغزو مصر آنذاك • ومع ذلك استطاع الآشوريون التقدم والاستيلاء على « منف » العاصمة القديمة ، وهنا نلحظ أنه لم يعد هناك عاصمة واحدة لأن الآشوريين

---

(١) المرجع أعلاه . ص ٤٠٥ .
(٢) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٦ وما بعدها .

لم يسيطروا فعليا على كل مصر ، بل فقط على الدلتا ، وكان بها أمراء أقوياء لهم عواصمهم الخاصة ، مثل أمير صا الحجر بالاضافة الى أمير طيبة فى الجنوب ، ولا تعنينـا بالطبع مسيرة ونتـائج الحروب ولكن يمكننا القول بأن عواصم هذه الفترة من الأسرة ٢٥ كانت تتحدد على أساس نتائج الحروب وأدوار الانتصار والهزيمة ، وكانت منف عاصمة مصر القديمة العظيمة تعانى من ذلك أشد المعاناة لأنها فى الطريق بين الشمال والجنوب حيث رحى الحرب الدائرة بين غزاة آشـور وبقايا ملوك بناتا ، مما جعل نفوذ العـاصمة فى تلك الفترة ضـئيلا متداعيا وموزعا بين عدة عواصم تعددت بتعدد المطالبين بالحكم .

وهكذا يبدو من العرض السالف كيف تعددت مواضع العاصمة المصرية لأسباب عدة أيضـا ، وكيف اختلفت أقدار هـذه العواصم ، وكيف تدخلت عوامل جغرافية داخليـة وخارجية فى اتخـاذ العاصمة موضعا معينا ، أو موضعا جديدا ، ولكن فى كل الحـالات لا نجد عاصمة بزت طيبـة فى أهميتها ، تلك المدينة التى لم تكن عاصمة لمصر فقط بل عاصمة للعـالم القديم ، وقد قدر K. Davis أنها بلغت حجما سكانيا ٢٥٥٫٠٠٠ نسمة فى القرن ١٤ ق.م.[1] .

---

(1) Everson, J. A., & FitzGerald op cit., 1973, p. 12.

الباب الرابع

أنمـــاط ووظائف المحـــلات العمرانية المصرية القديمة

الفصل السادس عشر : أنماط ووظـــائف المحـــلات العمرانية المصرية القديمـــة .

- مقدمـــــة .
- مدن الادارة والحكم .
- مدن الحماية والحصون العسكرية .
- محلات المستودعات التجارية ومراقبة التجارة النيلية .
- مدن التعدين والمنـــاجم والتحجير .
- مدن الثقافة والاشعاع الحضارى .
- مدن الحج والزيارة والنبوءات والعرافة .
- مدن المـــوتى .
- مدن النفى والعقـــاب .

الفصل السادس عشر

انمــاط ووظائف المحلات العمرانية المصرية القديمة

مقـــــدمة :

فى ظــل الظروف المصرية القديمــة التى أهتمت أكثر بمحـــلات الموتى ، وأضفاء عــلامات العظمة والفخــامة عليها ، نجــد أن المحلة العمرانية الخاصة بالأحيــاء لم تنل الا قسطا قليلا من الأهمية ، ورغم أن المصريين برعوا فى تخطيط منــاطق ســكناهم ومنــازلهم ، الا أن العقبــة الهــامة للتحقق من ذلك ومن غيره من الموضوعات المندرجة فى نطــاق جغرافية العمران ، ان مادة بنــاء المحلات الريفية والمدنية كانت الطين واللبن والمواد الرخوة التى سرعان ما ذوت ، أو غطيت بطبقات الرواسب النيلية •

ولمــا كان البحث عن الآثار المــادية للمحلات صعبا ، فلا شك أن البحث فى أنماطها ووظائفها سيكون أشد صعوبة • على أن الآثار التى تركها المصريون فى محلاتهم الخاصــة بالحيــاة الثانية وهى المقــابر ، وأيضــا نقوش المعــابد وآثارها ، كانت كافية لتعطينا بعض الاشارات الهامة عن أنماط ذلك العمران ووظائف المحــلات العمرانية •

وسنستعرض فى السطور التالية هذه الأنمــاط وتلك الوظائف ، التى وان تشابهت لفظا مع ما ندرسه اليوم من أنماط ووظائف العمران الحديث ، الا أنها بالقطع ستختلف مضمونا فى ظل الفترة التاريخيــة التى تمثلها •

وقد علمنا فيما سبق ، أن الاطار العمرانى المصرى القديم ، كان منذ القدم هو المحــلات النووية التى كانت انعكاسا لجغرافيــة مصر الطبيعــية ونشاط ســكانها البشرى آنذاك ، الذى تتطلب التعــاون

والتجمع ، دفعا للاخطار الطبيعية الناجمة عن الفيضان فى المقام الأول ، وتعاونا وتآزرا فى رفع المحلة ذاتها على تل أو كومة صناعية ، وكذا التعاون فى عمليات الزراعة وما اليها . وفيما بعد انتظمت هذه المحلات فى صورة اطار ادارى هو المقاطعات التى عرفت بالنومات فيما بعد وكان ذلك النمط ثابتا مستمرا على طول التاريخ المصرى القديم ، وحتى فيما بعد زمن البطالمة اليونان والرومان والعرب . وظلت مواضع العمران تشغل على طول التاريخ ، ولا تتغير كثيرا للاستفادة الطبيعية من ميزة البناء على بقايا السكن السابق ورفع المحلة عن مستوى السهل الفيض[1] وعلى ذلك كان نمط المحلات التى تنتظم فى داخل المقاطعات هو النمط الشائع وكانت معظم المحلات فى صورة قرى ترتبط بروابط اقتصادية وادارية ودينية بالمدينة عاصمة المقاطعة ، وقد روعى فى المقاطعة أن تكون عبارة عن اقليم محدود المساحة بحيث يسمح لسكان أقصى الضياع بالقدوم الى السوق فى المحلة الرئيسية والعودة ثانية فى مدى نهار واحد[2] .

وعلى ذلك فلما كان العمران المصرى القديم ، وكلما كان تركز السكان قديما ، مثلما هو اليوم ، يوجد فى قلب السهل الفيضى ، الا أن البحث عن ذلك العمران لم يجر فى السهل الفيضى للأسباب التى تقدمت، وان جرت محاولات البحث عند حوافه وقرب الصحراء ، أما عمليات الحفر فى السهل الفيضى فقد انصبت على مناطق المعابد ، وليس على محلات العمران[3] .

ولم يكن نمط العمران المصرى القديم — اذا ما نظرنا له بمنطق أقليمى — واحدا اذ وجدنا أنه كان يتفاوت فى كثافة العمران وكثافة السكان منجهة لأخرى لظروف طبيعية أساسيا ، ولكن بصفة عامة كانت

---

(١) Baines, J., & Malek, op. cit., 1980, p. 14.

(٢) اتيين دريوتون ، جاك فانديه : مصر ، تعريب عباس بيومى ، مرجع سبق ذكره ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ ، ص ٤٤ .

(٣) Smith, H., S., Society and Settelement in Ancient Egypt, op. cit., 1972, p. 75.

المحلات الريفية المجمعة هى النمط السائد ، وأن نسبة سكان المدن لم تتجاوز خمس للسكان[١] .

وفى وسط ذلك النمط العـام برزت أشكال عمرانية مدنية وشبه مدنية كان من أهمها مدينة السوق أو المدينة عاصمة المقاطعات ، وهذه كانت مجـالا لتبـادل المحاصيل والمنتجات والسلع والتى أدت الى قيـام سلطة محلية وخاصـة فى الفترة الأولى من تاريخ مصر فى عهد ما قبل الأسرات ، حيث كانت القرية أساسا مكتفية ذاتيـا رغم وجود مدن الأسواق هذه[٢] .

وقد استعرضنا فيما سبق بعض أنماط العمران اصرى القديم ، وتحدثنا بخاصة عن نمط ووظائف مدن المقاطعات ، وتباعدها ، وأهميتها ، وكذلك عن نمط وأهمية ، ووظائف المدينة العاصمة بالتفصيل ، وبقى أن نحـاول التعرف على بقيـة المحـلات العمرانية وأهم الوظائف التى كانت تضطلع بها فى مصر القديمة ، وخاصة المحلات الحضرية على الرغم من أننا نجد أن بعض البـاحثين مثل (ولسون) يشكك فى أن مصر فى تاريخها الباكر كان بها أية بلدة تستحق أن يطلق عليها مدينة ، ولكنه يقول أنها كانت قرى زراعية سواء صغرت أم كبرت . وفى رأيه أننـا يمكن أن نصـل الى العهد التاريخى ، بل ربما الى الأسرة ١٨ قبل أن توجد فى مصر « مدينة » تستحق هذا الاسم كما نعرفه الآن . ويعارض بشدة نظرية « جوردون تشيلد » عن الثورة الحضرية ، ويقول أن ذلك كان فى مصر يتم من خـلال عملية تدريجية بطيئـة وليست ثورة[٣] بمعنى أن بزوغ الحضرية كان تدريجيـا ويبدو أن فى آراء ولســون الكثير من التجنى ، فلا شك أن الوظيفة الدينية بالذات أتاحتنمو مدن كبيرة جدا منذ بواكير التاريخ المصرى ، وليس فقط فى عهد الامبراطورية،

---

(١) راجع موضوع السكان والعمران .

(٢) محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهرى : الجغرافيا التاريخية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥١٤ .

(٣) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٧٧ — ٧٩ .

وأشـــارة سريعة الى « أون » ومنف تنبؤنا أننا أمام مدن حقيقية منذ بداية التاريخ المصرى •

اولا : مدن الادارة والحكم :

وهذه اضطلعت بوظائف الادارة الاقليمية ، وقد ذكرنا منها سلفا المدن الخاصة بعواصم المقاطعات ، ولكن ما يعنينا هنا هو التركيز على أن الادارة المركزية لبعض القطاعات أو الخدمات والكائنة فى العاصمة كان لهـا فروع فى بعض المدن بالأقاليم ، وبالطبع من أهمهـا عواصم أو حواضر المقاطعات ونجد أشارة من أحد حكام الأقاليم من الأسرة الرابعـة ، أنه نجح فى أن يكون حاكما على اقليم يشمل ١٢ مدينـة كبيرة ويدير الاقليم من أهمها[1] •

ويمكن أن نتبين نمطين مميزين من مدن الادارة هـذه :

١ ـــ مدن العواصم الادارية والمقاطعـات التى تعتبر مخلفات للعصور الاقطاعية التى صاحبت تفتت السلطة المركزية حوالى سنة ٢٦٢٥ ق•م•

٢ ـــ مدن جديدة تماما أنشئت لغرض الادارة والحكم •

وفى النوعين تميزت المدينـة بالوظيفة الاقليمية بمعنى هيمنتها على أقليم معين خاضع لها ، يستمد من وظائفها وخدماتها المركزية على نطـاق اقليمى ، عن طريق وجود ممثلى هذه الوظائف والخدمات مثل الحـاكم الاقليمى ، القاضى ، وجامع الضرائب • ويرى « ممفورد » ـــ على عكس ويلسون ـــ أن كل أو جميع عنـاصر التجمع الحضرى كانت متوافرة فى المدينة المصرية ، وان بدت مع ذلك وحتى فى القرن ١٤ ق•م• زمن الأسرة ١٩ شبيهة بالمراكز الريفية[2] وتجدر الاشارة ،

---

(١) عبد المنعم أبو بكر : التنظيم الاجتماعى فى مصر القديمـة ، فى تاريخ الحضـارة المصرية ، وزارة الثقـافة والارشـاد القومى ، العصر الفرعونى ، المجلد الاول ، العدد الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة بدون تاريخ • ص ١٢٧ •

(٢) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره • ص ١٥٦ •

الى أنه فى بعض الحالات كانت بعض المدن الكبرى ــ خلاف العاصمة ــ تقوم بوظائف الادارة والحكم لمساعدة العاصمة ، وبعض هذه المدن استخدم كعاصمة قبل ذلك أو بعد ذلك ، مثلما وجدنا فى بعض فترات التاريخ المصرى القديم حين كان هناك وزيران أحدهما مقيم فى طيبة ، ومجــال نفوذ مدينته من أقصى الجنوب حتى أسيوط شمالا ، والثانى وهو المقيم فى هليوبوليس ، مجال نفوذه على الوجه البحرى والصعيد حتى أسيوط[٢] ولا غرابة فى ذلك وقد علمنا أن كلتا المدينتين استخدمتا كعواصم وكان موضعهما وموقعهما الجغرافيين ميسرا لهما فى الاضطلاع بتلك الوظيفة فالأولى غير بعيدة عن منطقة التركيز السكانى والنشاط فى جنوب الوادى والنوبة والثانية غير بعيدة عن قلب الدلتا منطقــة الانتــاج الهامة والأراضى الزراعية المنبسطة والمتاحة ، وحلقة الصلة مع جيران مصر فى الشـــمال والشرق •

مدن الحمــاية والحصون العســكرية :

تطرقنا من قبــل ، الى تميز المدن المصرية عن غيرها من مــدن الحضارات المعاصرة بغياب السور من مورفولوجية المدينة باستثناء بعض الفترات ــ ويذكر ممفورد أن كل شىء فى مصر ، ما عدا المدينة ، شيد ليقاوم الزمن[٢] •

ومع ذلك ففى بعض الفترات ، كان لا مفر من تحصين المدينة ، واقامة الأسوار من حولها ، وقد فطن منذ البداية الى ضرورة قيــام حصون فى نقــاط مختــارة تنبىء عن حس جغــرافى فريد ، وقــد ارتبطت مواضع هذه الحصون ومواقعها بالمنــاطق التى كان يفد عن طريقها الاعداء التقليدين لمصر فى عصر الفراعنة من الشمال الشرقى ومن الجنوب ومن الغرب •

---

(١) لويس ممفورد : المرجع اعلام . ص ١٤٢ •
(٢) عبد المنعم ابو بكر : مرجع سبق ذكره . ص ١٢٥ •

وعلى ذلك سنتحدث عن ذلك النمط العمرانى فى هذه الجهات[١] :

أولا : المدن والحصون الشرقيـة :

نشط انشاء الحصون فى هذه الجهة من مصر بعـد تزايد خطر البدو والأسيويين ، وقـد أملط « بترى » اللثام عن موقـع فى شرق الدلتـا على شـكل « كوم » تبين أنه بقايا قلعة حصينة ، تحمى حدود مصر الشرقية ، وبنى على شكل خلية من الصوامع القبابية التى تشبه المخـازن التى عثر عليها فى « بيثوم » وكانت هـذه تحتل الطـابق العلوى الذى تقيم فيـه الحاميـة على ارتفاع ثلاثة أمتـار ونصف فوق مستوى السـهل ، مما يتيـح للحراس الرؤية لمسـافة أميـال بوضوح ، وأحاط بالمكان سور ضخم سمكه ١٢ مترا وبارتفاع فى مثل ذلك السمك ، وفى الوسط يرتفع حصن القلعـة وهو بنـاء مستطيل الشكل من اللبن يكتنفه برج ، ووجد اسم ابسماتيك مما يدل على أنه أقـام به برجاله « البرونزيين » الذين قدموا من البحر ليراقبوا أى تسلل من الحدود الشرقية للدلتا • وكان حصن « دفنه » هذا أقدم من زمن ابسماتيك[٢] •

ويذكـر « بيكى » أن « نخـاو » الفـارسى ، و « دارا » و « بطليموس » أسهموا فى حفر وتنظيف القنـاة التى كانت تأخذ من النيـل وتمر ببوباسطس مخترقة وادى طميلات حتى البحيرات المرة ، ومنها الى البحر الأحمر حيث « تل القلزم » وتكشف الحفـائر بهذه الأخيرة ، والتى تنتمى للفترة الفرعونية ، عن أن الموقع أستغل كحامية عسكرية فى عهد الرعامسة •

---

(١) تجدر الاشارة الى أن المصريين القدماء اقاموا حصونهم هـذه على حدود البلاد وحيث كان الاحتكاك بينهم وبين جيرانهم أو الطامعين فى غزو مصر ولا تعرف اية حصون اقيمت داخل البلاد لغرض الدفاع الا القليل وبعضها مشكوك فى كونه حصونا بمعنى الكلمة . راجع :

محمد ابو المحاسن عصفور : بين الفنون والبيئة فى كل من العراق ومصر فى عصورها القديمة ، مجلة كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية المجلد (٢١) سنة ١٩٦٧ . ص ٢٣٥ — ٢٣٦ •

(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٥٨ — ٧٨ •

ولعله مما يشير الى الحس الجغرافي للفراعنة في اختيـار مواقع الحصون ، أن الملك « اختوى » أوصى ابنه « مرى كارع » من أواخر الأسرة الاهناسية العـاشرة ، الى أهمية منطقة البحيرات المرة وضرورة انشـاء الحصون بها ، وخاصـة لردع البدو ، وأشار الملك المذكور الى ضرورة تحصين جزء منها وغمر جزء آخر بالمـاء[١] .

وتميزت حصون الدلتـا ، بأنهـا تقـام في منـاطق انتقاليـة Transitional مثلما هو الحـال بين (المنطقـة الدلتاوية الغنيـة والصحراء التي تليها شرقا وغربا . وكانت حركة انشـاء هذه الحصون تزيد حين يلمح الفراعنة خطـرا محدقا من جهـة الشرق مثلما فطن رمسيس الثاني لخطر الحيثيين وغيرهم .

وقد أشار « سنوحى » للأسوار التي أقيمت لصد غارات الساتي ، وهم جماعات البدو في الصحراء الشرقية ، اذ فطن المصريون لأهمية أقامة الحصون هناك منذ بواكير عهـد الأسرات . ويدل على ذلك أن الكثيرين من ملوك مصر كانوا ينعتون أنفسهم بأن كل منهـم « سور مصر العظيم » وفي عهد الدولة الوسطى أقيمت العديد من الحصون منها حصن أمنمحات الأول في شمال شرق مصر لحماية مصر من غارات البدو وكان يدعى جدار الأمير . وفي الدولة الحديثة أنشأ رميسيس حصونا في « تل الرطابة » ، « تل المسخوطة » وغيرهما وكان حصن « ثارو » يشرف على مدخل مصر من الشرق وأنه كان مركزا لخطوط الدفاع عنها من هذه الجهـة ، وتتجلى أهميـة الاستراتيجية في أن البحيرات التي كانت واقعة جنوبى شرقى بحيرة المنزلة تترك لسـانا ضيقا من الأرض بينها وبين البحيرات المرة ومنه كان طريق حورس الى غزة عن طريق العريش ، ويدل على أهمية هذا الحصن أن كلا من رمسيس الأول ، وسيتى الأول عملا كقادة لهذا الحصن قبل توليهما العـرش[١] .

---

(١) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ١٧٤ .
(٢) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٣ — ١٥ .
(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٨٥ — ٩١ .

ولعل مما يشير الى أهمية حصون الشرق حرب التحرير بعد غزو الهكسوس وقيـام العاصمة المصرية « المحصنة » فى شرق البـلاد وفى الأوقات التى نمت فيها امبراطورية مصر فى آسيا ، أو التى تحسب فيها الحكام خطرا موشكا على البـلاد من الشرق .

ثانيا : مدن الحصون والحماية الجنوبية :

وهذه كان لها شأن كبير ليس فقط فى حماية وتدعيم حدود مصر الجنوبية ، ولكن أيضـا فى التجـارة والاتصال التجـارى بين مصر وما يليها جنوبا . وكانت هذه الحصون تكمل حصون مصر فى الجنوب مع الحصون الكائنة فى جهاتها الأخرى . وكان « هيردوت » من الذين لاحظوا توزيع هذه الحصون جغرافيا ، زمن « ابسماتيك » وارتباطها بمصادر الخطر الخـارجى ، فذكر « اليفانتينا » فى الجنوب (تجـاه الأثيوبيين — يقصد النوبيين) ، ودافناى أو (دفنة) تجـاه آسيا ، ومارية تجـاه ليبيا[١] وقد وردت اشارات كثيرة الى حصون الجنوب فى النوبة ، وتجدر الاشارة الى أن الدمـاء المصرية اختلطت كثيرا فى مـدن مصر الجنوبية ، وكانت طيبـة كاكبر مدن الجنوب — حتى فى الفترات التى لم تختر فيهـا كعاصمة — ذات صـلات واسعة مـع الجنوب وسبقت الاشارة الى زيادة أعداد النوبيين فى طيبة وامتزاجهم ثقافيا وتأثرهم بالعبادات المصرية .

ويعد أقـدم الحصون المصرية الباقيـة فى الجنوب هو حصن « ابيدوس » ويرجع الى الأسرة الثانية ، ويعرف الآن « بالشونة » أو « شونة الزبيب »[٢] وسمك جدار هذا الحصن ١٧ قدما وارتفاعه ٣٤ قدما وطوله ٤٠٧ قدما وعرضه ٢١٠ قدما ، لاويحيط به ممر عرضـه ١٠,٥ قدما ، يليه حائط مرتفع سمكه ٩,٥ قدما وبـه أبواب أشـبه بالحجرات ويوجد بجواره قلعتان من طرازه .

وزادت الحصون فى الجنوب ، وفى عهـد الأسرة (١٢) اتبـع

---

(١) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٠٨ .
(٢) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٣ .

المصريون فى بنـــاء الحصون طرازا جديدا كما هو الحـــال فى حصن ســـمنة .

ومما يدل على زيادة الحصون فى عهد الدولة الوسطى ، أنه كان هناك فى النوبة ٧ قلاع تمتد على مدى ٤٠ ميـــلا من الجندل الثانى ، معظمها فوق روابى ، وعدد منها فوق الجزر ، وقد صممت بغير شك لتكون مواضع دفاعية كما يتضح من أسمائها مثل « التى تطرد القبائل » أو التى تكبح الصحراوات وهى منشآت ضخمة لها جدران سميكة من اللبن ، وتدور حول مساحة لايواء العديد من الموظفين والكتاب والحاميات اللازمة وأشهرها ما بنـــاه سنوسرت الثالث[٢] . وكان نشاط انشاء هذه الحصون ، مرتبط بنشاط واتساع مصر حتى الجندل الثانى بدلا من الأول ، ومحاولة الملوك صد غارات الجنوبيين[٣] .

وتجدر الاشـــارة الى أن هـــذه الحصون كنمط عمرانى ، كانت وظيفتها الرئيسية صد الغـــارات الأجنبية أساسا ، ولكن بعضها كان مزدوج الوظيفة بمعنى صد غارات الاعـــداء من ناحية وتنظيم مرور التجـــارة أيضـــا ، كذلك كان مزدوج الوظيفة من زاوية أخرى ، هى أنه بينما كان الحصن أساسا لصد غارات الأجانب ، بنى بعضها مزدوج الوظيفة ، كمـــا نرى ذلك فى الحصون التى أقامهـــا أمراء الجنوب فى طيبة لصد النوبيين أو الليبيين ، وكذا لوظيفة داخلية ، كما هو الحـــال عندما احتدم الخـــلاف والحروب بين ملوك أهناسيا ، وأمراء طيبة فى عهد الأسرتين ٩ ، ١٠[١] .

ولفهم دور هذه الحصون فى جنوب مصر ، نشير الى أن النوبة العليـــا آنذاك كانت تسمى « كوش » وكانت « نبـــاتا » عاصمتها ، بينما كانت مروى القديمة مركزها الادارى[٢] .

---

(١) المرجع اعلاه . ص ٣١٣ — ٣١٥ .
(٢) جاردنر : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٦ .
(٣) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢٣٣ .
(٤) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . جزء ١٠ ، ص ٤٥٢ .
(٥) سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ١٧٨ .

واذا تطرقنا لمراحل انشـــاء هــذه الحصون ، نجــد مثلا أن حمــلات « سنوسرت الثـــالث » على النوبة قـــد تطلبت اتخاذه مدينـــة « الفنتين » قاعدة لجيوشه ومؤنه أى مثلث رأس حربة يتقدم منهـــا للجنوب • ومن أجــل الوصول لهذه القـــاعدة بسهولة ، أمـــر بحفر قنـــاة فى منطقـــة الشلال للوصول لها بالسفن وتشير الدلائل الى أن المصرى القديم ، كان يهاجر الى النوبة وذلك لبعض أعماله وكان ذلك فى نهـــاية الدولة الوسطى ، وأن لم يكن ذلك على نطـــاق واســـع ، وكان لا يسكن هناك الا فى الاماكن احصنة[1] •

واذا ما تحدثنا عن تخطيط هذه الحصون والمدن الدفاعية ، نجد أنها تطورت مع الزمن شأنها فى ذلك شأن المدن ذاتها • فكان من أوائل حصون مصر كما سبق حصن هيراكونبوليس (الكوم الأحمر) ، الذى شيد عند حافة الصحراء للدفاع عن المدينة ، وكان ذلك الحصن الباكر يتألف من سورين ، أحدهما من داخل الآخر ، وكان السور الخارجى أقل ارتفاعا من السور الداخلى ، وأقل من نصف سمكه • وتميز السور الداخلى بأنه تتخلل سطحه الخارجى دعامات ، ويكتنف مدخله برجان متقاربان ، مما يمكن من حسن الدفاع عنه[2] ، وأمـــا حصون الفترات التالية فتميزت بالتطور بما يحقق مزيدا من الحماية والدفاع •

وعلى أية حـــال ، فمحاولة التعرف على الملامح العمرانية لهذا النمط من محـــلات العمران ، تقابل بالعديد من المشكلات الناجمة عن نقص المعلومات شأنها فى ذلك شأن بقية المحلات • وان كانت الأمثلة الراجعة للدولة الحديثة تقدم فرصـــا أفضـــل لذلك ، حين وصـــل المصريون القدماء الى الجندل الرابع ، وأول ما يلفت النظر فى النمط العمرانى هناك أنه متماثل لكل فئـــة ، بمعنى أن حصـــون المنـــاطق السهلية كان معظمها متشابها ، وحصون المنـــاطق الجبلية أو الجزر أيضـــا كانت متماثلة • ويستنتج من ذلك ، أن مخططى هذه المحـــلات تأثروا بمعطيات البيئة الجغرافية •

---

(١) المرجع أعـــلاه ، ص ١٤٠ ، ص ١٧٨ •
(٢) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره • ص ٨٠ — ٨٦ •

وعلى وجه العموم ، كان الجـزء الرئيسى من هـذه المحـلات والحصون مربعـا أو مستطيلا ، ومطوقا بسـور من الطوب اللبن ، وأضيفت أبراج مربعـة للسور الخـارجى وذلك على أبعـاد معينة على طول جوانبه ، كذلك فى الأركان وألحق بالسور بوابات حجرية وكانت المدينة الكائنة داخـل ذلك السياج مخططه حول مجموعة من الشوارع الضيقة ، التى تملأ مساحة مستطيلة نسبيا ، وذات شبكة متعـامدة ، وان لحق التغيير بهذه الخطـة أحيـانا كما فى منطقـة Amara west والى حـد ما فى منطقة sesebi حيث تحولت الخطـة شيئا فشيئا الى خطـة عشوائية organic layout وكان السور يحيط بثلاثة أنواع من المبـانى ، أكثرها شيوعا هى معبد حجرى البنـاء ، ذا طابـع وتصميم مصرى ، مثل ذلك الذى وجد فى منطقـة soleb وكان يضـارع بعض المعـابد الرائعة فى مصر ذاتها ، وكان يتصـل به مجموعة من « البلوكات » ومجموعة من المخـازن الضيقة ، ربما من أجـل الانتـاج الزراعى ، وفى بعض الأحيـان للمواد الخـام التى يحصـل عليها من الاستغلال المحلى أو من التجـارة فيما وراء الحدود[١] • وكانت بقية المساحة مخصصة للمبـانى المنزلية والادارية وكانت من الطوب اللبن • ويشمل ذلك المقر الحكومى المدنى ، وقـد دلت الحفائر خارج أسوار المدينة فى منطقة Amarawest على وجود بعض المبـانى المتطورة من الطوب ، ذات جدران بنيت بطوب أصغر حجما وتمثل ذلك فى بعض المنـازل التى بنى أحدها فى مقـابل أسوار المدينة مبـاشرة • ووجود المعبد فى التركيب الداخلى للمدينـة كان يوحى بأنه قلب الدفاع المصرى ، ضد الفوضى والعدوان من الأراضى الخارجية ، بما أن الاله هو الذى يقطن داخله •

وأما عن تأثر المصريين بطوبغرافية المناطق التى بنيت فوقهـا هذه الأنماط من المحـلات فنجد أمثلة عديدة له •

ففى المنـاطق المتسعة الفسيحة السهلية ، بنيت المحلة متسعة ، تشغل الجزء الأوسط منه قلعة مستطيلة محاطة بسياج ضخم فى شكل

(1) Kemp., B. J., Fortified towns in Nubia, in ucko. P.; Trilagham, R., & Dimbleby, G., op. cit., 1972, p. 651.

سور من اللبن يطوقها وله أبراج مربعــة على طول الجوانب ، وكذا عند الأركان • وتحوى خنــادق ، فى بعض الحــالات •

وقد حظيت البوابات بتحصينات خاصــة ، كذلك شيدت بعض الخنــادق باستخدام الحجر ، من الداخل واتصلت بالنهر اتصــالا سفليا وذلك لتــأمين الامداد بالميــاه • ووجهت أهمية خاصــة لخط الدفاع الخــاص بحماية السور الرئيسى المطوق للمحلة ، ومنع نقبة ، أو الهجــوم عليــه ، أو قصفه ، ولذا أنشئت بعض فتحــات الرماية Loophole وشيدت المتــاريس وذلك على طول الحــافة الداخليــة للخندق ، وذلك على مسافات معينــة •

وفى داخل تلك القلعة فان المبــانى كانت عديدة ، وغالبــا ذات طوابق متعددة ، متمشية مــع المخطــة ذات الزوايا القائمة ، والتى يحدها طريق بجانب السور الرئيسى[1] •

وكانت حصون المناطق السهلية مرتبطة بالنوبة السفلى ، بينمــا حصون المنــاطق الجبلية مرتبطة بالنوبة العليا • ومن أمثلة الحصون سابقة الذكر فى المنــاطق السهلية ، حصن « فرس » (ويــلاحظ أن النهر غير مجراه فى المنطقة وأصبح الحصن بعيدا عنــه) وكان يجاور الحصن مينــاءه النهرى ، وكانت أقوى التحصينات التى سبق لنــا ذكرها تقــام على ضلع الحصن المواجه أو المطل على اليابسة ، لمــا كان معروفا عن صعوبة الهجوم من جهــة المــاء ، لذا كان التحصين فى الضلع المطــل على اليابس عظيمــا ، وكان ذلك الجانب نفسه مائلا ومنحدرا لتصعيب الهجوم على العدو[2] •

ويشير « بترى » الى أن الخشب استخدم فى بنــاء الحصون لزيادة تدعيمها ولا سيما وقد بنيت من اللبن ، حتى اذا أحدث العدو « ثغرة » فى البنــاء ظل متماسكا ولا ينهــار ويرجــع استخدامه فى الحصون الى عهد الملك « سنفرو »[3] •

---

(١) Kemp. B. J., op. cit., 1972, pp. 652 - 56.

(٢) سليم حسن : مرجع سبق ذكره ص ١٦٩ — ١٧٢ •

(٣) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٣ — ١٥ •

ويشير أيضــا الى أن أول تطوير فى بنــاء مثل هذه المحــلات من الطوب (الآجر) كان فى عهد الرومان •

ومن الحصون التى بنيت فى المنــاطق ذات الطبيعــة الوعرة ، استفاد المصريون من خصــائص الموضع فى بنــاء حصون مختلفــة فى نمطها عن حصون المنــاطق الســهلية نوعا التى سبقت الاشــارة اليها • وهذه الحصون فى المناطق الوعرة كانت فى النوبة العليا ، ومثالها حصون سمنة الغرب وسمنة الشرق (قمة) حيث يضيق مجرى النهر وتعترضــه صخور تمتد الى شاطئيه •

أما حصن سمنة الغرب فكان أول الأمر مستطيلا ثم زيد فيه من أحد جانبيه ، ويحيط به خندق عرضه ٢٦ مترا فى المتوســط • وتبرز من سطوح جدرانه الخارجية فى الجنوب والغرب والشــمال دعامات أو أبراج على مسافات غير منتظمة • ويختلف سمك الجدران من ٦ — ٨ أمتــار ، ويرجح أن مدخله كان الى الشمال منــه •

أما حصن سمنة الشرق (قمة) فيعلو ربوة عاليــة تشرف على النيل ، ويخلو جداره من الأبراج ، أو الدعائم الا عند مدخله لحمايته ، وبالقرب من الجهة الشمالية الغربية درج يؤدى الى النيــل ، ويحميه جدران سميكة ، وكان بالقرب من جــداره الشمالى معبد يرجع لعهد حتشبسوت وتحتمس الثالث •

وكان يجتــاز كل من الحصنين طرق رئيسية ، تتفرع منها طرق فرعية تقع عليها مكاتب الموظفين والاداريين ، والحاميــة ومساكنهم ، وخــارج كل حصن كانت بيوت غير المصريين وقبور الموتى •

ومن الحصون الهــامة الأخرى حصن « بوهين » جنوب الجندل الثانى مبــاشرة ، وبالقــرب من « وادى حلفــا » ، وكان من حوله خندق عميق ، وعلى جانبــه الخــارجى جدار من اللبن يعلوه طريق مسقوف يحمى خط الدفاع الأول ، وعلى الجــانب الداخلى جــدار آخر من اللبن ، وتتخلله أبراج مستديرة ، تشرف على الخنــدق وبه بعض « الكوات » بحيث يمكن أن تصوب منها الســهام الى أى مكان

بالخندق وبحيث كان لكل مدافع ثلاثة كوات فى المكان الواحد[١] ، وكان من أهم منشآت الحصون انشاءات خاصة بتأمين الحصول على المساء وخاصة الحصون الصحراوية والتى كانت ترتبط بالنيل « بممر سرى » كما كان عليه الحسال فى حصن « سمنة » ، وحصن « ورنرتى »[٢] .

ويمكن أن نضيف الى النمطين العمرانيين السابقين نمطا ثالثا هو محسلات وحصون الجزر النيلية .

وقسد دلت الآثار على وجود العسديد منهسا لمسا يقدمه الموقع الجزرى من حماية ، ومن ذلك ما كان قائما فى جزيرة أسوان والفنتين ، التى مثلت نقطة الانطلاق المصرية نحو الجنوب وقلعة مصر الجنوبية ، كذلك تشير الدلائل الى بناء حصن فى جزيرة « ساس » زمن تحوتمس الثالث[٣] وتجدر الاشارة الى أنه كان هنساك حصون توأمية (على جانبى النهر) منها حصن معسام وهى عنيبة الحديثة ، بالاضافة الى جزيرة وسط النيل[٤] اتخذت أيضا كحصن .

ثالثا : مدن الحصون والحماية الغربية :

وكانت هسذه تكمل احكام الحصسار على المنافذ التى يأتى منها المغيرين على حدود مصر ، وخاصة المعمور الزراعى من قبل بدو المغرب .

وقد فطن الفراعنة للخطر الداهم الذى يقدم بين فترة وأخسرى من الجهسة الغربيسة ، ومن هسؤلاء « رمسيس الثانى » ، الذى بنى حصونا عديدة فى الجهسة الغربية وغيرها فى الشرق ، ومن ذلك ما أقامه فى غرب الدلتا والساحل الشمالى لسلسلة من الحصسون مثل حصن « الغربانيسات » غرب برج العرب ، والذى لم يبق منسه الا القليل . وكان فى وسطه معبدا باسم رمسيس الثانى . وكان هناك حصن آخر فى العلمين ، أما آخر هذه السلسلة من الحصون الغربيسة فكان عند زاوية « أم الرخم » غربى مرسى مطروح ، مما يدل على نظسرة ذلك

---

(١) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٨٥ — ٩٠ .
(٢) سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ١٦٩ — ٧٢ .
(٣) المرجع اعسلاه ، ص ١٤٧ .
(٤) المرجع اعسلاه — ص ١٥٦ .

الفرعون الثاقبة لمنافذ الخطر ، وكذا نظرته الجغرافية الخاصة بتباعد هذه المحـلات الدفاعية على مسافات معينة تمكنه من تدارك الخطر حين وجود هجوم قادم من الغرب ، مثلما تحسب للهجوم المحتمـل من الجنوب والشرق[١] .

ولأهمية مواضع حصون الجهـات الغربيـة ، فطن الفراعنـة لأهميـة النقـاط الانتقاليـة Transtional points بين المعمـور والصحراء ، فأقاموا الحصون بها ، سواء فى غرب أو فى شرق الدلتا ، وفى عهد رمسيس الثالث حدثت مواجهـة بين المصريين والليبيين ، هزم فيها الأخيرين شر هزيمـة عند حدود مصر الغربيـة ، حين كانوا فى طريقهم الى منف وذلك عند مدينة هامـة فى غرب الدلتـا هى اليوم « مكان كوم ابوللو » لموقعها الهـام أمام الدرب الموصل من الصحراء الى الدلتا عن طريق وادى النطرون[٢] ، ويرى « محمد رمزى » أنها اليوم هى الطرانة فى مركز كوم حمـادة ، وأسمها المصرى بير رانوت Per Ranmout [٣] بـل أكثر من ذلك فان التواجد المصرى العمرانى والادارى فى الواحات الغربيـة مثل البحرية والفرافرة والخـارجة والداخلة منذ الأسرة السادسة لم يقصـد منه حماية طرق التجـارة فحسب ، بل أيضـا أحبـاط اعتداءات البدو .

محـلات المستودعات التجـارية ومراقبة التجـارة النيلية :

نمت بعض المحلات النيلية فى مصر لتؤدى وظيفة خاصة ، وهى خدمة التجـارة والملاحة ، ومن هنا كانت أهمية المواضع النهرية التى كفلت لهذه المحـلات الاضطلاع بوظيفتها . وكان من أهم المنـاطق التى ظهرت فيهـا هذه الوظيفة هى منطقـة النوبة فى الجنوب ، وكذا الدلتا بفروعها النيلية العديدة والتى ظهر بها موانى ومدن نهرية هامة لا سيما فى الفترة الفرعونية المتأخرة وعصر البطالمة .

---

(١) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره ، صفحات متعددة .
(٢) المرجع اعـلاه ، ص ٣٧٢ .
(٣) محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى سنة ١٩٤٥ . الجزء الثالث ، القسم الثالث . ص ٣٣٣ .

وقد سبق الحديث عن الحصـــون والحماية ، وجدير بالذكر أن العديد من هذه المدن الدفاعية قد اضطلع فى الوقت نفسه بوظيفة مدن المستودعات ومراقبة التجـــارة وتحصيل المكوس ، وما الى ذلك .

أمـــا اذا تحدثنا عن مدن المستودعات التجـــارية الجنوبيـــة فى النوبة وفى شمالها ، فاننا نجد أن هذه المدن قـــد أثر فى موقعها تأثيرا شديدا ، طبيعة « الايكيومين » الذى تخدمه ، وليس أدل على ذلك من موقع مدينة وحصن « كرمة » التى مثلت الحـــد الشمالى للمنطقـــة الزراعية الغنية نسبيا بالمقارنة بالمنطقة الواقعـــة بين الجندل الثانى والثالث ، والتى لا تغرى بالزراعة بالاضافة الى صعوباتها الملاحية ، لذلك نشطت كرمة كمحطة تجـــارية ، وان كانت المنطقة الواقعـــة الى شمالها كونت منطقـــة انقطاع بين مصر والمنطقة الغنيـــة نسبيا الى جنوب كرمة ، التى عـــلاوة على أهميتها كحصن وميـنـــاء كانت هامة كملتقى للقوافل ، وكان فى كرمة جالية مصرية ، وكان المركز التجارى المصرى بها محصنا كمـــا تقدم ذكـــره بالنظر الى موقعهـــا الجنوبى المتقـــدم .

وجدير بالذكر أيضـــا ، أن نشاط تلك الوظيفة التجارية والملاحية لهذه المحـــلات قد ارتبط بفترات توســـع مصر فى الخـــارج وزيادة ثروتها وخاصة زمن الدولة الحديثة . حيث توسعت الموانى الدلتاوية ، وزادت الحركة والرحلات الملاحيـــة بينها وبين موانى البحر المتوسط ومنطقة بحر ايجة بالذات مما جعـــل موانى الدلتا تنتعش بالمقـــارنة بفترة غزو الهكسوس وفى مقابل زيادة الجاليات الأجنبية بهذه الموانى المصرية ، زاد عدد الجالية المصرية فى الموانى الأجنبيـــة . وعلى ذلك لعبت هذه الموانى بالاضافة لكونها مراكز تجـــارية وظيفة ودورا ثقافيا حضاريا ، لا يقل أهمية عن دورها الرئيسى ، وظهر التمثيل السياسى بين مصر والخـــارج وأيضـــا التمثيل الاقتصادى ، وتركز ذلك التمثيل فى المدن الكبرى والموانى .

كذلك زادت حركة الهجرة من مصر واليها زيادة غير عادية ، وهنا يمكن تمييز نوعين من الهجرة فى الموانى المصرية ، الأولى اختيارية ، أما الثانية فهى هجرة أسرى الحرب .

ومن دلائل التأثير الثقافى للاجانب فى المدن المصرية والناجم عن زيادة حركة التجارة والوظيفة التجارية لمدن المستودعات ، ظهور تغيرات فى عمارة المنازل ، وغرس الحدائق ، خلافا لما كان متبعا فى مصر من قبل[١] ، وان كانت تلك الملاحظة عن « ولسون » غير صادقة تماما اذ عرف المصريون الحدائق الملحقة بالمنازل منذ فترة أقدم من فترة اتصالهم المكثف بالخارج ، وظهرت الحدائق كمعلم هام من معالم خطة المدينة واستخدام الأرض بها كما تشير لذلك آثار عديدة من الآثار التى ترجع الى ما قبل عهد الامبراطورية ، وكانت بعض هذه التأثيرات الأجنبية مستقاة من منطقة بحرايجة وميناء كريت ورودس •

أما التأثيرات الأجنبية فى المدن النهرية الجنوبية فكان أغلبها بالطبع يستقى من النوبة وما يليها جنوبا ، يدل على ذلك ما ذكره « هيردوت » عن دور المصريين فى منطقة كوش والنوبة العليا وواوات « النوبة السفلى » اذ ذكر أن هناك مدينة « تاخمبو » عند حدود مصر الجنوبية[٢] وأشار الى سكنى كل من المصريين والأثيوبيين (يقصد النوبيين) ، مما يدل على أن الموقع الجنوبى للمدينة قد أثر على التركيب العرقى للسكان بها وغلبة العناصر الافريقية فيها على عكس مدن المستودعات التجارية الدلتاوية فى الشمال من مصر • ومثل تلك الملاحظة التى لاحظها هيردوت لاحظها « استرابو » عن مدينة فيلة فى الجنوب أيضا •

ويلاحظ — كما سبق الذكر — أن الوظيفة الحربية والتجارية قد تلازمتا ، لا سيما فى المدن والموانى المصرية الجنوبية ، من ذلك أن أمنمحات الأول بعد تشييده لحصن « سمنة » الحربى فى جنوب الجندل الثانى ، قام بتأسيس المركز التجارى فى كرمة •

وفى مقابل المدن ذات الصلات بالخارج سواء فى مدن الدلتا القريبة من البحر المتوسط شمالا أو مدن النوبة عند الحدود

(١) جون ولسون : مرجع سبق ذكره • ص ٣١٠ •
(٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره • ص ٧٦ — ١٠٦ •

المصرية الجنوبية ، كان هناك حركة تجارية وملاحة نيلية داخلية ؛ بدأت فى عصر الاتحاد الأول ، وأبدت نشاطا كبيرا نتيجة التقدم فى صناعة الأدوات والآلات ، مما ساعد على تشجيع التبادل التجارى بين المدن المختلفة . وكثيرا ما نرى تلك المراكب مرسومة على جدران المقابر ، وكانت صفحة النيل زاخرة بها ، وكانت البضائع اما ضرائب مرسلة الى الخزانة العامة الملكية فى العاصمة ، أو سلعا من سلع التبادل التجارى فى طريقها الى أسواق المدن التى يتم فيها التبادل مع أرباب الحرف المختلفة ، اذ أن تبادل النقد لم يكن معروفا ، وكان تبادل السلع هو الشائع فقط ، وان تطور ذلك التبادل فيما بعد اعتمادا على بعض الحلقات النحاسية[٢] . وقد ذكر « هيردوت » أن مدن الملاحة النيلية هذه تجل عن الحصر ، ويجب ملاحظة أن الكثير من هذه المدن كان له أهمية أثناء انحسار الفيضان حيث الحركة النهرية للنقل محصورة فى النيل وفروعه ومن ذلك مثلا « الطريق المائى المار بالمدن النهرية التى أشار اليها هيردوت » مثلا «نقراطيس» و «ممفيس» مرورا بمدينة « كوركاسوروس »[٣] .

وكانت نقراطيس على الشاطىء الشرقى للفرع الكانوبى قرب الاسكندرية وكان بها حركة تجارية أغريقية كبيرة استمرت حتى سلبتها الاسكندرية أهميتها التجارية بعد انشائها . أما « كوركاسوروس » فكانت قرب رأس الدلتا حيث يتفرع النيل الى فروعه الدلتاوية وتقع اليوم محلها « الوراق » بالجيزة غربى النيل .

ومما يدل على التوجيه الجغرافى لمدن المستودعات والملاحة التجارية ، أنه بينما اضطلعت هذه المحلات بوظائفها الخاصة بمنتجات النوبة فى الجنوب وكان أهمها الذهب والمعادن والمنتجات الافريقية ، كما فى كرمة التى عندها كان يجب أن تؤدى الضرائب ، نجد أنه فيما بعد وفى عهد البطالمة ومن بعدهم اضطلعت مدن ثغور الدلتا

---

(١) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٢١٢ .
(٢) جيمس هنرى برستد : انتصار الحضارة ، ترجمة احمد فخرى : مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ . ص ٩٨ — ٩٤ .
(٣) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٠ .

بتلك الوظيفة ولكن مع منتجـات الأقاليم الدلتاوية وكذا مع الواردات الأجنبية من الخـارج من منطقة حوض البحر المتوسـط . وفى زمن الرومان كان هناك بعض الثغور تؤدى بها الضرائب على الملاحة للسفن المتجهة جنوبا ومن ذلك ثغر شديا Schedia أو سخديا ، وهو ثغر نهرى قديم مكانه اليوم « النشو البحرى » شمال كفر الدوار ، وكانت تقع عند ملتقى ترعة شديا القديمـة — التى حفرها البطـالمة لامداد الاسكندرية بالمـاء العذب — من فرع النيـل الكانوبى .

أما السفن الآتية من الجنوب فكانت تدفع الضرائب عند مدينة هيرموبوليس Hermopolis كذلك كانت الضرائب تفرض على البضائع الواردة عن طـريق البحر الأحمـر وتحصل فى مدينة « قفط » بنظام الالتزام[١] (حيث مثلت ثنية قنا وموضع قفط عليها اقترابا لمنطقـة البحر الأحمر يضـاف الى ذلك أن قفط كانت عند نهاية الوادى الذى ييسر الاتصـال بين النيـل ومنطقـة البحر الأحمر) .

وفى الفترات التى كانت مصر يتهددها الغزو والأطماع الأجنبية كانت هـذه المراكز التجارية تدعمهـا الحصون التى تحرسها ، تقوم بمراقبة حـركة الهجرة الى مصر والتسلل الأجنبى كما كان الحال فى محطات ومستودعات التجارة النيلية المصرية فى النوبة ، والتى كان من أهمها ميناء التفريغ فى « بهين » تجاه « وادى حلفا » مبـاشرة ، لأن هذه المنطقة هى النقطة النهائية للتجارة النهرية ، بينما لم تساعد طبيعة الأرض الوعرة فى الجنوب عنـد « سـمنه » فى اقامة موانى تفريغ ، فأنشىء هناك حصن للحماية .

وكانت مدن التجارة والمسـتودعات علاوة على وظائفها الهـامة فى النوبة تعكس تأثيرات مصرية خالصة فى النواحى المـادية والبشرية هناك ، فعـلاوة على تأثيراتها البشرية مثـل زيادة الدماء المصرية فى

---

(١) بترى : مرجع سبق ذكره . ص ١٣٧ — ١٣٩ .
(٢) سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ١٦٨ .

السكان والتأثير الحضارى ، نجد أن المؤسسات المادية كالمساكن والمبانى قد تأثرت أيضا بالصبغة امرية ، ومن ذلك أنه فى المستودعات التجارية فى كرمه ، نجدها عكست الأثر المصرى فى البنساء ، فقد بنيت بحسب المقاييس والأبعاد المصرية فكان أحد المبانى الهسامة ذا أبعاد هى ١٠٠ ذراع (٥ر٥٤ مترا) × ٥٠ ذراع (٧ر٢٦ مترا) ولكن مع ذلك فان اللبنات التى بنى بها تختلف عن اللبنات المصرية العادية ، كما أن البناء جرى استخدام الخشب فيه داخل صلب المبانى لتقويتها ، وكان ارتفاع المبنى ٣ر١٩ مترا عند الكشف عنه وكان دوره العلوى مخصص للسكن والمؤن ، كذلك الحق به مبنى اضافيا فى الجهة الشرقية[١] .

هنالك نقطة أخيرة تتعلق بموضوع مدن الموانى النيلية ، هى أن طبيعة العمران شمال المركز التجارى « كرمه » وصعوبة الملاحة النهرية قد أثر فى نمو ونشاط طرق القوافل التجارية منها حتى الجندل الثانى ، حيث تتحول التجارة من الطرق البرية الى النقل المائى[٢] ، ومع ذلك ، فان المنطقة بين الجندلين الثانى والثالث تعد منطقة انقطاع بالنسبة للنقل المائى مما أثر على نمو وتوزيع محلات الموانى والمستودعات التجارية فى المنطقة .

وكما سبق القول فان مدن التجارة واكبت فى نموها نمو الحضرية المصرية القديمة ذاتها ، من ذلك أن « القنتين » كانت أقصى محطة تجارية فى الجنوب فى عهد ما قبل الأسرات[٣] بينما نجد أن المحطات التجارية نمت وامتدت جنوبا الى مسافات أبعد لا سيما فى عهد الامبراطورية .

كذلك لاحظنا أنه فى بعض فترات التاريخ المصرى ، وحين سيطرت الوظيفة التجارية ، والعقلية التجارية ، كما كان الحال ابان الأسرة ٢٦ وجدنا أن مدن الدلتا صبغت بهذه الوظيفة عموما ، بينما كان الصعيد منتجا للغلال أساسا مما انعكس على مدنه وجعل هناك فرقا بين مدن الدلتا ومدن الصعيد مرجعة الاختلاف فى درجة تأثير الوظيفة التجارية .

---

(١) المرجع اعلاه ، ص ١٩٢ .

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٥ .

(٣) Johnson, P., op. cit., 1978, p. 40.

مدن التعدين والمناجم والتحجير :

وهذه كان بعضها محلات عمرانية مؤقتة ، وبعضها اكتسب صفة الاقامة والسكن الدائم فيما بعد ، وأدى الاهتمام بهذه المحلات الى عناية ملوك مصر القديمة منذ أقدم العصور بتهيئة سبل الاتصال السهل اليها ، وتأمينها بحفر الآبار على طول الطريق اليها لمساعدة المسافرين وتأمين السفر ، مثال ذلك بئر وادى عباد الذى أقيم الى جانبها معبد صغير ، وهو المعبد المعروف باسم معبد الرديسية[1] وكانت حركة الاهتمام بمدن ومعسكرات المناجم والتعدين مزدهرة بخاصة زمن سيتى الأول من الأسرة ١٩ ، والذى ترجع الى عهده أول خريطة توضح الطرق الى بعض المناجم ومثل ذلك يقال عن عهد رمسيس الثانى .

غير أن نشاط انشاء مدن ومعسكرات التعدين لم يقتصر على فترة بعينها ، اذ كانت نشطة ابان الدولتين القديمة والوسطى أيضا ، وتحدثنا الآثار أنه فى عهد سنوسرت الأول ، وسلفه أمنمحات الأول نشطت بعثات التعدين والتحجير وقامت فى مواقع التعدين والمحاجر بعض المحلات شبه الدائمة يدل على ذلك وجود معابد بها خاصة فى منطقة سيناء .

أما أسباب قيام هذه المحلات التعدينية فكانت متعددة اذ ارتبطت بتوزيع المواد المعدنية والاحجار فى مصر القديمة مثل الفيروز فى سيناء ، والجمشت من وادى الهودى ، والجرانيت من أسوان ، ووادى الحمامات والديوريت من النوبة جنوبى غربى أبى سنبل ، والمرمر فى جنوب شرقى النيل فى الصحراء فى موقع يوجد على بعد ٢٥ كم شرقى تل العمارنة الحالية[2] . يضاف الى ذلك الذهب من مناطق جبال البحر الأحمر والذى عمل المصريون القدماء على تأمين تعدينه واستغلاله لارتباطه بأبهة الحكم وضرورته لعظمة الملوك

---

(١) احمد فخرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٤ .

(٢) احمد فخرى : المرجع اعلاه ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .

والكهنة من رجـال الدين فى المعابد ، أما المنطقة الثانية الهامة لتعدين الذهب فكانت منطقة النوبة السفلى (واوات) التى كانت لمصر بهـا معسكرات تعدينية ومدن صغيرة ، ترتبط فى وجودها بوجود المعـدن (الذهب) ، واهتم الفراعنة بتأمين الطرق والمسالك المؤدية الى حيث هذا المعدن ومناجمه وبخاصة المنـاطق المتحكمة فى مداخل الوديان ، كوادى العلاقى قرب « كوبان » ويدل الجدول التالى على أن استغلال الذهب كان ذو أهمية فى سنوات حكم الفراعنة[١] .

انتـاج الذهب من منطقـة واوات فى أربعـة سنين مختلفة

الســنة	المحصول بالدبن	ما يقابله بالكيلو جرام
الرابعة والثلاثون بعد حكم تحتمس الثالث	٢٥٥٤	٢٣٢ر٤
الثامنة والثلاثون بعد حكم تحتمس الثالث	٢٨٤٤	٢٥٨ر٨
الواحدةوالأربعون بعدحكم تحتمس الثالث	٣١٤٤ر٣	٢٨٦ر١
الثانية والأربعون بعد حكم تحتمس الثالث	٢٣٧٤ر١	٢١٦ر٠

وكان التعدين فى كوش (النوبة العليـا) أقل منـه فى واوات (النوبة السفلى) لصعوبة الوصول الى المناجم فى المنطقة الأولى .

وهناك ملاحظة هامة خاصة بالمدن التعدينية هذه ، أنهـا كمدن تعدين كثيرا ما كان يجرى هجرها وبخاصة فى حالة معسكرات العمل التعدينى شبه الدائمة والمتنقلة أيضـا ووجدت دلائل على أن تركيب السكان بها كان متنافرا نتيجة وفود العديد من سكان وجيران مصر والأسرى للعمل بها ، ففى مـدن سـيناء التعدينية ، كان يوجـد الآسيويون ، مما أوجد تأثيرا ثقافيا وحضاريا متبادلا ، كذلك عمـل الكنعانيون فى مـناجم الفيروز والنحـاس فى سرابيط الخـادم فى سيناء ، وان كان بعض العلمـاء يرى أن وجود الآسيويون فى مـناجم

---

(١) الجدول من سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٧ .

سيناء ومدنها التعدينية انما يرجع الى الدولة الوسطى وليس الحديثة[1] .

ومما يدل على كبر حجم هذه المحلات التعدينية ، كذلك مما يدل على أن الكثير منها كان دائم العمران ، أن واحدة من بعثات التعدين الملكية فى عهد الدولة الحديثة كانت تتألف من ٦٠٠٠ — ٨٠٠٠ شخصا ، وقد حددت وثيقة من عهد رمسيس الرابع ، جماعات التعدين والتحجير بحوالى ٩٣٦٨ شخصا فى بعثة واحدة ، كذلك ذكرت ألقابهم . وأعلن قائد احدى هذه البعثات وجماعات التعدين فى آخر عهد الدولة القديمة أن رجاله فى موقع التعدين يحتاجون الى حوالى ٥٠ رأسا من الماشية،٢٠٠ رأسا من الماعز يوميا لتغذية رجاله[2] . ومثل ذلك الوصف يدل على أن هذه المحلات —على الأقل بعضها — كان له صفة المحلات العمرانية الدائمة .

مدن الثقافة والاشعاع الحضارى :

وهذه لم يكن هناك من نظير لها ، حتى فى مصر ذاتها ، سوى القليل.كذا لم تتخصص فى ثقافة بعينها ، أو فى علم بذاته ، وانما تعددت منابع الثقافة بها والمعرفة ، ليتزود منها كل وافد عليها ليس من مصر فقط ولكن من خارجها أيضا ، لذلك فانه يمكننا القول بثقة تامة أن مجال نفوذ مثل تلك المدن فى مصر القديمة — كما هو شأن مراكز الثقافة العالمية اليوم — كان عالميا واسع الانتشار ، ودليل ذلك أن أساطين المفكرين والفلاسفة والأطباء من الاغريق ومنهم الاسكندر الأكبر نفسه الذى قدم القرابين للآلهة المصرية فى منف[3] ، ومن غيرهم جاءوا الى مصر ينهلون من علم مراكزها الثقافية هذه ، واعتبروها بلد الأطباء ، أحكم أهل الأرض ، وان حكمة مصر ألهمت المشرع « سولون »

(١) سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٣ .
(٢) جونسون : مرجع سبق ذكره . ص ١٠٩ — ١١٠ .
(٣) ابراهيم نصحى : الجزء الثانى ، ١٩٧٦ ، مرجع سبق ذكره . ص : ٢٩٠ .

وكذا الفيلسوف « طاليس » الذى تعلم من أسرار كهنتها ، ونقل عنهم الهندسة الى مواطنيه الاغريق ، وقد نصح طاليس تلميذه « بيتاجوراس » أن يتم دراسته مع الكهنة المصريين فقضى فى مصر ٢٢ عاما يتعلم الفلك والهندسة فى معابدها ، كذلك تعلم أفلاطون فيها الحكمة واللاهوت والعلوم ، هو وتلميذه « يودكسوس »[1] وكان من أهم تلك المراكز ذات الوظيفة الثقافية هى :

١ — هليوبوليس :

المدينة المصرية التى أطلقت عليها المتون اسم « أونو أفق السماء » وأعتبرت كموطن للالهة ، ويذكر أن المؤرخ « مانيتو » جمع تاريخه من سجلاتها ، ومما يدل على تعدد منابع العلم فى مدن مصر القديمة الثقافية أن هليوبوليس اشتهرت فى الفلك ، والدين والحكمة ، والطب ، وفيها كان ابتكار التقويم الشمسى لأول مرة فى العالم ، وكان لها مذاهبها الدينية والفلسفية التى لا تقارن بغيرها ، ويرى (عبد العزيز صالح) أنه كان بالمدينة نوع من التنافس بين علمائها وغيرهم منذ اختيرت المدينة كعاصمة لمصر فى فجر تاريخها ، وأصبحت ممثلة لحضارة الوجه البحرى فى مقابل مدن الصعيد كما يدل على ذلك ما جاء « بمتون الأهرام » .

كذلك يرى كل من Baines & Malek أن عقيدة « أون » ومذاهبها المقدسة قد ظلت العقيدة المصرية القديمة كلها ، كذلك تركزت الأهمية السياسية بها[2] ، وكان المعبد الرئيسى وكذا المدينة — على ما يبدو — محاطين بسور مزدوج سميك . وقدرت أبعاد المساحة المطوقة بحوالى ١١٠٠ متر×٤٧٥ مترا وان كانت النواحى الخاصة بالتاريخ المعمارى للموضع وطوبغرافيته ليست واضحة تماما[3] وكان للمدينة شهرة مماثلة فى

---

(١) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٦ . ص ٣٥١ .

(٢) Baines, J., & Malek, J., op. cit. 1980, p. 173.

(٣) Ibid., p. 173.

مجـالات الطب ومما يدل على الترابط بين العلوم أن المعبود حور كان يدعى كبير الأطبـاء .

٢ ـ أبيـدوس :

وكانت من مراكز الثقافة الهامة بين مدن مصر ، اشتهرت بأنهـا موطن الأسرة الأوزيرية ، وهى Abedju المصرية القديمة أو Ebot القبطية ، وكانت أهم منـاطق الدفن فى مصر فى بداية عهد الأسرات المصرية ، وأمكن تتبع عمرانها فى الزمن الى عهد أو فترة نقادة الأولى فى فترة ما قبل الأسرات[1] . وفى عهد الدولة الوسطى كانت أبيدوس أشهر المراكز المقدسـة بالبـلاد ، وكانت المدينة لذلك مركزا للاشعاع الثقافى فى النواحى الخاصة بالعبـادة والديانة .

٣ ـ منـف :

وهذه عـلاوة على ما نعلمه من وظيفتها كعاصمة ، كانت مركزا من مراكز الفكـر والثقافة ، وكان تجـاورها مع هليوبوليس مذكيا لروح التنافس والابداع العلمى ، ويمكن القول بلغة جغرافية المدن الحديثة أن مجـال نفوذ كل منهما كان متداخلا مع الآخر ، وبدا ذلك التنافس فى أن كل منهما كان له مذهبه الخاص بخلق الكون وبعد انتقال العاصمة من منف ظلت لها أهميتها الثقافية والدينية ويدل على ذلك أن شهرة منف ومذهبها الدينى كانت تتردد بين جنبـات العاصمة طيبة ذاتها مما يدل على اتساع مجـال نفوذها الثقافى ، كذلك كانت المدن الأخرى تفخر بأن كهنتها ومثقفيها قد تخرجوا فى منف[2] مما يشابه ما نراه اليوم من شهرة لبعض مدن الجامعـات والثقافة الكبرى ولكن أهميـة منف تدهورت بسبب التغيرات التى طرأت على مصر سياسيا ودينيا بعـد ذلك[3] .

---

(١) Baines, J., Malek, J., op. cit., 1980, p. 114.

(٢) عبد العزيز صالح : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٨ .

(٣) يذكر Baines & Malek أن منف تأثرت بنمو الاسكندرية ، كما أن اهميتها الدينية والفكرية انحدرت بعد اعلان Theodosious المسيحية دينا للامبراطورية الرومانية ، راجع : Baines & Malek, op. cit., p. 184.

بالاضافة الى تلك المدن الكبرى ، كانت هناك أهميـة ثقافية لمدن أخرى كبيرة وصغيرة مثل مدينة وونو (قرب الأشمونين الحالية) التى كانت صاحبة مذهب الثامون ومقر رب الحكمة « تحوتى » والتى كان كل مثقف يتمنى أن يصبح من أهلها ، وكذا كانت طيبة من المدن الثقافية الهامة عـلاوة على كونها أشهر العواصم المصرية القديمة ، وأيضـا كانت ساو « سايس » مدينة الطب[1] .

مدن الحج والزيارة والنبوءات والعرافة :

وهـذه كانت عـديدة فى مصر ، وارتبطت بالآلهة المحليين ذوى الشهرة وكان لهذه المدن هيمنة ونفوذ كبيرين وصـل حد التصـديق المطلق اذ كان ذلك الاعتقـاد فى النبوءات والعرافة وما اليها هو السائد فى العـالم القديم ، ولم تكن أهمية هذه المدن نابعـة من كبر حجمها المـادى أو السكانى لكن من كونها لها قوة الاله الكائن فى معبدها وذلك يفسر لنا ظاهرة حدثت عند غزو الفرس فقد كان فى سيوة معبد لآمون صـاحب النبوءات ، وكان تأثيره طاغيا على العـالم القديم أجمـع ، وهو ما يفسر لنا النفوذ الثقافى والحضـارى لمدن مصر ، فما كان من قمبيز الا أن سير أحد جيشيه ليبطل نبوءة لكهنة آمون بأن جيش الفرس سوف يدحر وهو ما حدث فعلا لجيشهم طبقا لنبوءة آمون فى سيوة[2] ، ومن هنا كانت هـذه المدن تمثل مزارات دائمة وموسمية جلبا للبركة وتحقيقا للرغبات . ومن هذه كانت مدينة « بوزيريس » وهى غربى السنبلاوين الحالية بحوالى ١٣ ميلا وهى تقع على مقربة من النهر ، وكانت من مدن الحج المقدسة ، وذلك للاعتقـاد بأن العمود الفقرى لأوزيريس دفن فيها ، وكان يتدفق عليها عشرات الآلاف لزيارتها[3] .

ويذكر « جونسون » أن العقيدة كانت الشغل الشاغل للبلاد كلها من القرية والاقليم الى الدولة كلها ، وعلى ذلك فلابد أن تكون العقيدة

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق . ص ٣٥٦ .
(٢) احمد فخرى : مرجـع سبق ذكـره . ص ٤٣٤ .
(٣) جيمس بيكى : مرجـع سبق ذكـره . ص ٨٠ .

قد أثرت فى مورفولوجية المدينة بمعابدها ومزاراتها ومنشآتها التابعة وخاصة فى حالة مدن الزيارة ، بل أن المزارات كانت أحيانا توجـد فى القرى ، حيث كان بها بعض المـزارات ومقـار الآلهة . كذلك يذكر « جونسون » أنه كان فى مدينة فيلة وهى جـزيرة ، مراكز ومعـابد دبنية صبغت المدينة بوظيفة مدن الزيارة والحج وقد أثر موقع المدينة فى مجـال نفوذها اذ كان الكثير من رواد مزاراتها لعبادة « ايزيس » كانوا من أقوام وسط أفريقيا ، وقد بدا ذلك فى تركيبها العرقى[1] .

وقد ذكر « هيردوت » العديد من مدن الحج والزيارة والأعيـاد الدينيـة ومنهـا :

١ — مدينة بوزيوس (جنوب سمنود وتسمى أبو صيرينا) للاحتفال بعيد الالهة ايزيس وهو أكبر معبد لعبادة هذه الالهة .

٢ — مدينة سايس (صـا الحجر) لعبـادة الالهة نيت (أثينا) .

٣ — مدينة هليوبوليس (للاحتفـال بعيـد هليوس Helios) ، (وهو الشمس) ومنه اتخذت المدينة اسمها الاغريقى فيما بعد .

٤ — مدينة بوطو أو ابطو للاحتفـال بعيد (ليتو) .

٥ — مدينة بريبيس (وهى جزء من تل الفرما) للاحتفال بعيد لاريس .

٦ — مدينة بوبسطة (شرقى الفرع البيلوزى) وهى تل بسطة اليوم عند الزقازيق وكرست للاحتفال بعيد الاله آرتميس .

وكان الطريق الذى يسلكه الناس فى طريقهم لمدن الاعياد فروع النيـل ويركبون الزوارق[1] وكانت مدن الحج والزيارة هـذه محـل تقديس الناس ، ورغبتهم فى أن يحظوا بالدفن بها بعد الممات (كمـا هو شائع اليوم بين بعض أصحاب الرسـالات السماوية) ، ومن ذلك رغبة المصريين القدماء فى أن يحظوا بالدفن فى « أبيدوس » ليكونوا فى حماية اله الموتى « أوزيريس » ومن المدن المصرية القديمة ما كان يحج

---

(١) Johnson, P., op. cit., 1979, p. 125.

(٣) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٩ — ١٦٦ .

اليها المصريون فى حيــاتهم ، أو يحــج خلفهم من بعدهم اليها نيابة عنهم[1] .

ولابد أن مدن الأعياد هذه كانت تستوعب أحيانا حجما سكانيا يزيد عن حجمها ذاتها ، من ذلك ما ذكره « هيردوت » من أن المحتفلين بعيــد الاله فى « بوباسطس » كان حــوالى ٧٠٠٫٠٠٠ من الرجــال والنســاء والصبية كذلك تميزت بعضها بتقديم الضحايا للآلهــة مثل هليوبوليس وبوطو[2] .

ولم تكن مدن الحج والزيارة هذه دائما للآلهة من البشر ، اذ ذكر هيردوت أن القطط بعد موتها تنقل لمدافن مقدسة فى مدينة بوباسطس حيث تدفن بعد تحنيطها ، وكذا الحال مع الكلاب والنمس ، أما الجرذان والبواشق فتنقل الى مدينة« بوطو » وينقل أبو منجل الى هرموبوليس (الأشمونين) وفى المدينة الأخيرة نجد بهــا مقبرة كبيرة بهــا العديد من الحيوانات والطيور وبالذات فى جبانة كبيرة هى جبانة الأشمونين المعروفة اليوم باسم « تونا الجبل »[3] .

ومن ذلك أيضا المحلات التى خصصت لدفن طائر الأبيس Apis والمعابد المقامة لذلك ، ومنها معبدا فى غرب منف ، وكان الموقع يجذب السكان من الكهنة ، ومن يقومون بمراسم هــذه العبادات ، والبنائين والنحاتين ، لعمل الأعمدة والأروقة ، وغيرهم من الحرفيين ومن لهــم ضرورة فى العناية بالطــائر حيــا وميتــا .

وكان الحجاج يفــدون للموضع ليسألوا الاله ، وانتشرت بيوت الضيافة والمحلات الخاصة باحتياجات الحجاج ، وعلى ذلك فكانت هذه المحلات ليست محلات ذات ســكان ثابتين دائمين ، بل كانت تحــوى سكانا وافدين لفترة الزيارة أى غير ثابتين أو سكان مؤقتين floating population يتزايدون خلال الأعياد الكبرى ، وخاصة فى المناسبات الجنائزية الخاصة بهذا الطائر[4] .

---

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٦٨ — ٦٩ .
(٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٩ — ١٦٦ .
(٣) المرجع اعــلاه . ص ١٧١ .
(٤) Rah, J. D., The house of osorapis, in ucko, P.; Tringham, R., & Dimbleby, G., op. cit., pp. 699 - 704.

ويذكر بترى أن المدن المقدسة ومدن الحج والزيارة كان عددها ٤ فى الوجه القبلى ، ٩ فى الدلتا فى أقدم العصور . وفى عصر المملكة الأولى بلغ عدد المدن التى صارت مقدسة لوجود مخلفات من آثار الاله الشهيد أوزيريس (٧) فى الوجه القبلى و (١٠) فى الوجه البحرى ، وفى الدولة القديمة كانت (١٣) فى القبلى و (١٢) فى البحرى[٢] وتجب ملاحظة أنه اذا ما ذكرنا مدن الزيارة كنمط عريض بين أنماط المدن المصرية القديمة نجد أن سبب هذه الزيارة كان متنوعا ، ويدخل تحت هذه الفئة المدن المقدسة سابقة الذكر ، وكذا مدن العرافة التى كان يهرع اليها الناس بحثا عن الغيب والمستقبل ورؤية الطالع بها حيث آلهة متخصصون فى ذلك وكان أشهر الآلهة فى ذلك المجال « ليتو » فى مدينة « بوطو » أما المدن التى كانت أقل منزلة من بوطو فى شهرتها فى العرافة (التى تنسب أساسا لآلهة هذه المدن) فمنها المدن التى بها الآلهة « هيراكليس » أبو للون ، أثينا ، كما لاحظ ذلك هيردوت ، كذلك كان من أسباب شهرة مدن الزيارة شهرة مدن بعينها فى الطب والتطبيب وهى أيضا ارتبطت بالآلهة الماهرة فى ذلك مثل أرباب صا الحجر (سايس) ، وأون (عين شمس) الذين كانوا يخففون عن الناس آلامهم[١] .

كذلك كان من مدن الزيارة ، مدن الآلهة المتجلية من البطالمة حيث اشتهرت مدن مصرية بعينها فى ذلك ، ومنها مدينة نيابوليس (المنشية) قرى اخميم ، وخميس (اخميم) كعبة اله الخصب (مين)[٣] . ولعل فى نمط مدن الزيارة هذه بعض أوجه الشبه مع ما هو سائد فى مصر حتى اليوم من وجود جاذبية خاصة لمدن بعينها ، غالبا لأسباب دينية ومقدسة تجتذب من البشر فى بعض المواسم ما يفوق حجمها السكانى الفعلى عدة مرات ، وهو ما نراه اليوم فى بعض مدن المزارات الدينية فى الوادى والدلتا .

---

(١) فلاندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ١٠٨ .
(٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٨٩ .
(٣) هيردوت : المرجع اعلاه . ص ١٨٩ .
(٤) المرجع اعلاه . ص ١٨٩ .

مدن الموتى :

هذا النمط من المدن لم يكن فى الحقيقة قاصرا على الموتى ، بمعنى انها لم تحو المقابر فحسب ، بل سكنها العديد من الأحياء ، ولكن الموتى كانوا يلقون من العناية والاهتمام والاحترام ، ما لم يلقه الأحياء أحيانا وكما يعبر « ممفورد » أنه حول أهرام الجيزة وهى جبانة أصلا ، نجد موطنا حضريا حقيقيا للموتى ، فالقبور فى خطوط منتظمة ، والشوارع تتقاطع معها شوارع أخرى ، بل أن مصاطب النبلاء تبدو فى شكل منازل ، ونتيجة البذخ والسخاء فى الانفاق بالاضافة الى مادة البناء ، بقيت مدن الموتى ، وذهبت مدن الأحياء ، ويرى « ممفورد » أن هذا الوضع وتلك المعتقدات هى معتقدات مقلوبة — بمقاييس اليوم بالطبع — حيث كان الأموات أجل شأنا من الأحياء .

وكانت هذه المدن تلحق غالبا بالمواصم ، وينقل « ممفورد » عن « فرنكفورت » أن كل فرعون كان مشغولا باقامة عاصمة جديدة ، ومنشآت مقبرته زمن حكمه ، وهذا لم يكن كما نعلم عرفا عاما ، اذ كثيرا ما بقيت العاصمة مسكونة من قبل عديد من الملوك ، وكذا مدينة الموتى ، ولكن الملفت للنظر أن منشآت مدينة الموتى سواء أكانت هرما أو مقبرة كبرى بعد ذلك ، كانت تشغل الجزء الأكبر من حياة الملك ، لما فى ذلك من تعب ومشقة فى النحت ، والنقش ، والاعداد للحياة الأخرى ، والملفت أيضا أن مدينة الموتى كانت — على عكس المنتظر فيها — تنبض بالحياة ، وذلك لاقامة الكهنة بها وكذا مقيمو الشعائر الجنائزية ، وتبع ذلك ضرورة توفر خدمات معينة بها أقرب ما تكون بخدمات المدينة العادية ومحلات ومتاجر وصناعات وأسواق فقد كانت كثرة عدد الكهنة تضمن وجود المستهلكين وللمقارنة ، نجد أن طيبة فى جزئها الدنيوى (الشرقى) كانت أكثر تواضعا من جزئها الخاص بالحياة الثانية (الغربى) ويرى « ممفورد » أن وظائف المدينة المصرية القديمة وسلطتها ، لم تلتق فى السوق العام وأنها فى المقبرة والمعبد[1] وهو قول فيه شىء من الصحة ولكن كثير من المبالغة .

---

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٢ .

ولعل مدينة « هابو » فى غرب طيبة مثـالا هاما لاحـدى مدن الموتى ، وقد بنى بها فى عهد رمسيس الثالث معبـدا جنائزيا فخما ، وحوله المبانى اللازمة له ، وهذا المعبد وما حوله من منشآت تعطينا فكرة جيدة عن مدن الموتى الملكية فى ذلك العهـد . اذ يقع هـذا الأثر الضخم بصروحه وأبهـاء أعمـدته الرائعة داخل أحـواش داخلية وخارجية ، جنبا الى جنب مع المصلى الرئيسى ، والمبانى جميعها تكون مدينة كاملة من مساكن الكهنة وأتباعهم ، وكذا حديقة وبحيرة وحائط السور الخارجى للمدينة من اللبن . وكانت توصل اليهـا قناة تخرج من النيـل ، مما يدل على أهمية تزويد هـذه المدن — التى لم يقتصر سكناها على الأموات — بالمياه اللازمة للكهنة والموظفين والقائمين على اقامة التمثيل والمبانى والخدم اليوميين للمعابد . وعكست الموتى أحيانا بعض التأثيرات الأجنبية ، غير المصرية ، من ذلك أنه كان بسور تلك المدينة بوابة فى جهته الشرقية بنيت على طراز سورى نتيجة لاحتكاك الجيش المصرى بالبيئة الآسيوية أثناء حملات مصر على سوريا[١] ، ومدينة « هابو » هى واحدة فقط من عديد من مدن الموتى ، التى يمكن لنا أن نتعرف عليها فى مختلف بقاع مصر ، وبخاصة حيث كان موضع احدى العواصم المصرية ، ولذا نجد أهمها فى غرب طيبة وفى سقارة ، ودهشـور واللشت .

مدن النفى والعقاب :

وهـذه لم تكن مدنا بالمعنى المفهوم ، ولكنها كانت غالبا تضطلع بوظيفة أخـرى اذ كانت تشترك جميعا فى موقعها الصـدى بعيدا عن المعمور المصرى وعن العـاصمة أساسا ، وكان يحجز فيها المـارقون والخارجون على القانون ومن يرى الملك فيهم خطرا على البلاد ، لذلك كان من الطبيعى أن تقع تلك المـدن فى الواحات مثـلا ، كذلك يذكر « ولسون » أن بعض الحصون الواقعة عند الحدود البعيدة وخاصة فى الشرق استخدمت كمنفى للمجـرمين وقطـاع الطـرق ، والذين

---

(١) جاردنر : مرجع سبق ذكره . ص ٣١١ .

يسلبون الضرائب ، أو الموظفين العموميين الذين يرتكبون المخالفات والجرائم ، ومن أهم المناطق التى استخدمت كمنفى ومكانا للعقاب حصن « ثارو » الذى يذكر ولسون أنه كان مكانا موحشا طبقا لوصف « استرابو » ، والذى ذكر أن حصن مدينة العريش الحالية ، قد استخدم لنفس الغرض ، وكان اسمه حصن « رينوكولار »[١] .

وارتباط وظيفة هذه المحلات بالحصون يفسرها موضعها الحدى ، وكما لاحظنا عند ذكر دور الحصون والدفاع ، أن العديد منها أقيم لتأديب البدو ، أو المهاجمين للحدود المصرية من خارج مصر ، ولذا كان العديد من الأسرى والمشاغبين يحتجزون بهما فى مثل تلك المواضع الهامشية القصية . .

وفى نهاية موضوع أنماط ووظائف المدن المصرية القديمة نشير الى أن تلك الأنماط والوظائف كانت مختلفة بالقطع عن غيرها من مدن الحضارات المجاورة لمصر ، لأسباب عديدة بعضها يرتبط بالاطار الطبيعى للبلاد ، والآخر تأثر تأثرا بأبعاد العقيدة المصرية القديمة . فمثلا ، لم تعرف مدن الأسوار (المدن المسورة) فى الفترة الممتدة بين أوائل الأسرات وعصر الامبراطورية ، لتوفر الأمان والثقة اذ كان الملك الاها بعكس الحال فى العراق مثلا ، وكانت المدينة وقتها مركزا لاقامة الطقوس ، وهى صفة عامة فى معظم مدن مصر التى كان قوامها القصر والمعبد والهيكل ، ولكنها وان كانت غير مسورة فعليا ، كانت مسورة رمزيا ، اذ أحاطها عدة قرى ، بشكل يشبه فى رأى « ممفورد » ما كان سائدا عند « المايا » Maya من مراكز اقامة الطقوس وادارة دفة الحكم ، ولذا كان التكويه الحضرى فى مصر تكوينا حضريا مفتوحا وليس مشابها لما كان سائدا لدى معظم الحضارات الأخرى ، أو ما يتطرق الى ذهن أغلبية الناس من أن المدينة القديمة هى حشد كثير من البشر فى مكان مطوق بالأسوار[٢] .

وقد جاء السور كأحد المعالم فى مورفولوجية المدينة المصرية فى عهد متأخر كما هو الحال لدى المايا ، ولأسباب مشابهة أيضا رغم

(١) ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٥ .
(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٣٨٢ .

اختلاف الزمان والمكان ، ولم يكن السور كما كان فى معظم المدن الأجنبية للحماية الداخلية ، انما للحماية ضد الغزاة ، وزادت أهمية السور نتيجة تأثيرات أجنبية منها مثلا غزو الهكسوس الذى ساعد فى ظهور السور كمعلم فى مورفولوجية المدينة .

وعلى ذلك فنمط ووظائف المدينة المصرية كان أحيانا يبدى استقلالا وتفردا وأحيانا كان يعكس نمط المدينة الأجنبية القديمة ، ومرجع ذلك كما رأينا لبعض الظروف أو التأثيرات الأجنبية .

وليس أصدق من تأثير التدخل الأجنبى فى مصر ما ذكره « استرابو » من أنه حين قدم الرومان فان « هليوبوليس » هجرت ، وأصبحت المراكز الحضرية مثل « أبيدوس » و « طيبة » مجرد مجموعة من المحلات العمرانية المتواضعة Hamlets (٢) .

وعلى ذلك ، جاء على المدن المصرية وقت ، أفل نجمها ، وقلت أهميتها ، وتدل الدلائل على عكس ذلك أحيانا من ارتفاع الشأن ، وتضخم الحجم . مما جعل البعض يطلق عليها تعبيره المدن الطفيلية ، كما كان الحال مع تانيس Tanis التى اهتم بها رمسيس الثانى ، وجهزها بمعبد لآمون ملاه بالتحف ، لدرجة أنه يعد متحفا قائما بذاته . جاءت مقتنياته من عديد من المعابد الأخرى فى أرجاء مصر كلها ومدنها ، أخذت منها ، حتى أن بناء تانيس نفسها لم يخل من عدوان على آثار ، ومواد بناء أخرى أخذت من مواضع عديدة ، مثل منطقة الاهرامات الكبرى ، علاوة على الأعمدة الجرانيتية التى حصل عليها أينما وجدت(٣) .

ويمكن القول ، أنه بانتهاء العهد الفرعونى ، وبداية التدخل الأجنبى وظهور جحافل الغزاة والأجانب أبدت المدن المصرية وظائف وأنماط جد مختلفة عما كان سائدا بها طوال العهد الفرعونى . وبدأت

---

(١) ممفورد : المرجع السابق . ص ١٥٥ .
(٢) جونسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢١٥ .
(٣) المرجع اعلاه . ص ٢٢٩ .

الآثار الأجنبية تظهر بالتدريج على وظيفة المدينة المصرية القديمة بما فى ذلك أهم الوظائف مثل وظيفة العــاصمة حين تحولت العــاصمة الى « الاسكندرية » وكذا الوظيفة الدينية ، وبذلك دخل نمط ووظيفة المدينة المصرية القديمة فى طور جديد ، بعد أن ظلت المدينة المصرية تضطلع بوظائفها الحية لمديد من السنين ، اذ نجد مدينة مثل منف ظلت قائمة كمركز مقدس — رغم انحسار الضوء عنها كعاصمة — مدة ١٥٠٠ سنة ، كذلك وحتى فى المدن قصيرة العمر كان لهــا نمطها الخاص ، ووظائفها المميزة ، ولعل أهمها فى ذلك المجال واحدة من أقصر المدن المصرية عمرا ونعنى بها « آخيت آتون » حيث مارست وظيفتها لحوالى ستة عشر ســنة فقط .

المراجـع العربيـة :

١ — ابراهيم أحمد رزقانة : الحضارات المصرية فى فجر التاريخ ، مكتبـة الآداب ، القـاهرة سنة ١٩٤٨ .

٢ — ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القـاهرة ١٩٧٦ .

٣ — تاريخ مصر فى عصر البطالمة : الجزء الثانى ، الطبعة الرابعة ، مكتبـة الانجلو المصرية ، القـاهرة ١٩٧٦ .

٤ — تاريخ مصر فى عصر البطالمة : الجزء الثالث ، الطبعة الثالثة ، مكتبـة الانجلو المصرية ، القـاهرة ١٩٦٦ .

٥ — تاريخ مصر فى عصر البطالمة : الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، مكتبـة الانجلو المصرية ، القـاهرة ١٩٦٦ .

٦ — أحمد على اسماعيل : دراسات فى جغرافيـة المدن ، الطبعـة الأولى ، القـاهرة ، ١٩٧٧ .

٧ — أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، الطبعـة الثالثة ، مكتبـة الانجلو المصرية ، القـاهرة سنة ١٩٧١ .

٨ — الن جاردز : مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٧٣ .

٩ — اتين دريوتون وجاك فانديبه : مصر ، تعريب عباس بيومى ، دار النهضة المصرية ، القـاهرة سنة ١٩٥٥ .

١٠ — بول غليونجى : الطب عند قدماء المصريين ، فى وزارة الثقافة والارشاد القومى ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول (٧) ، القـاهرة ، بـدون تاريـخ نشر ، ص ٥٢٣ — ٥٦ .

١١ — بول غليونجى وزينب الدواخلى : الحضارة الطبية فى مصر القديمة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٢ — تقى الدين أحمد بن على المقريزى : (المتوفى ٨٤٥هـ) ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، أو تاريخ المجاعات فى مصر ، تقديم وتعليق بدر الدين السباعى ، دار بن الوليد ، حلب ، سنة ١٩٥٦ .

١٣ — جمال حمدان : القاهرة ، دراسة فى جغرافية المدن ، فى ديزموند ستيوارت ، القاهرة ، ترجمة يحيى حقى ، كتاب الهلال ، القاهرة ، مارس سنة ١٩٦٩ .

١٤ — جمال حمدان : شخصية مصر ، الجزء الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

١٥ — جون ولسون : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخرى ، مجموعة الالف كتاب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥ .

١٦ — جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل ، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد ، مجموعة الالف كتاب ، دار الكرنك ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٧ — جيمس هنرى برستيد : انتصار الحضارة ، ترجمة أحمد فخرى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥ .

١٨ — رمضان عبده السيد : معالم تاريخ مصر القديم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٩ .

١٩ — سليم حسن : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

٢٠ — مصر القديمة : الجزء العاشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، سنة ١٩٥٥ .

٢١ — سليمان حزين : البيئة والانسان والحضارة فى وادى النيل ، فى وزارة الثقافة والارشاد القومى تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول (١) ، القاهرة بدون تاريخ نشر ، ص ٣ — ٣٦ .

٢٢ — عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٢٣ — عبد الفتاح وهيبة : جغرافية العمران ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٢٤ — مصر والعالم القديم : منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ،

٢٥ — عبد المجيد فراج : الأسس الاحصائية للدراسات السكانية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢٦ — عبد المنعم أبو بكر : النظم الاجتماعية فى مصر القديمة ، فى وزارة الثقافة والارشاد القومى ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، العدد الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ نشر ، ص ١٩ — ٣٢ .

٢٧ — فلندرز بترى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ، ١٩٧٥ .

٢٨ — هيردوت : هيردوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صقر خفاجة ، دار القلم ، القاهرة سنة ، ١٩٦٦ .

٢٩ — لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ، الجزء الأول ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٣٠ — المدينة على مر العصور : الجزء الثانى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٣١ — محمد أبو احاسن عصفور : التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد السابع عشر ، ١٩٦٣ ، ص ٨٧ — ١٠٩ .

٣٢ — بين الفنون والبيئة فى كل من العراق ومصر فى عصورها القديمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الحادى والعشرون ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٥ — ٢٣٩ •

٣٣ — محمد السيد غلاب : البيئة والمجتمع ، الاسكندرية ، ١٩٥٥ •

٣٤ — ويسرى الجوهرى : الجغرافيـة التاريخيـة ، عصر ما قبل التاريخ وفجره،مكتبة الانجلو المصرية،الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ •

٣٥ — محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى : جغرافيـة الحضر ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، بدون تاريخ نشر •

٣٦ — محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ •

٣٧ — محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية فى عهد قدماء المصريين الى سنة ١٩٤٥ ، خمسة أجزاء ، مطبعة دار الكتب المصرية ووزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٥٣ — ١٩٥٤ •

٣٨ — محمد شفيق غربال : تكوين مصر ، ترجمة محمد رفعت ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ، ١٩٧٧ •

٣٩ — محمد مدحت جابر عبد الجليل : مركز المنيـا ، دراسـة فى جغرافية العمران ، رسـالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى قسم الجغرافيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٨ •

٤٠ — محمود أمين عبد الله : تطـور الوحدات الادارية فى العهـد العربى ، رسـالة دكتوراه غير منشـورة مقدمة الى قسـم الجغرافيا بكلية الآداب ، جامعة القـاهرة ، ١٩٦٩ •

٤١ — مصطفى عامر : حضارات عصر ما قبل التاريـخ ، فى وزارة الثقافة والارشاد القومى ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، مكتبـة النهضـة المصرية ، بدون تاريخ نشر ، ص ٣٧ — ٨٠ •

٤٢ ـــ نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ،(١) ، مصر ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القــاهرة ، ١٩٦٦ •

٤٣ ـــ وليم نظير : الثروة النباتية عند قدمــاء المصريين ، الهيئــة المصرية العامة للكتاب ، القــاهرة ، ١٩٧٠ •

المراجع الأجنبيــة :

43. Attia. M. I., Deposits in the Nile Valley and the Delta, Geographical Survey of Egypt, Gov. Press, 1954.

44. Baines, J. and Malek, J., Atlas of Ancient Egypt, phaidon, Oxford, Elsevier. 1980.

45. Ball, J., Egypt in the classical geographers, survey of Egypt, Gov. Press, 1942.

46. ————, contributions to the geography of Egypt, survey of Egypt. Gov. Press, 1952.

47. Bernard, A., le Delta Egyptien d'après les textes grecs : I. les confins libyque, Mem. Inst. Fr. Archeol. Orientale : 41, 1971, pp. 103 - 4.

48. Breasted, J. H., Ancient records of Egypt, IV. Chicago University Press. 1906.

49. Brock, J. and Webb, J. W., A geography of mankind, Mc graw-Hill, New York, 1973.

50. Butzer, K., Contributions to the pliestocene geology of the Nile Valley. Erdkunde 13, 1959, pp. 46 - 67.

51. ————, Environment and human ecology in Egypt during predynastic and early dynastic times, Bull. Soc. Géography. Egypte, 1959, 32 : pp. 43 - 87.

52. Butzer, K., Remarks on the geography of settlement in the Nile Valley druing the Hellenstic times, Bull. Soc. geography. Egypte, 1960, 33 : 5 - 36.

53. ————, Environment and archeology : An ecological approach to prehistory, Chicago, Aldin Pub. Co., 1971.

54. ———, Erly hydraulic civilization in Egypt, the University of Chicago Press, Chicago and London, 1976.

55. Carter. H., The study of urban geography, John Willey, New York, 1976.

56. Carter, H., and Davies, W., urban Essays, London, 1970.

57. Crawford, D. J., An Egyptian village in the Ptolemical period. Cambridge, Cambridge University press, 1971.

58. Davies, W., Approaches to urban geography : An overview, in carter, H., and Davies, W., eds., urban essays, London. 1970.

59. Dixon, D. M., The disposal of certain personal household and town waste in Ancient Egypt, in ucko. P. J.; Tringham, R., and Dimbleby, G. W., eds., Man, Settlement, and urbanism, Duceworth, 1972. pp. 646 - 50.

60. El-Gowhary, Y., The Ancient capitals of Egypt, Bull. of the Faculty of Arts, Alex. Univ., (19) 1966, pp. 3 - 15.

61. Edwards, I.. The pyramids of Egypt, New York, Viking Press Inc., 1971.

62. Everson, J. A. and FitzGerald, B. P., Incide the city, Longman, London, 1973.

63. Fairman, H. W.. Town, planning in Pharaonic Egypt, Town planning Review, 1949, 20 : 33 - 51.

64. Fakhry, A., The oases of Egypt, Vol. I. Siwa, American University in Cairo Press, Cairo, 1973.

65. ———. Vol. 2. Bahria, 1973.

66. ———, Vol. 3. Kharga. 1974.

67. ———, Vol. 4. Dakhla, 1974.

68. Farid, E. A., The population of Egypt, Cairo, 1948.

69. Flannery, K. V., The orgins of village settlements type in Meso-America and the Near East : A comparative study, in ucko, P., Tringham, R., and Dimbleby, G. W.. Op. Cit., 1972, pp. 23.

70. Gardiner, A. H., The Wilbour papyrus, Vol. 2. Oxford University press. 1948.

71. Gallion, A., and Eisner, S., The urban pattern, New Delhi, 1969.

72. Hodges, H. W., Domestic Building materials and Ancient settlements, in ucko. p., Tringham, R., and Dimbleby, G. W., op. cit., pp. 523 - 30.

73. Holz., R. K., Man made landforms in the Nile Delta, Geog. Review, 59 : 253 - 69.

74. Huzayyin, S. A., the place of Egypt in prehistory, Mem. Inst. Egypte 43. 1941.

75. Johnson, p. the civitization of Ancient Egypt, London, 1979.

76. Jones, E., Towns and cities, Oxford Univ. Press, 1976.

77. Jones, E.. and Zandt, E., The city, New York, 1974.

78. Kees, H., Ancient Egypt : A cultural Topography, London, 1961.

79. Kemp, B. J. Fortified towns in Nubia, in ucko, P.. Tringham, R., and Dimbleby, B. P., eds. Ou. cit., 1972, pp. 651 - 56.

80. Kemp. B. J. Temple and town in Ancient Egypt, in ucko, p., Tringham, R., and Dimbleby, G. W., eds. op. cit., 1972, pp. 657 - 80.

81. Kraeling, C. and Adams. R., eds. City Invincible : An oriental Insititute symbosium, Chicago; University of Chicago press, 1960.

82. Lozach, J., Le Delta du Nil., Soc. de Géog. d'Egypte, 1935.

83. Lucas, A., and Harris. J., Ancient Egyptian materials and industries, London, 1948.

84. Montet, p., Eternal Egypt, traslated by weightman, D., Readers union. London, 1965.

85. Murray, G. W., The Egyptian climate : An hislorical outline, «Geography», 1951, 117. pp. 422 - 34.

86. Northam, R. M., urban geography, Willey, New York. 1975.

87 O'connor, D., The geography of settlement in Ancient Egypt, in ucko, p.; Tringham, R.. and Dimbleby G. W. eds., op. cit. 1972, pp. 681 - 98.

88. Petri, W. M. F., Kahun, Gurob. and Hawara, London, 1890.

89. Ray, J. D., The House of osorapis, in ucko, P. J.; Tarngham, R.. and Dimbleby, G. W., eds., op. cit. pp. 699 - 704.

90. Rugg, D. S., spatial foundation of urbanism, Dubuque Iowa, 1977.

91. Smith, H. S. Society and settlement in Ancient Egypt, in ucko, P.; Tringham, R.. and Dimblaby, G. W., eds., 1972, op. cit., pp. 705 - 19.

92. Toussoun. O., Mémoirs sur l'Histoire du Nil., Mem. Inst, Egypte, 8 - 10, 1925.

93. Spiegelman. M., Introduction to Demography, New York, 6th eds., 1980.

94. Uphill, P. The concept of the Egyptian palace as ruling machine, in ucko, p.; Tringham, R., and Dimbleby, G. W., eds., 1972, op. cit., pp. 721 - 34.

95. Willcocks, W. and Craig., J., Egyptian Irrigation 3rd eds. 2 Vols. London, 1913.

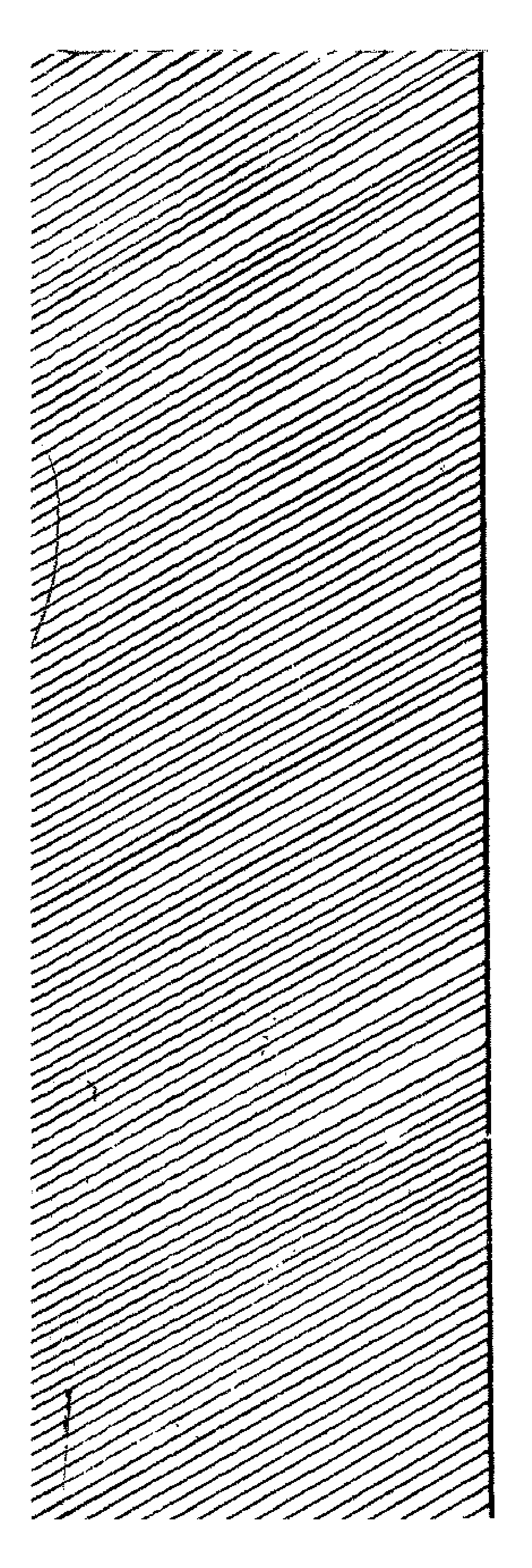
الفهرست

الموضـــوع | الصـــفحة

الموضـــوع | الصـــفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٧٣٧٠

المطبعة التجارية الحديثة
٢٢ شارع ادريس راغب بالظاهر
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة



الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة
١٩٨٤